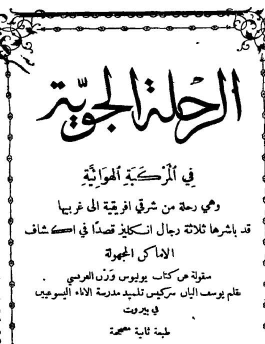






# الرحلة الجوية

## في المركبة الهوائية

وهي رحلة من شرقي افريقية الى غربيها
قد باشرها ثلاثة رجال انكليز قصدًا في اكتشاف
الاماكن المجهولة


منقولة عن كتاب يوليوس ورن الفرنسي
بقلم يوسف اليان سركيس تلميذ مدرسة الآباء اليسوعيين
في بيروت



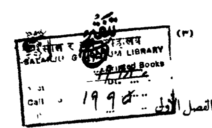
طبعة ثانية مصححة

IHS

مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين
في بيروت سنة ١٨٨٦


١٣٠٣






## الفصل الاول

في مقصد العلّامة فرغوسن ووقوع المباحثة عنهُ

لما كان اليوم الخامس عشر من شهر كانون الثاني سنة الف وثمانمائة واثنين وستين اذاعت الصحيفة الانكليزية المعروفة باسم دالي تلغراف النبذة الآتي ذكرها

انهُ عن قريب ستنجلي للعيان غيوم الظلام التي تستر عن الخاص والعام ما في بطون افريقية واقفارها الشاسعة من الاسرار والخبايا والكنوز والخفايا وقد طالما حدَّ في اكتشافهِ العلماء والسياح وبذلوا وسعهم في الدخول الى تلك الاقاليم والبطاح وفي الايام السالفة كان يُعدّ ضربٌ من الجنون والخرافات التشحع للرحيل بقصد اكتشاف عيون النيل

فالعلّامة برث رحل الى بلاد السودان في الطريق التي سلكها دنهام وكلابرتون وبحث العلّامة ليونكستُن عن احوال بلاد افريقية من رأس الرجاء الصالح الى نحري الزمبزي واما القبطانان بُرتون واسبيك فاكتشفا البحيرات العظمى الداخلة وبذلك فتحا سبيلًا لنشر راية التمدن في تلك الاقطار حيث توقف الى الآن احنحة ظلام الجهل الدامس . اما قلب افريقية فهو القطر الواقع ما بين البحيرات المومأ اليها وذلك لم يتمكن سائحٌ من الولوج فيهِ وبهِ تنوط الآمال

فقد صمم العلّامة ساموئيل فرغوسن احد السياح الشهيرين على ان

يفك عقدة الرحلات السابقة باقدامه على اكتشاف قلب افريقية من الشرق الى الغرب في المركبة الهوائية وبلغنا ان صعود فرغوسن الى الفسحات الجوية يكون من جزيرة زنجبار عند الساحل الشرقي اما نزوله الى الارض ففي تقدير الله سبحانه وتعالى وهو يهديه الى حيث يشاء

وقد عُرضت هذه المسألة نهار البارح في الجمعية الجغرافية الملوكية في لندرة وقرّ رأي اعضائها على بذل الفين وخمسمائة ليرة انكليزية لمصاريف هذه الرحلة الجوية

وسنطلع قراء صحيفتنا ان شاء المولى على وقائع هذه السفرة التي لم يسبق لها مثيل . اه

فلما انتشرت هذه النبـذة قام الجدال على قدم وساق بهذا الخصوص وظنَّ الكثيرون ان مقصد العلامة فرغوسن ضرب من الخرافة والحكايات اشبه به بزنوم الاميركاني الشهيرة حزعبلاتهُ وغرائبهُ المضحكة

ثم احدت بعض الصحف تستهزي بجمعيـة لندرة الجغرافية وتسخر بما جاء عن فرغوسن ورحلته الجوية في المركبة الهوائية فنهضت صحيفة المانية واجبرت المياومات المذكورة على السكوت لان احد مديريها كان يعرف العلامة فرغوسن وحذاقتهُ العجيبة وجراءتهُ الغريبة

وما مضت برهة الّا وقع برقع الشك عن اعين النـاس وأُوعز الى معمل ليون ان يشتغل قماشاً حريرياً خاصاً بالقبة الهوائية وامرت الحكومة الانكليزية بان تقام تحت امر فرغوسن السفينة المعروفة باسم ريزولوت ليركبها ويتقل عليها لوازم سفره

وقد اذاعت من ثم المياومات عدة كلاماً كثيراً عن هذا المشروع الغريب فمنها ما تنبأت على نجاحه وفلاحه ومنها ما هزأت بفرغوسن وارائهِ ومركبته ومنها

ما اشارت عليهِ ان يندفع بمركبتهِ الهوائية الى الاقطار الاميركانية وذلك بنيــة الهزء والسخرية

ولا حاجة لذكر جميع اراء كتّاب الجرائد بهذا الشـــان بل نقول انهُ قد تشارط اقوام كثيرون بعضهم بين بعض حسب عادة الانكليز اولًا على وجود العلامة فرغوس الحقيقي او الوهمي . ثانيًا على الرحلة ذاتها اذا كانت تُباشر او لا تُباشر . ثالثًا على نجاحهِ في مشروعهِ او فشلهِ . رابعًا على رجوعهِ او بقـــائهِ في تلك الاقطار الشاسعة واردعوا مبالغ عظيمة تنفيذًا لهذه الشروط

ولذلك رأيت الناس جميعًا من العامة والخاصة شاخصين ومحدقين الانظار بذلك الانسان العجيب الذي يتجـاسر على المرور باواسط افريقية ومفاوزها الهائلة وكثيرون هم الذين اقبلوا عليهِ وارادوا الاشتراك معهُ في رحلتهِ فابى ان يقبل احدًا دون ان يعطي سببًا عن رفضـــهِ ومن المعلمين الماهرين في صنيع الالات وغيرها من ارادوا ان يفهموه عن اشكال مركباتهم الهوائيـــة ليتخذها اسًا لهُ فابى ان يصغي لاحدٍ وكان مهتمًا بشغلهِ ويتأهب للرحيل

## الفصل الثاني

### في صاحب العلامة فرغوس وحدالهُ معهُ على الترحال
### وفي ذلك فوائد

وكان للعلامة ساموئيل فرغوس صاحب حميم محول على اطباعهِ وحلائقهِ وينحو نحوه في جميع مآربهِ وهو ىلاد إسكتسيا يقال لهُ ديك كنادي وكان يقطن مدينة ليط بقرب ايدمبرج ومهنتهُ الصيد وقد جاء عنهُ انهُ كان ماهرا حادقًا في صرب الرصاص وخصوصًا بالسـلاح المعروف بالقرَبينة اما قامتهُ فلا تبلغ اقل من ستة اقدام انكليزية وتلوح على وجههِ تباشير الهشاشة والبشاشة وهو على جانب عظيم من حدة الطبع دو قوة وباس وجرأة وجسارة وبسالة طبيعيـة وقد احترَّ وجههُ من قِبل حرارة الشمس وكان حادّ البصر اسود العينين

وقد كان صاحب العلامة فرغوس في البلاد الهندية لانهما كانا من فرقة عسكرية واحدة ولما كان ديك في تلك البلاد يصيد الافيال والنمورة وكان ساموئيل يبحث عن انواع النباتات والحشايش واجـناس الدواب والهوام كلٌّ منهما كان ماهرًا في حرفتهِ ولم يعرض اصلًا لهذين الصاحبين ان يشمل الواحد الاخر من تهلكة ولذا كانت رباطات صحبتهما وثيقة واذا اتفق لهما ان يتفارقا قد قرّبتهما وجمعتهما سريعًا جاذبية التعطف والمحبة

وعند رجوعهما الى لندرة كانا يتفارقان دائمًا لداعي رحلات العـلامة ساموئيل ولكن عند رجوع هذا من السفر كان يقصد محلّ صاحبهِ ليس ليزورهُ فقط بل ليقضي عنده بعض الايام والليالي

واما ديك فكان لايحدّث الّا عن الماضي وبالعكس ساموئيل فانهُ

لم يكن يتبصر الّا في المستقبل فهذا ينظر الى امامهِ وذاك الى ورائهِ ولهذا السبب كنت ترى ساموئيل خائضاً دائماً بحور الهمة وكاذي راتعاً على سواحل الراحة

وبعد رحلة العلامة فرغوس الى قطر الطيبة الشاسع استمرَّ سنتين في ندرة ولا يتكلم قطعاً عن رحلة اخرى او مشروع غير ما عاناهُ في حياتهِ فظن صاحبهُ الموما اليه انهُ قد خمدت في قلبهِ نار الرغبة في ركوب مطايا البحار وغوص البطاح والقفار لكثرة ما قصاهُ من الاسفار وكثيرًا ما حثهُ على الاضراب عن مثل هذه الافكار بقولهِ لهُ : حسبك ما درست وساورت وبحثت اما ساموئيل فلم يكن يجيبهُ بشيء لهذا الكلام بل كانت تلوح على وجههِ امارات التبحر والتبصر وبهم دائماً في الشغل والعمل ويسهر الليالي في ضرب حسابات وامتحان آلات لا يدركها انسان وكأنك بهِ قد اتبع رأي الشاعر العربي حيث قال

| | |
|---|---|
| بقدر الكدّ تكتسب المعالي | ومن طلب العلا سهر الليالي |
| يغوص البحر من طلب اللآلي | ويحظى بالسيادة والنوال |
| ومن طلب العلا من غير كدّ | اضاع العمر في طلب المحال |

وكان يفكر ديك بنفسهِ عما عساه يتبصر بهِ العلامة فرغوس وما الذي يشغل منهُ الافكار في الليل والنهار

فقد اطلع على هذا السرّ الخفيّ بقراءتهِ ندة الصحيفة التي اذاعت مقصد العلامة في رحلتهِ الجوية

وعند فروغهِ من تلاوة تلك الاساطير صاح وقال : اللهمَّ هل اهملت عبدك ساموئيل فان مخاخهُ قد فرغ من التعقل وتحللهُ الجنون كيف عساهُ يجوز اقطار افريقية في المركبة الهوائية فلا ريب ان ما كان يتبصر بهِ منذ

سنتين هو هذه السفرة التي لا يتصورها عقل بشر ألّا اذا كان مصاباً بداء السرسام

حينئذٍ انت اليهِ زوجتهُ وقالت لهُ : لعلَّ ذلك سرٌّ ضحيةُ دعاوٍ لا تدركها

فاجابها وقال في الحال : انكِ لا تعرفين خُلق هذا الانسان فانهُ اذا رصد وعد واذا عزم تمم ولكن ليت شعري ماذا يريد ان يعمل في طبقات الجو هل حسد النسورة على طيرانها وصمم النية على الاقتداء بها فاني سابذل الجد والجهد لاصدهُ عن صلاتهِ والّا اذا تُرِكَ على حالهِ يخطر بالهِ ان يرتقي الى طبقات القمر في ليلةٍ رائقة

ولما عقب الصباح تلك الليلة ركب ديك المركبة الحديدية النارية قاصداً مدينة لندرة وما مضت ثلاث ارباع الساعة الّا وصل الى بيت صاحبهِ العزيز فطرق الباب خمس مرات بشدةٍ وعنف فنهض فرغوسن دون ان يعرفهُ وفتح لهُ الباب بيده ولما بصر بهِ قال لهُ . أانت ديك وما عساك تطلب في لندرة في ايام الصيد

وبعد ان تصافحا وقرأ السلام بعضهما بعضاً قال ديك . اتيت لامنع عمل جنون لا اسم لهُ

قال سامونيل : وما عسى يكون هذا الجنون

قال ديك : وهل لمقال صحيفة دالي تلغراف صحة عن رحلتك الجوية

قال سامونيل : وبهذا تعني فمالك والصحف فانها قليلة التحسب . إجلس هنا لاطلعك على حقيقة الامر

قال ديك : وكيف اجلس قبل ان تخبرني ان كنت على عزم في معاناة هذه السفرة

قال ساموئيل : نعم يا خليلي واني متأهب للسعر والحاجات قد . . .
فقاطعـهُ ديك وقال : اين هذه الحاجات لاقطعها اربًا والقيها خارجًا فتذريها الريح كالهباء المنثور
وفي الحقيقة تلاعبت وقتئذٍ على محيا ديك اطوار الكدر والحمية
قال ساموئيل : مهلًا مهلًا يا صاحبي لوكنت عالمًا بمقاصدي ومآربي لـما كنت حميت وحقت
قال ديك : وما هذه المقاصد والنوايا
فغير ساموئيل الحديث بقولهِ : لولا تراكم الاشغال عليَّ لكنت اطلعتك على كل ما يختص برحلتي
قال ديك : وما حاجتي اليهِ
قال ساموئيل : لاني مصمم النية على ان اخذك معي في مركبتي
فلما سمع ديك هذا الكلام قفز قفزة العلام وقال : لعمركَ وهل ارضى بان اكون محبوسًا واياك في منزل بيت لحم ( وهو منزل المجانين في لندرة )
فقال ساموئيل : لو اصغت لي سمعًا عشر دقائق لشكرت لي معروفي على احتياري اياك دون غيرك لمرافقتي
قال ديك : هبْ اني ابيت الذهاب فماذا تعمل
قال ساموئيل : ولن تعمل ذلك
قال ديك : وان فعلت
قال ساموئيل : عند ذلك سانطلق وحدي
قال ديك : هات لنا لنرى حديثك لعلَّ فيهِ ما يُقنعني
قال ساموئيل قُم لنتحـدث يا صاح ونحن على مائدة الفطور وبعد ان وصلا الى المائدة وجلسا متقابلين قال ديك : لعمري كيفما قلبتُ مقصدك

وجدته صرباً من الضـــاوة والو بال واراهُ نوعاً من المحال وعرياً من كل تعقل وافوار

قال ساموئيل : سنرى ذلك عد الامتحان اذ عد الامتحان يُكرم المرء او يُهان

قال ديك : لله درك كيف تمتحن الامر والواجب عليك عدم الامتحان

قال ساموئيل : ما ترى يعنعي

قال ديك : هل يخفى عليك ما سيحيق بك من المصاعب والاخطـــار والمهالك

قال ساموئيل : انمـــا المصاعب يجب على الانســان الظفر بها واما الاخطار فمن تراهُ يتحاشى عنها ويتبرّه وقد جاء ان زوايا الدنيا مشحونة بالرزايا واذا جلستَ على المائدة واردت تناول الطعـــام فلا يخلو الامر من الخطر فعلينا ان نظر الى ما سيجرى كانهُ جرى ونعتبر المستقبل كأنهُ حاضر لان المستقبل ليس الّا بحاضرٍ مقبل

قال ديك : وهذا قليل لديك أعلك ممن يتكلون على القدر

قال ساموئيل . نعم ولكن على الوجه الحسن . فليس لنا ان نهتم عـــا أُعدَّ لنا من النصيب بل الخليق بنا ان نتذكر المثل الانكليزي القائل : من خُلق ليُشنَق لن يُغرَق

فاجاب ديك لذلك المقال بما يطول شرحهُ ويضيق بنا المجال لذكره وبعد ان فرغ من القيل والقال والتنازع والجدال قال واذا كان لا بدَّ من الترحال فلمَ لا تسير بالطريق التي سلكها الرجال

قال ساموئيل : أتسألني لماذا لا اسير في الطريق التي سلكها المسافرون من قبلي وانت عالمٌ ان جميع السيـــاح الذين قصدوا بطون افريقية ذهبت

مســاعيهم هدرًا وهلكوا اشر الهلكات وأُصيبوا بامر الرزايا والافات فقد دُعم منغوبرك عند نهر النيجر وفقد فوحل في معاوز واداي الشاسعة ومات اودني في مُرمُر وكلابرتون في سكاتو وتقطع مران العرنسي اربًا وقُتل لايك من التوارج ودُبح المسورجي سنة ١٨٦٠ . فهلك جميع هؤلاء لانهُ ضربٌ من المحال ان يتحمل المرء طويلاً الجوع والعطش والمشاق والامراض وان يبارع ويناطح الوحوش الكاسرة والاقوام المتوحشين البرابرة فيا لم يتم بطريقةٍ عسى ان يتم بطريقــةٍ اخرى وحيث انهُ يمتنع المرور في وسط تلك الاقطــار وجب علينا ان نمر من فوقهــا

قال ديك : والحالة هذه فلنمرّ من فوقهــا طائرين

قال ساموئيل · وما لي ان اخشى وارتاب وقد رتبت وهيأت جميع الاسباب مالي جهزت مركبتي الهوائية سوى لا اخشى بهِ السقوط واذا هبطــا وسقطت المركبة فاتمم الرحلة على ستة من سنقي في ذلك ولكني واثق انهُ لحهة نظامها وترتيبها لا تسقط ولا تنهار

قال ديك :كلا يا صاحبي لا تثقنَّ بهذه القبة الهوائية

قال ساموئيل :كن على بصيرةٍ اني بعونهِ تعالى وتوفيقهِ لا افارق مركبتي الّا بعد وصولي الى افاق افريقية العربية لان بها يتمّ كل شيء وبدونهــا اقع في وهاد المخاطر والوبال وبها لا اخشى الحرّ ولا الصر ولا الزوابع والزعازع ولا الحرور ولا السموم ولا الاهواء السقية ولا الارياح المشؤمة ولا الحيوانات الكاسرة حتى ولا الاقوام الغادرة فاذا احسست بحرارة ارتقي الى علٍ واذا شعرت ببردٍ انزل الى اسعلٍ واذا قابلني جبل او طوط امرّ من فوقهِ فاقطع الجبال والوديان والبطاح والعيطان واجوز الانهــار والبحيرات واتنزّه عن جميع الافات واطير في الجوّ طيران المواشق دون ان يلاحقني ملاحق

فلما سمع ديك هذا الخطاب ارتاع فؤاده وحالة الاضطراب واخذ يحدق بصاحبه ويظن نفسه انه طائر في الجو ومترجرج في عباب محور العلاء. ثم قال وهل وجدت وسيلة لقيادة المركبة الهوائية

قال سامونيل كلا

قال ديك اذًا الى اين تذهب بها

قال سامونيل اذهب حيث شاء ربك ولكن من بيتي ان اسافر من الشرق واحط في الغرب

قال ديك ولم ذلك

قال سامونيل لاني اسير مع ريح الصبا التي تهب شتاتٍ من الجهة الشرقية الى الجهة الغربية

تأمل ديك برهةً ثم قال لستُ بمكران ريح الصبا. فالحصر. تقدر. تو ١٠ فق . رحلتك

قال سامونيل قل رحلتنا هل لك اعتراض اخر يا ديكًا

قال ديك كيف ولي الف اعتراض وقبل كل شيء اطلب اليك ان تقول لي كيف تريد الارتقاء والنزول والرحيل في تلك الطلول دون ان يجرع الغاز الذي به تطير المركبة

قال سامونيل وانا اقول لك اني لا افقد ذرة واحدة من الغاز

قال ديك وتحط في الارض كيف ومتى شئت

قال سامونيل نعم يا صاح فاني احط كيفما شئت ومتى شئت

قال ديك وكيف ذلك

قال سامونيل هذا سرّي الخفي فثق بي وكن على أُهبة وقل معي السيرُ الى ما فوق

محاول ديك ان يظهر رايهُ مطابقاً لرأي صاحبه ولكن في نيته ان يقاومهُ في مقصده مقاومة الاسود

مختم ساموييل الحديث بقوله قد رخصت لي الحكومة الانكليزية في سفينة تكون تحت امري وتدبيري فلا بد من ان املأ حرية د بحار قبل ثلاثة اشهر فهناك اطلق مركبتي الهوائية ونطير بها انا واياك

# الفصل الثالث

## في ذكر الرحلات التي عاناها المسافرون في بطون افريقية ومعاوزها مقصد الاكتشافات الجديدة

واما الناحية التي اختارها العلامة ساموئيل مركزاً للانتقال منها الى الطبقات العلوية على اجنحة المركبة الهوائية فهي زنجبار وكانت نعم الخيار. وزنجبار جزيرة واقعة في جهة افريقية الشرقية في عرض جنوبي ٦° اي تحت خط الاستواء باربعمائة وثلاثين ميلاً انكليزيًا او نحو ٢٦٨ ميلاً هاشميًا (والميل الهاشمي عبارة ٤٠٠٠ ذراع) فيليق بنا ان نستطرد لذكر بعض الرحلات التي باشرها المسافرون في افريقية بقصد الاكتشافات الجديدة

وكان من قصد العلامة فرغوسن ان يعيدها وهما اثنتان ذات اهمية جزيلة: الاولى رحلة برث سنة ١٨٤٩ والثانية رحلة الملازمين برتون واسبيك سنة ١٨٥٨

اما برث الهمبورجي فقد أُذن بان ينضم هو وابن وطنه اوفرورك الى الانكليزي ريشردسون الذي كان قاصداً بلاد السودان ببعثة من الحكومة وبلاد السودان واقعة بين ١٥° و١٠° من العرض الشمالي ويقتضي للوصول اليها المسير في مسافة تنيف عن ١٥٠٠ ميل في وسط افريقية

والى ذلك الوقت لم تكن تُعرَف تلك البلدان سوى بسعرة دنهام وكلابرتون واودناي من سنة ١٨٢٢ الى ١٨٢٤ فتتبع الرفاق المذكورون آثار سلفائهم وبعد ان وصلوا الى تونس وطرابلس تقدموا الى ما قدام وبلغوا مدينة مُرْزوق عاصمة الفزّان

ثم انثنوا عن الخط المستقيم وداروا نحو غات الى الغرب وهم مقادون بقوم من التوارج وبعد ان سُرقوا ونُهبوا وداقوا اشرّ العــذاب واصطروا مراراً الى المناضلة والكفاح وصلوا اخيراً الى غوطة الاصاس في شهرت ١ وهناك فارق برث رفاقه وتقدم الى مدينة اغادس ثم رجع الى القافلة واحدوا في المسير في اليوم الثاني عشر من شهر كانون الاول فوصلوا الى اقليم دامرغو وتفارق الرفاق هناك وعمد المعلم برث الى مدينة كانو وكان وصولهُ اليهــا بعد العناء الجزيل وتحمل الصبر الجميل ودفع المبالغ العظمى لرؤساء اقوام تلك البلدان الطائلة

ثم هجر مدينة كانو في ٧ اذار برفقة خادمٍ واحد وكان مصاباً بداء الحمى ومع ذلك قد صمم النية على مشاهدة بحيرة شاد وبقي لهُ للوصول اليها ثلاثمائة وخمسون ميلاً فتقدم نحو الجهة الشرقية ووصل الى مدينة روريكولو في اقليم بُرنو وهذه المدينة محط لمركز لواسط افريقية وهناك بلغهُ خبر وفاة رفيقه ريشردسون من شدة الضنك والتعب وقلة القوت ولمشــاق اخرى حلت في اسباب متعودي الرخاء في معيشتهِ ثم رحل الى كوكا عاصمة بُرنو عند سواحل البحيرة وبعد ثلاثة اسابيع بلغ مدينة نعربو في ١٤ نيســان بعد هجره طرابلس الغرب باثني عشر شهراً ونصف

وفي ٢٩ ادار ســنة ١٨٥١ سافر ورفيقهُ اوفروَك الى مملكة ادامونة في جنوبي البحيرة ووصل الى مدينة يولا ثم عاد الكرة في شهر آب على مدينــة كوكو وهناك طاف حول مندارا وبرغيمي وكانم واقصى جهــة من المشرق وهناك مدينة مرنا الواقعة في ٢١ ُ١٧ ْ من الطول الغربي

وفي ٢٥ من شهر تشرين الثاني سنة ١٨٥٢ بعد ان قضى رفيقهُ نحبــهُ تقدم الى الجهة الغربية وعرّج على مدينة سوكوتو وجاز نهر النيجر ووصل اخيراً الى مدينة تنبكتو وهناك التقى الشيخ القص عليهِ ولبث يعدهُ ويديقهُ امرّ الوبال

والتربة نحو ثمانية اشهر اما قوم الموّلات فهاجوا وماجوا لانهم لا يحتملون زماناً بقاء رحل مسيحي في تلك المدينة فافلتهُ الشيخ ورحل المعلم برث منها في ١٧ اذار سنة ١٨٥٤ واحتمى بتخوم المدينة ومكث ثلاث وثلاثين يوماً محروماً كل ضرورياته ثم رجع الى كانو ودخل كوكا ولبث فيها اربعة اشهر ومن هناك سار في الطريق التي خطها دنهام حتى عاين اخيراً مدينة طرابلس الغرب في اواخر شهر آب سنة ١٨٥٥ ثم سافر الى لندرة وحده في ٦ ايلول دون رفيق ولم يتجاوز ٤° من العرض الشمالي ولا الدرجة الدرجة ١٧° من الطول الغربي

فهذه رحلة المسافر الباسل برث الذي حاز الشرف الخطير لدى اعين العلماء واصحاب الفنون والذكاء

ولكن لم يقدر قط احد على الوصول الى عيون النيل السرية وعلى ما قرره الطبيب الالماني ورديسد ورن ان المسافرين الذين بقيهم محمد علي سنة ١٨٤٠ لم يبلغوا سوى الى غندوكورو بين ٤° و٥° في السمت الشمالي

وفي سنة ١٨٥٥ تسمى برون روليت قنصلاً لدولة سردينيا في مملكة السودان الشرقية خلفاً لمن مات قبلهُ موت الشقاء والعذاب وهو واداي فهذا القنصل الحديد سافر من الخرطوم ودعا نفسهُ باسم يعقوب وتقدم الى ما قدام وهو يتاجر بالصمغ والعاج حتى وصل الى بلاديا فوق درجة ٤° ثم عاد الكرة على خرطوم وهو مبتلي بمرض عضال بلغ بهِ الى القبر سنة ١٨٥٧

فلم يقدر احد على مجاورة الحدود المعلومة لا العلامة بية الذي تقدم الى قرب غندوكورو لانهُ رجع ومات في خرطوم وهو مضنى من التعب وخور القوى ولا السائح مياني من البندقية ولا التاجر المالطي اندريا دِبُنو الذي اهتمَّ في الوصول الى عيون النيل لكنهُ لم ينل مرامهُ

وفي سنة ١٨٥٩ بعثت الحكومة الفرنسية موسيو غيليوم ليجان الى بلاد

الخرطوم واصحبته باحد وعشرين جنديًّا فسافر في البحر الاحمر ثم نزل الى ضفة النيل ومع هذا كلهُ فلم يتمكن من مجاوزة تخوم غندوكورو واحاقت بهِ المخاطر العظيمة لداعي ثورة ثارت ما بين الزنج

وطالما قد اوقف هذا الحدّ شجاعة المسافرين والسياح وكثيرون هم الذين ارادوا الوصول الى عيون النيل برحيلهم الى جهة افريقية الشرقية فلم يتمكنوا من ذلك فمن سنة ١٧٦٨ الى سنة ١٧٧٢ رحل السائح بروس الاسكتسي من ماصوَّة وهي مينا بلاد الحبشة ووصل الى خراب اكسوم وشاهد عيون النيل حيث لا وجود لها ولم تأت إتعابهُ بثمرة

وفي سنة ١٨٤٥ سافر السائح الفرنسي مزان الى بغامايو قبالة زنجبار ووصل الى مدينة دجلامها حيث اذاقهُ سيد قومها امرّ العذاب والبلاء وفي سنة ١٨٥٩ في شهر آب سافر الشاب روشر الهمبرجي صحبة قافلة تجار اعراب وبلغ بحيرة نياصًا وهناك ذُبح في رقادهِ

اخيرًا سنة ١٨٥٧ بعثت الجمعية الملوكية الجغرافية في لندرة الضابطين برتون واسبيك المشهورين ليستقرئوا بحيرات افريقية العظمية ففي ١٧ حزيران قاموا من مدينة زنجبار وتوجهوا الى الناحية الغربية فبعد ان قضيا اربعة اشهر في معاوز الضيق والعذاب الشديد حيث نُهبت حوائجهما وقتلت ناقلوها وصلا الى مدينة كازه وهي مركز اجتماع التجار والقوافل وهذه المدينة كائنة في اواسط بلاد القمر وهناك اكتنزا لهما ذخائر الفوائد بالاستفحاص عن اخلاق اقوام تلك البلاد وطبائعهم وحكومتهم وديانتهم وخرافاتهم وخزعبلاتهم ثم تقدموا الى اول البحيرات العظمية وهي تنغانيكا الواقعة بين ٣° و٨° من العرض الجنوبي وكان وصولهما اليها في ١٤ شباط سنة ١٨٥٨ وهناك شاهدا اقوامًا مختلفة واكثرهم برابرة ومتوحشون

وفي ٢٦ ايار رجعا الى كاره وهناك مرض برتون واعتراه سقم شديد فمكث ملياً به نضع شهور ففي تلك المدة جار اسبيك ثلاثمائة ميل انكليزي في الجهة الشمالية ووصل الى بحيرة اوكراوي لكنهُ لم يعاين سوى طرفها الواقع في درجة ٣٠° ٢° عرضاً

ثم رجع الى كازه في ٢٥ آب وسافر مع رفيقهِ الى زنجبار فوصلا اليها في شهر اذار من السنة الثانية ومن هناك قصدا لندرة وخصصت لهما الجمعية الملوكية الجغرافية معاشاً سنوياً

وقد لاحظ العلامة فرغوس ان المسافرين المذكورين لم يجوزوا درجة ٢° من العرض الشمالي ولا درجة ٢٩° من الطول الشرقي

ولذا اراد ان يجمع بين رحلة برتون واسبيك ورحلة برث ومن ثم يقطع عرضاً نافي عن ١٢ درجة

# الفصل الرابع

## في اهمية الرحلة الافريقية

وكان العلامة فرغوسن يهتم في تجهيز لوازم السفر العلوي ويهيء بناء القبة الهوائية بحسب اصلاحات اخترعها ويكتم سرها وكان منذ زمان اخذ بدرس اللغة العربية ولغات الزنج المختلفة ونجح فيه ليس بيسير لشدة قوته الداركة واعتمادهِ على كل ما ابتغى قنيتهُ

واما رفيقهُ ديك فلم يكن يفارقهُ بتةً كأنهُ على خشيةٍ ان العلامة يُفلت ذات يوم خفيةً عنهُ وكان ينتهز كل فرصةٍ مناسبة ليرجعهُ عن مقصدهِ . الّا ان كلامهُ لا تأثير لهُ في عقل صاحبهِ الغير المبالي بهِ

وعليهِ كان يتنهد سرًّا ويقول في نفسهِ : لا بدّ لك ياديك لا بدّ لك من تلك الرحلة المشئومة وبعدها يظل بذاتهِ صاعدًا الى الجوّ وطائرًا في الفضاء لُعبةً للارياح ويضيق صدره ويخفق منهُ القلب ويتنضح عرقًا بل انهُ كان يشعر وقت الرقاد باهتزاز وارتجاج مريعين يقلقان نومه ويرعبان جنانه ويُعدمانه راحة الليل ولم تمضِ ليلة الّا احسّ بسقطةٍ هائلة من اعالي طبقات السماء وفي الحقيقة سقط من فراشهِ اقلهُ مرتين وهو في هذا الضغط والاضطراب

وقد اعتنى في اول الامر ان يظهر للعلّامة فرغوسن الورم الذي طرأ عليهِ في رأسهِ من جرى سقوطهِ هذا وقال لهُ اذا كان من علوّ اشبار بُليت بهذه النائبة فترى ما كان قد حلَّ بي لو سقطتُ من طبقات العلاء

اما فرغوسن فلم يتحرَّك فؤادهُ لهذا الاضطراب بل اجاب وقال : انا لا نسقط . فقال ديك : واذا سقطنا فما الحيلة

قال ورغوسن: كلاّ فانا لا نسقط وكان جوابًا قاطعًا باتًّا اذ لم يتفوه ديك بعد ذلك بكلمةٍ البتة

لمَّا اعظم باعث لاغتياظ ديك فكان ان العلاّمة لا يعتبر شخصهُ بذاتهِ بل كأنهُ من متعلقاتهِ ومن بعض املاكهِ وعلى الخصوص فانهُ كان ينفعل عند ما يسمع من فم ورغوسن التكلم في الجمع اذ كان يقول دائمًا سنسافر (نحن) سنتقدَّم (نحن) وقال دائمًا قبتنا ورحلتنا ولم يقل قط قبتي او رحلتي

فكان الامر مما يزيد ديك جزعًا واضطرابًا ولو انهُ عازمٌ على ممانعة الرحلة او اقلهُ على عدم اشتراكه فيها ومع ذلك لم يرد قط ان يغيظ صاحبهُ وخله العزيز وعليهِ كان قد ارسل سرًّا الى مدينة ادمبرج يطلب بعض حاجات لهُ وملابس واحسن انواع سلاحهِ للصيد

في ذات يوم اخذ يفاوض صاحبهُ على هذه الرحلة قصدًا في منعهِ عن معاناتها فبدأ يعارض العلامة على مقاصد رحلتهِ فقال أهل من امر ضروري لاكتشاف عيون النيل وهل يستفيد بذلك الجنس البشري وهل تتمدن اقوام تلك البلاد وتحظى بسعادة اوفر مما هي عليهِ الان وما نفع الاسراع الى ذلك اذ لا بدَّ ان يأتي يوم يجوز فيهِ المسافرون بافريقية كلها دون صعوبة وهلمَّ جرًّا فاجابهُ حينئذٍ العلامة فرغوسن وقال أتريد يا ديك بئس الاديك ان اترك هذا الفخر لغيري واتوقف عند موانع لا اهمية لها البتة فاعترض ديك كمألوف عادتهِ وقال ولكن . . .

قال ساموئيل: ولكن ألا تعلم ان رحلتي تساعد نجاح الرحلات الحالية التي يعانيها المسافرون أيخفى عليك ان مسافرين حديثين متقدمون الان نحو مركز افريقية وان البحيرة المعروفة باسم اوكاراوي الواقعة في الدرجة °٣٣ طولًا ظنها قوم انها تمتد من الدرجة ′٣٠°٢ من العرض الجنوبي الى الدرجة °٢ من

العرض الشمالي وعسى ان منها تنحص عيون النيل فقد نظرت جمعيــة لندرة الملوكيــة الى هذا الامر بعين الاهمية وبعثت القبطان إسبيك برفقة غرنت احد قواد الجنود الهندية واصحبوا معهما جنوداً وجهزوا رحلتهما تجهيزاً بليغاً وفي نيتهم ان يبلغوا البحيرة المذكــورة ثم يرجعون الى غدوكورو على شاطئ النيل وقد امدّتهم الجمعية بخمسة الاف ليرة فرحلوا من زنجبار في اواخر شهر تشرين الاول سنة ١٨٦٠

وفي تلك المدة ورد امر من الحكومة الانكليزية الى جون بتريك في الخرطوم ان ينزل في سفينــةٍ في الخرطوم ويحملها زاداً وحوائج كثيرة ويذهب لينتظر القافلة في غدوكورو وأرسل لهُ لنفقة ذلك سبعمائة ليرة انكليزية

قال ديك : نِعمَ ما فعلوا

قال ساموئيل : أرأيت الان ان الوقت قد ضاق معنا ومست الحاجة لسرعة الرحيل الى تلك البلدان وما عدا ما ذكــرتهُ لك من عهد البعض لاكتشاف منبع النيل فقد رحل اناس كثيرون الى اواسط افريقية ليكتشفوا اراضيها وبقاعها وبطاحها

قال ديك : أفاهم مُشاة

اجاب ساموئيل : اي نعم مُشـــاة ولايخفى عليك ايضاً ان السيد دي هكلن وكــيل قنصل النمسا في الخرطوم رتّب قافلة ذات اهمية للرحيل الى اواسط افريقية وحلَّ قصدها ان تطلب المسافر وُجل الذي أُرسل الى السودان سنة ١٨٥٣ ليشارك العلاَّمة برث باكتشافاته وفي سنة ١٨٥٦ رحل من برنو وقصد اكــتشاف ذلك الاقليم المجهول الواقع بين بحيرة شاد ومملكة درفور فمذ ذلك الوقت لم يسمع عنهُ خبر ولم يُرَ لهُ اثر فارسل بعض الناس كــتباً الى الاسكندرية يقولون فيهـــا انهُ قُتل بامر ملك الوادي في بلاد السودان

ولكن كتب العلامة هرمان كتابًا الى ابي وُجِل يقول له بهِ ان ابنهُ لم يمت بل على ما قررهُ بدويٌّ من بُربو ان رحل أُلقي القبض عليهِ في دارة وبقي هناك اسيرًا وقد تألفت جمعية لطلبهِ وسافر وفدها في شهر حزيران الماضي

فقال ديك : وحيث جميع الامور سائرة على قدم النجاح والاتقان فما لنا من المشغلة في تلك الاقاليم والبلدان

فلم يجب ساموئيل على هذا الكلام بل تحوّل عنهُ وانصرف وهو يهزُّ باكتافهِ

# الفصل الخامس

## في خادم العلامة ساموئيل وربة المسافرين

وكان للعلامة ساموئيل خادمٌ اسمهُ يوسف وهو شاب اديب ذو اوصافٍ حسنى اذا امرهُ مولاه بقضاء حاجةٍ لباهُ بالنشاط والامانة وقد نهج في صدقهِ نحو سيده طريقةً غير مطروقة واتاهُ على رغباتهِ بهمةٍ غير همة وخليقةٍ غير خليقة اشبه بالعبراني الامين الذي ارسلهُ يشوع بن نون ليجتس ارض الكنعانيين وكان العلامة يترك لهُ التدبير في مهامهِ وخدمهِ لانهُ صاحب ذوقٍ لطيف ولا يتهامل في امرٍ من الامور

ومن العجب العجاب ان يوسف لم يكن يراجعهُ في احكامهِ اصلاً بل اذا تفوه ساموئيل بكلمةٍ رعاها بدقـــة وتحري وكل ما فـــكر بهِ ساموئيل كان لدى يوسف مصيباً وكل ما قالهُ كان ارباً وكل ما امرهُ بهِ كان مرعي الاجراء وكل ما نحا نحواً كان مستطاعاً وكل ما تمم امراً كان لديه من العجـــائب والغرائب فلو تقطع يوسف ارباً لمـــا رضي قط في حياتهِ ان يخالف سيدهُ في امر البتـــة

ولهذا لما خطر ببال فرغوسن الرحيل على اجنحة المركبة الهوائيـــة وعلم بهِ يوسف فطابق رأيهُ بذلك دون ممانعة وتحقق انهُ يســـافر مع سيدهِ لانه كان خفيف الحركات والاطوار ويساعد ساموئيل في امور كثيرة ذات اهمية جزيلة وقد طال ما اتبعـــهُ في اسفارهِ العديدة وكان من آرآئه الغريبـــة استصواب الامور جميعهـــا واستهوان المصاعب والمتـــاعب ولم يعلم قط في زمانه جنس التشكي والتذمر ومن صفاته ايضاً القوة في جســـمهِ والتبصر في الامور وعدم

افتخاره بجميع محاسنه وشمائله . فلما كان هذا الخادم منقاداً لسيده وقد طاقه على رائهِ في رحلته فلا عجب فيما جرى من الجدال والمناقشة بينهُ وبين ديك لان احدهما كان واقعاً في اليقين الاعمى والآخر في الشك والارتيــاب والعلامة فرغوس كان بين الشك واليقين غير انهُ لم يعبأ لا بهذا ولا بذاك

ففي ذات يوم قال الخــادم لديك يا سيدي وكيف احوالك الّا ترى انا عن قريب نرتقي الى طبقات العلاء لنبلغ القمر

قال ديك : أتعني عن المصر الملقب بجبال القمر فانهُ اقرب من القمر ومع ذلك لا يخلو بلوغهُ من المصاعب والاخطار

قال الخادم : وهل مع العلامة ساموئيل تقوم المصاعب وهلاَّ تعلم انها تتبدد امامهُ كغيم جهام

قال ديك : اقول قولًا لا يخشى عليهِ من نكير ان معاناة مولاك لهذه الرحلة ضربٌ من الجنون

قال الخادم : كيف ولم تر مركبة سيدي وقبتهُ في معمل الخواجات متشال الواقعة في ضاحية هذه المدينة

قال ديك : معاذ الله ان انطلق الى هناك لأشاهد مثل هذا المشهد

قال الخادم : ولعمري يفوتك منظر جميل جدًّا لأنهُ ما من شيء اجمل من تلك القبة الحريرية او احلى من ذلك القارب المعلق بها ليحملــا براحة تامَّـــة

قال ديك : اذاً من نيتك الثابتة ان ترافق مولاك في رحلتهِ

قال الخادم : وهل اتركهُ وحدهُ طائرًا في طبقــات العلاء وان لم اتبع مولاي ساموئيل فمن يأتي بيدو اذا احاق بهِ الويل ومن يمدّ لهُ ساعدهُ ليجوز مهواةً ومن يطراليه ويمقهُ بعين الملاطفــة والمواساة اذا اصابهُ المرض واعتراهُ

السقم ولعمري ما دمت حيّاً فلا ازال محيطاً بمولاي لادارةِ مداراة الانسان للعين

قال ديك : يا لك من شهمٍ فريد عصرك ويوسف وحيد مصرك

قال الخادم : أَليس مرادك مرافقتنا في هذه الرحلة

قال ديك : لا شكّ في ذلك قلت لا شك في ان ارافقكما في رحلتكما الى زنجبار وابذل وسعي في صد ساموئيل عن ارتكاب هذه الجريرة

قال الخادم : لعمري انك لن تصده البتةَ عن قصده لان مولاي ليس بانسان محشو بمخاخة تطعم الخزعبلات بل اذا قصد امراً تروّاه من جميع انحائه وقد فعله لامحالة والمحتال بنفسه مع حيلهٍ لا يوقفهُ عن اجرائهِ

قال ديك : ان شاء الله عن قريب يخيب املك

قال الخادم : وعلى كلٍ لا يخيب امل حضرتك لانهُ يكثر الصيــد في بلاد افريقية وانت من الصيادين الشهيرين فلا بد من ان تجد هنالك ما يسرك ويطربك

قال ديك : ان ما يسرّني ويطربني هو ان يرجع العلامــة عن غيهِ ويرعوي عن ضلالهِ

قال الخادم : ولكن لا يخفى عليك ان اليوم يوم الزنة

قال ديك : وما الزنة

قال الخادم : لا بدّ ان مولاي يزن ثقلنا ليرى ما يعادلهُ من الارطال

قال ديك : لا حول ولا قوة الّا بالله العظيم

قال الخادم : ولا تخــاف من انهُ يطلب منك قلة تناول الطعام لترق وتخف اذا وجدك ثقيلاً

قال ديك بعيد ان يزنني

قال الخادم : ولكن البابن ان دا الامر صروري لمسير مركبته

قال ديك : وما لي ومركبته عسى ان يعتريهـا بسببي داء المفاصل او الفالج

قال الخادم : وادا اصابها هدا الداء فلا يمكنا الارتقاء

قال ديك هذه رغبتي وطبق منيتي

قال الخادم . وانت تقول ذلك لان مولاي ليس هنا ولكن اذا اتاك في هده الساعة وقال لك من بعد اداء الاكرام تفضل للميزان فاجيب عنك انك حاضر للدهاب في الساعة والدقيقة

قال ديك : حاشى فاني لا ارضى بالميزان اصلًا

وفيما هما خائضان بحو هده المناقشـة اد دخل العلامة ونظر الى ديك فكان هذا معبساً وجهه فقال لهُ تفضل ياديكًا انت ويوسف لان مرادي ارى كم تعـادلان اثنـاكما من الارطال فاراد ديك الاستدراك

فقـال لهُ ساموئيل : انتِ والدبيطة على رأسك ولا تخف

فاتبعه ديك ولم ينطق بكلمة وسار ثلاثتهم الى معمل الخواجات متشال حيث كان الميزان المعروف بالميزان الروماني منتصباً وفي الحقيقـة كان مرادهُ وزن رفقائه ليعرف ميزانية مركبته فصعد ديك على لوح الميزان فسمعه العلامة يقول بصوت منخفض لا بأس بذلك فان الميزان لايقدم ولا يؤخر في المسألة . ثم قال العلامة بصوتٍ عالٍ : وزن ديك خمس وعشرون رطلًا وسطر ذلك في دفتره

فسأل ديك : أليس ثقلي بزائدٍ

فاجابهُ الخادم وقال : كلاّ وهب انك ثقيل فانا خفيف وهكذا اعوض

عن ثقلك

ثم صعد يوسف بخفةٍ ووقف منتظرًا الحكم واذا بصوت العلامة يقول: عشرين رطلًا

ثم طلع بنفسه وقال: الان دوري وسطر لحسابه أثنا وعشرين رطلًا

قال الخادم: واذا لزم الامر لرحلتك يا مولاي فاني لا اتناول طعامًا لانقص من ثقلي ثلاثة او اربعة ارطال

قال العلامة متبسمًا: لا فائدة في قلة اكلك يا شابًا امينًا وعليهِ خذ فهذه حصتك ( واعطاهُ ريالًا ) لتأكل بها ما شئت وتشرب ايضًا

# الفصل السادس

## في تفاصيل المركبة الهوائية من القبة والقارب والالة السرية وتجهيز حاجات الرحيل الضرورية

فلا عرو في ان المركبة الهوائيــة قد اشغلت بال العلامة ساموئيل ليلاً ونهاراً وما زال عاكفاً على تجهيزها وترتيبها باتقان لئلا يطرأ عليها في العلاء حادث من طوارق الحدثان فعزم في اول وهلةٍ على ان يقبب القبــة الحريرية بغاز الإدروجين احد عنصرَي المـــاء وهو اخف من الهواء باربع عشرة مرة ونصف وحصول هذا الغاز سهل جدًا وهو ما اجدى المركبات الهوائية نفعــاً جزيلاً في ارتقائها الى الطبقات العلوية

فعلى ما حسبهُ ساموئيل بتدقيق ظنَّ ان لوازم رحلتهِ التي ينبغي عليهِ احدها في المركبة تتطلب ثقل نحو ٦٦٦ رطلاً فاخذ يبحث كيف يجهز القبة الهوائية لتتمكن من حمل هذا الثقل وما يقتضي ان يكون وسعها

اما ثقل ٦٦٦ رطلاً فتوازي وزن ٤٤٨٤٨ قدم هواء مكعب او ١٦٦١ متراً مكعباً فاذا اوسع القبة الهوائية ١٦٦١ متراً مكعباً وملأها غاز الإدروجين عوضاً عن الهواء . وغاز الإدروجين اخف من الهواء باربع عشرة مرة ونصف فيبقى حمل في الميزانية وقدره ٦٢٠ رطلاً اذ ان غاز الادروجين لا يزن سوى ٤٦ رطلاً وهذا الفرق الكاين بين ثقل الغـــاز الداخل في القبة وثقل الهواء المحيط بها هو الذي يخوّل القبة الهوائية قوة الصعود الى الطبقات العلوية

ومع ذلك اذا أُدخل القبة ١٦٦١ متر غاز مكعب امتلأت بتمامها وهذا لا يوافق بل يأتي بالضرر حيث ان القبة الهوائية بارتقائها الى الجوّ تصادف في

العلاء هواء اقل ثقلًا من الهواء الكاين على سطح الارض فياخذ الغاز في الاتساع والامتداد فيشق القبة في العموم لا يملأ اصحاب الفنون القبب الهوائية غازًا سوى بنسبة الثلثين

اما العلامة ساموئيل فرغوسن فعزم على ان لا يملأ قبته الّا بنسبة النصف وذلك لقصدٍ خفي كان كامنًا في ضميرهِ واذ كان في عزمهِ ان يأخذ معهُ ١٦٦١ مترًا مكعبًا من الإدروجين قد اوسع القبة اتساعًا مضاعفًا

ثم رتب القبة على الهيئة المستطيلة المفضلة على غيرها وبلغ قطرها الافقي ٧٥ قدمًا وقطرها العمودي ٥٠ قدمًا (١) فكان وسع هذه الكرة ٩٠ الف قدم مكعب

وقد فكر العلامة فرغوسن في صنع قبتين هوائيتين مختلفتي الكبر والاتساع وجعل الواحدة داخل الاخرى فالصغيرة بلغ قطرها الافقي ٤٥ قدمًا وقطرها العمودي ٦٨ قدمًا ووسعها ٦٧ الف قدم مكعب وقصد ان يجعل لولبًا يفتح من قبةٍ الى قبة لتتصل وقت الحاجة بعضها ببعض

ولهذه الوسيلة فوائد جمة منها اذا اراد اخراج الغاز ليحط على الارض فيخرج الغاز الذي تتضمنهُ القبة الكبرى حتى واذا أُفرغ بكمالهِ فتبقى القبة الاخرى على حالتها ويمكن اذا مست الحاجة ان يرمي عنهُ هذه القبة الكبيرة المثقلة عليهِ ويمكث متمسكًا بقوة القبة الثانية ومنها اذا حدث عارض او انحرقت القبة الكبرى فلا يمس القبة الصغيرة ضرر البتة

اما القبتان الهوائيتان فصُنعا من القماش الحريري المصلب ثم دُهنا بمادةٍ صمغية يؤتى بها الهند وتُعرَف عند الافرنج باسم غُتّابَرْكا وهذه المادة تمنع الموانع

(١) لا يتعجبنَّ القارئ من هذا الكبر الفاحش فان العلامة منغلفيه صنع سنة ١٧٨٤ قبةً بلغ وسعها ٢٠٠٠٠ متر مكعب وكان من طاقتها ان تحمل ٢٠ الف كيلوغرام

من ان تتخلل الاقمشة ولا يمسها انواع الحوامض ولا اجناس الغاز وجعل القماش في الاوق الاعلى على طاقين حيث هناك القوة الشديدة

وصنع الحبال لحمل القارب من القنّب الشديد الصلابة والمتانــة وقد بذل وسعهُ في اتقان اللولبين اتقاناً محكماً كما يعتني اهل السمن في احكام دقة المركب

اما القــارب العتيد ان يحمل المسافرين فساهُ من الخيزران على هيئةٍ مستديرة وبلغ قطرهُ خمسة عشر اقدام ثم مكنهُ بلطائف حديدية حولهُ فلم يبلغ ثقلهُ مع ثقل الحبال سوى ٤٦ رطلًا

وصنع العلامة ايضاً اربعة صناديق من الصفائح الحديدية وكانت متصلة بعضها ببعضٍ بمجارٍ ذات لوالب وضم الى هذه الصنــاديق انبوبة يبلغ قطرها باهمين وفي اخرها فرعان غير متساويين وطول الفرع الاكبر خمس وعشرين قدماً وطول الاخر خمسة عشر قدماً فقط ثم جعل هذه الصــناديق في القارب بنوع مرتب حتى لا تشغل مكاناً واسعاً وحيث ان الانبوبة لا تترتب الّا وقت صعوده الى المركبة جعلها في مكان منفرد مع كرةٍ كهربائية وجميع هذه الصناديق لم يبلغ ثقلها مع ثقل صندوق مملوء ماء سوى ١١٦ رطلًا

اما الالات التي اراد استصحابها معهُ فهي ميزانان لمعدل الهواء (بارومتر) وميزانا الحر والبرد ( ترمومتر ) وابرة لمعرفة الجهة الشمالية ( بوصلة ) ومقيــاسان للوقت ( كرونومتر ) وأفق صنعي وآلة لقيس الاشياء البعيدة

وعدا هذا جميعهُ فانهُ اخذ للقارب ثلاثة مراسٍ وسلماً حريريًا متيناً طولهُ نحو خمسين قدماً

واما الزاد للاكل والشرب فــكان شاياً وقهوة وكعكاً ولحماً مملحــاً وقليلًا من العرق وماء عذباً ثقل مائة ليــتر ومن الواضح البين ان هذا الزاد

يجب ان ينقص شيئاً فشيئاً وبذلك تنقص ميزانية المركبة الهوائية لان المركبة اذا نقصها ادنى ثقل عما رُكبت عليه يأتيها بتأثير ولم يهمل العلامة ان يأخذ معهُ حية ليغطي بها جهة القارب وحماً لتغطية الاجسام وقت الرقاد وبواريد الصياد ديك مع كمية وافرة من الرصاص والبارود

فهاك خلاصة تفصيل الاحمال العتيدة ان تجعل في المركبة الهوائية

عدد ارطال

| | | |
|---|---|---|
| ٢٢ | ثقل | العلامة ساموئيل |
| ٢٥ | = | ديك كادي |
| ٢٠ | = | يوسف الخادم |
| ١٠٨ | = | القبة الهوائية الكبرى |
| ٨٥ | = | القبة الهوائية الصغرى |
| ٤٧ | = | القارب والحبال |
| ٣١ | = | المراسي والآلات والبواريد |
| ٣٧ | = | الخيمة وغير ذلك |
| ٦٤ | = | المأكل والمشرب |
| ٦٦ | = | الماء |
| ١١٦ | = | الصناديق الاربعة |
| ٤٦ | = | الإدروجن |
| ٣٦ | = | من رمل يُستعمل صابورةً |
| ٧٠٣ | | الجملة |

## الفصل السابع

### في ركوب السفينة وإيضاح القوة التي ترقي القبة الهوائية وتنزلها حسب المراد

ولما كان نهار ١٦ شباط وافت السفينة الانكليزية التي اتينا بذكرها آنفاً وارست بإزاء غراوريش وهي متأهبة لقبول العلامة فرغرسن ومركبته الهوائية فنقلت اليها المركبة في ١٨ شباط وذلك بانتظار ساموئيل لئلا يمس شيئاً ضرر البتة ثم نقل اليها ايضاً عشرة براميل مملوّة روح الكبريت وعشرة براميل مملوّة قطعاً حديدية عتيقة وذلك لاجل احصال غاز الإدروجن ولم يهمل ان يصحب مع هذا كله البراميل اللازمة لنشر الغاز وعددها ثلاثون

ثم ركب السفينة رفيقهُ ديك وخادمهُ يوسف اما ديك فمع ركوبه قسم الايامين المغرمة انه لا يريد السفر مع العلامة فرغوسن رأيتهُ يوم ركوب السفينة نزل اليها وهو مصحوباً بحراسة كاملة من سلاح الصيد

وفي اليوم العشرين صنعت الجمعية الجغرافية الملوكية مأدبة فاخرة للمسافرين وحضر هذه المأدبة رئيس السفينة ورجاله وقد دارت بينهم كأس الندام فشربوا المدامة بسر الاحساء متمنين لهم ان يعيشوا السنين العديدة والايام المديدة واما ديك فاتتهُ التهاني لرحلته العلوية من جميع الحاضرين في ذلك المحفل فانهم بعد ان شربوا بسر فرغوسن ومجد انكلترة شربوا بسرّ رفيقهِ الشجاع ديك الصياد

وفيما هم جالسون على مائدة الطعام اذ وفد رسول من الملكة ومعهم تهنئتها للمسافرين وتمنيها لنجاح الرحلة الجوية ففي الحال شرب جميعهم تحية

حلالتها المحمة و بعد قليل انصرف كلٌ الى مكانه ليستريحوا تلك الليلة

ولما اصبح الصباح وكان اليوم الواحد والعشرين قلعت السفينة من مرسيها وسارت بقدم السرعة قاصدة زنجبـــار في البحر الاحمر وفي ١٠ نيسان وبعد ان ارست في اماكن جمة وصلت اليها بالامن والسلام

وفي غصون سفرهم كانت المناقشة قائمة بين الركاب على الرحلة الجوية وكان يوسف الخادم فرحاً منتهجاً ويحدث كثيراً رفاقه نواتي السفينة فقال لهم مرةً انه بعد رحلتهم سوف يحدو كثير من الناس حذوهم اذ انه كلما دق النـــاس مثل هذه الامور زاد ولعهم بها وعاشوقهم لماماتهـــا ومراحتها فكما انهم الان مسافرون في المركبـــة بخط محفوف كذلك يسيرون فيما بعد بخطٍ مستقيم الى ما امامهم

فقال احد السامعين الا ترتقون الى القمر

قال يوسف حاشى وكلا لست احب القمر لانهُ معروف من الناس وخالٍ ايضاً من الماء فيقضي بنا العطش الى الهلاك

فقال احد محبي العرق واذا وجدت هناك عرقا الا تستكفي به

قال الخادم كلا لا نريد شيئاً من القمر بل مرادنا ان نرتقي الى تلك النجوم السيارات المتلألئة في القبة السماوية في اول وهلة نرحل

فساله واحد وقال هل رحل هو اللادس الخاتم

قال يوسف نعم اللادس خاتم الرواح ولكن الى الان لم يُعرف ماذا اصاب امراته المسكينة

فقفر احد البحرية الناظر اليه بطرة الدهشة وقال ايمكنكم اذاً الارتقاء الى هذا العلاء لعمري ان مولاك فاق المحتال قدرةً وحيلة

قال الخادم والمحتال بنفسه لا يستطيع على صنيع مثل هذه الامور

فقال بحريٌ وهو ينتظر فرصــةً للتكلم وبعد ان تزوّدوا نُرحل فالى اين تتوجهوا بالسلامة

قال نُرُّ بالمشتري وبه در المشتري فانها بلاد لا يطول بها النهار سوى تسع ساعات ونصف وهذا مما يوافق الكسالى

وهكذا كان يحدث بعضهم بعضاً بالمزاح والهرج وقد اخذ يوسف يتكلم عن ستون والمريخ والزهرة احاديث مضحكة ومع ذلك مطرنة لحميتهم لرشاقة الخادم يوسف وسكب عاداته المزاحية

وفي اثنا مناقشته مع الجوية كانت الكالمة سائرة على قدم النجــاح بين الصاط وورعوس بخصوص رحلته ومركبته ومسيرها فسألوهُ مرةً ماذا يرتأي عن ادارة المركبات الى حيث يشا الراكب

فقال ساموبيل اني لا اظن ان الناس يتوصلون الى ادارة المركبات الى حيث شاؤُوا وقد فحصت جميع الهيــات التي ظهرت الى الان فلم ار واحدة منها تصلح لذلك

فاجابهُ واحد وقال ألا يوجد نسبة عظيمة بين ادارة القباب الطيــارة والسفن البحرية

قال ورعوس كلا يا سيدي فان النسبة قليلة جدًا وربما كلا شي. لان الهواء اخف من الماء فا لا يجد فالسفيــة لا تغطس كلها في الماء بل بعضها واما القبة الهوائية فتغوص في الجو غوصاً تاماً وتبقى غير متحركة بالنسبــة للسيال المحيط بها

قال واحد وهل تظن اذًا انهُ غير ممكن اختراع شيء جديد بهذا الخصوص بواسطة العلوم الطبيعية

قال كلا ثم كلا غير ان اصحــاب العلوم يبحثون عن شيء آخر وهو

ان يستقرّ راكب المركبة الهوائية ثابتاً في الطبقات الهوائية في الجوّ الموافقة لغرضهِ لان الهواء في بعض الاماكن العالية يكون متساوياً وثابتاً في اتجاههِ ولا تغيرهُ الاودية والجبال المتكاثرة على وجه اكرة الارضية ولايخفى عليكم ان تغيير الهواء وعدم مساواة مهبهِ هو مسبب عنها في الغالب فاذا ما علا المرء هذه الطبقات وتوصل الى الاعالي فحينئذٍ يتوقف عند الطبقة الموافقة لغرضهِ كما اشرت

قال رئيس السفينة : والحالة هذه كي يتوصل اليها الراكب لا يقتضيه سوى الصعود والنزول وهنا الصعوبة كلها

قال فرغوسن : ولماذا

قال السردار : مآل كلامي ان هذه الصعوبة او المانع لا يكون الّا للاسفار الطويلة وليس للرحلات القصيرة المقصود بها التنزه وانشراح الخاطر

قال فرغوسن : أكرم عليّ بايرادك سبب ذلك

قال السردار : لان اذا اراد المسافر في هذه القباب الطيارة الصعود الى العلا لزمهُ القاء بعض ما يكون حاملهُ من الثقل واذا اراد النزول لزمهُ ان يفقد شيئاً من الغاز وعلى هذا المنوال لا تمضي مدة الّا ويفرغ زادهُ ان كان من الغاز وان كان من الثقل

قال فرغوسن : هنا معظم المسألة فان المباحثة ليست واقعة في هذه الايام عن ادارة المركبات حيث يُراد ولكن حلّ البحث قائم في الصعود الى العلاء والنزول الى الارض من دون ان ينقص غاز الإدروجن الذي تحويهِ القبة اي من دون ان يخسر شيئاً من قوة القبة الهوائية

فقالوا : ولكن ألم يكتشف احدٌ بعدُ هذه الواسطة

قال سامونيل : بلى

قالوا : ومنو الذي اكتشفها

قال هذا الداعي: ولولا اني اكتشفتها لما كنت حملت نفسي على المرور بافريقية لاني لا اسير مدة اربعة وعشرين ساعة الّا ويفرغ الغاز من قبتي

قالوا: ألم تتكلم عن ذلك في بلاد انكلترة

قال: كلّا بل ما زلت لسري كاتماً وقد امتحنت الامر بنفسي وتأكدت الفلاح فما الحاجة للتكلم عنهُ

قالوا: أتكرم علينا بكشفك لنا هذا السرّ

قال: سمعاً وطاعة ثم بدا في الكلام واخذ الحاضرون يصيخون سمعاً لخطابهِ

## الفصل الثامن

### في المعنى المتقدم ذكرهُ

قال ساموئيل : قد طالما اراد اصحاب الفنون ايجاد واسطة للارتقاء والنزول في المركبة الهوائية دون ان يخسر الراكب غازًا او يرمي من الثقل الذي ثقلهُ معهُ فاعياهم تفتيشهم وذهب سعيهم هدرًا

اما الواسطة التي اكتشفتها انا فهي متوقفة على ان ابسط الغاز الموجود ضمن القبة واضغطهُ حسبما اريد الطلوع او النزول وذلك بواسطة الحرارة لم البرودة وهاكم كيفية العمل

لا بد لكم بصرتم مع المركبة بخمسة صناديق لا تعرفون ماذا يفيد استعمالها فان الصندوق الاول يحوي مائة ليتر ماء واليها أضيف بعض نقط روح الكبريت لتزيد كهربائيتها وكما لا تجهلون فان الماء مركب من عنصرين عنصر الإدروجين وعنصر الاكسيجين فبواسطة الالة الكهربائية التي استعملها وهي معروفة باسم صفائح نتزن ينسرب الاكسيجين الى صندوق ثانٍ ويدخل الإدروجين في صندوق ثالث وهذان الصندوقان يتصلان بصندوق رابع يدعى صندوق المزج ووصيلتهما لولبان مختلفا الضخامة وفي هذا الصندوق يمتزج الغازان الناشئان عن انحلال الماء ووسع هذا الصندوق ٤١ قدمًا مكعبًا وفي اعلاه قصبة من النحاس الابيض لها ايضًا لوالب

وليكن معلومًا عندكم ايها السادة ان آلتي ما هي الَّا شكل قصبة يُحصر فيها غاز الإدروجين والاكسيجين وتضرم نارًا مستعرة اللهيب اشد تأججًا من نيران اكوار الحدادين واذ تقرَّر ذلك نأتي بذكر الجزء الثاني من الآلة

فمن اسفل القبة الهوائية المغلقة غلقاً محكماً يخرج انبوبتان مفترقتان الواحدة عن الاخرى بمسافة جزئية فالاولى تبتدئ من وسط طبقــات غاز الادروجن العليا والاخرى من الطبقات السفلى وكلاهما ينزلان الى القارب بل الى داخل صندوق من حديد ذات هيئة عمودية اسمــهُ صندوق الحرارة وهذا الصندوق مغلق بطرفيه بدوائر حديدية ايضاً

فالانبوبة البارزة من طبقــات القبة السفلى تدخل في هذا الصندوق العمودي من الدائرة التحتانية وتتلوّى داخله على هيئة البرغي وقبل ان تخرج من الصندوق تتوجه الى مخروط ذات دعائم مجوفة على شكل طاس كري ومن اعلا هذا المخروط تخرج الانبوبة الثانية وهي تتجه الى طبقات القبة العليا كما ذكرته آنفاً وهذا الطــاس الكريّ معمول من الذهب الابيض لئلا يذوب بقوة القصبة حيث انها موضوعة في عمق الصندوق الحديدي في وسط الانبوبة الملتوية على هيئة البرغي وطرف لهيبها يمسّ هذا الطاس الكريّ

فــكما ذكرته لكم ايها السادة ليس هو الاشبه المدخنة المعروفــة منكم وهي المستعملة لتدفئة المخادع ولا يخفى عليكم كيف ان هواء المخدع يمرّ بالانابيب ويسخن فيدفأ المخدع

وهــكذا يصير في آلتي فان القصبة اذا سخّنت الإدروجن الكائن في الانبوبة يسخن الطــاس الكريّ ويصعــد الإدروجن بسرعة الى الانبوبة المتوصلة الى وسط القبة الهوائية ثم يحصل الخلا من اسفل وينجذب بذلك غاز الطبقات السفلى فيسخن هذا بدوره ويصعد الى اعلا ويقوم مقامه وهــكذا يتــكون بين اللوالب والانابيب مسير غاز سريع جداً يخرج من القبة ويرجع اليه فيزيد حرارة

والحال ان الغاز يزيد حجماً ٤٨٠/١ في كل درجة من درجات الحرارة فاذا

تأجج لهيب الحرارة بثمانية عشرة درجة ينبسط الإدروجن بقيمة ١٨/٤٨٠ او ١٦٦٤ قدم مكعب فهنا يزيد قوة القبة للصعود ستة وعشرين رطلًا واذا رفعت الحرارة الى ١٨٠ درجة ينبسط الغاز بمعدل ١٨/٤٨٠ فيقوم مقام وسع ١٦٧٠ قدم مكعب وتزيد قوّة صعودها بمائتين وست وستين رطلًا

فمن هذا ترون انهُ يحدث فرق عظيم في ميزانية القبــة الهوائية مع اني لزمعت ان اقيها بمعدل النصف بنوع ان الهواء الذي يقوم مقامهُ الإدروجن يعادل قماش القبــة ومحمولها من المســافرين وما يقتضيهِ السفر من اللوازم الضرورية والحالة هذه فان القبة تساوي ميزانية الهواء اي انهــا لا تصعد في العلا ولا تنزل من تلقاء نفسها

فلكي اصعد ارفع الغاز الى درجة حرارة عاليــة بواسطة القصبة فمن زيادة الحرارة يمتد غاز الكرة الهوائية وتتقبب وترتقي الى العلاء

واما وقت النزول فاني اخفف حرارة القصبة فالارتقاء كما ترون يكون اسرع من النزول وهذا من الفوائد حيث ان الاخطار هي على الارض وليس في العلاء ومع هذا كلهِ فاني حملت كمية من الثقل حتى اذا لزم الامر القيتهُ خارجًا لارتقي بسرعة واما اللولب الكائن في اعلاء المركبة فلا امسهُ بل تبقى القبة الهوائية حافظة الغــاز الذي املأها بهِ وما احدثهُ من الحرارة والبرودة في هذا الغاز هو الذي يرفعني وينزلني

ولزيادة الايضاح اقول: ان من احتراق الإدروجن والاكسيجين في طرف القصبة يحصل بخار المــاء فوضعت في طرف الصندوق العمودي انبوبةً لهــا لولب اذا انضغطت ارتفع منها البخار

وهاكم الارقام بالتمام

ان مائة واثني عشر ليتر ماء اذا انحلَّ عنصرها احصلت ٣٣ رطلًا من

الاكسجين واربعة ارطال من الادروجين فيكون ذلك بمعدل ٧٠ مترًا مكعبًا من الاكسجين و١٤٠ مترًا مكعبًا من الادروجين ومجموع العنصرين يكون ٢١٠ امتار مكعبة

فاذا فُتح اول القصبة فتحًا تامًا يُشعل قدر متر مكعب في الساعة واللهيب يكون اشد سعيرًا من لهيب الاتوار العادية بست مرات في المعدل الاوسط اذا لم ارد ان ارتفع الى علو باسق لا اوقد الا قدر ثُلث متر مكعب في الساعة فالمائة والاثني عشر ليتر ماء التي ذكرتها تكفيني اذًا لسفر ستمائة وثلاثين ساعة او نحو ستة وعشرين يومًا

والحال ما اني لتمكن من النزول ايما شئت فاستطيع ان اتزود ماء ويستمر سعيري قدر ما اشاء

فهذا هو سري ايها السادة الكرام فانه سهل جدًا ويتكفل بالنجاح ان شاء المولى وواسطتي الوحيدة هي امتداد الغاز وتقلصهُ وهذا لا يلزمهُ محرك آلتي كالاجنحة او خلافها لي ان هي الامدحة اعبر بها الحرارة واقيم مقامها البرودة وبالعكس ثم قصبةٌ لتسخين المدحة واظن اني جمعت بذلك كل ما يلزم لنجاح رحلتي

فاني سيد قمتي ومولاها لاني اصعد متى شئت وانزل متى شئت واقف متى ما شئت وخصوصا اذا تهددتني مهاب الرياح بالمداعي الى اماكن لا توافقني

فقال السردار وستلتي منها ما يدهك في برهة ساعة الى مسافة مائتين واربعين ميلًا

قال فرغوسن فترى هكذا انهُ بهذه السرعة يجوز الانسان افريقية في مدة اثني عشرة ساعة فانهُ ينهض من فراشه صباحًا في زنجبار ويذهب لينام

في مدينة سن لويس في الجهة المقابلة

فقال صاحط وهل يمكن ان تدفع القبة الهوائية بسرعة كهذه

قال فرغوس وقد جرى ذلك في الامتحان

قال الصاحط وهل لم يمس القبة ضرر

قال فرغوس كلا وقد جرى ذلك عند تكليل نابوليون الاول سنة ١٨٠٤ فان العلامة غرنرين رفع قبة هوائية من باريز الساعة الحادية عشر مساء ( قبل نصف الليل بساعة ) وكان مكتوباً على تلك القبة باحرف ذهبية العبارة الاتية باريز في ٢٥ فريمير ( هو شهر المشيخة افرنسه مدته من ٢١ تشرين الثاني او ٢٢ حسب السنين ) من السنة الثالثة عشرة لتكليل الامبراطور نابوليون الاول

في الغد صباحاً لساعة الخامسة ( قبل الظهر بسبع ساعات ) شاهد سكان رومة تلك القبة الهوائية تحوم فوق الفاتيكان وبعد ان طافت حول الحقول وهنة سقطت في بحيرة براشيانو فانتم اذاً ايها السادة ان القبة الهوائية تعادل هذه السرعة العجيبة

فقال ديك نعم يا ايها العلامة ان القبة تواري هذه السرعة واما الانسان فلا يتمكن من ذلك

قال فرغوس ولماذا فان القبة الهوائية غير متحركة بالنسبة الى الهواء المحيط بها وليست هي التي تمشي بل الهواء نفسه ولو شعلت شمعة وسط القبة المذكورة فلم يكن يرتج الضوء قط فيها ولو فرضنا ان راكبها انسان فلم يكن يذوق ادنى اضطراب او اختلاج واما انا فليس من نيتي ان امتحن مثل هذه الامور بل ايما لقيت شجرة عالية ارسيت مركبتي عندها وبت ليلتي كلها وقد حملنا زاداً يكفينا مدة شهرين واذا طالت مسافة الرحلة اكثر من ذلك فلي

معنا صياد مشهور يضنينا بزاده اذا اشغل قليلاً

قال احد الضبـــاط وهو ينظر الى ديك: سوف تشتهر في تلك البلدان بصيدك ياسيدي

فقال آخر: وفضلاً عمـــا تشعر من اللذة وقت الصيد فان مســـاعيك ستتوجك بتاج النصر والمجد

فقال ديك: ايها الســـادة اتشكر . . . معروفكم . . . على تهنئتكم اياي ولكني لست اقبلها . . .

فقال كثيرون سوية: فاذاً لست عازم على الرحيل

قال: كلاَّ

فقال واحد: ولا تصحب العلاَّمة فرغوسن

قال: ليس فقط لا اصحبهُ بل انني اتيت معهُ لاصدهُ عن مقـــاصده.
فنظر جميع الحاضرين حينئذٍ الى العلاَّمة فرغوسن كأنهم يستفهمون منهُ عن رائهِ في ذلك فقـــال ساموئيل : لاتلتفتوا اليهِ ولا تجـــادلوهُ عن ذلك. لانهُ يتظاهر انهُ لا يريد السفر ولكن في قلبهِ يعرف جيداً انهُ يسافر بلا شكٍ

فصاح ديك وقال: وحياة رأسك سافعل . . واصدك . . .

فاردف فرغوسن قائلاً : لن تفعل شيئاً يا ديك لانك معـــيَّرٌ وموزون بجسمك وبارودك وبواريدك ورصاصك فارجوك اذاً ان لا تقول شيئاً

فسكت ديك ولازم الصمت مذ تلك الدقيقة الى حين وصولهِ الى زنجبار ولم يعد يتكلم عن رحلتهِ ولا عن شيء آخر

## الفصل التاسع

### في وصول المسافرين الى زنجبار وارتفاع القبة الهوائية الى الطبقات العلوية

وكانت الريح موافقة لسير السفينة ومياه البحر رائقة لا يهيجها هائج فكان اهل السفينة يتعالون بهذا على ان الرحلة الجوية تكون طبق الرحلة البحرية انتظاماً وهدوءاً وقد عيل صبر الملاحين لينظروا تلك الساعة التي فيها يرتبك العلامة ورفقاؤهُ المركبة الهوائية ولما دخل اليوم الخامس عشر من شهر نيسان ارست السفينة في مينا زنجبار وهي مدينة في جزيرة اسمها زنجبار ايضاً وكان ذلك قبل الظهر بساعة

اما جزيرة زنجبار في زمام امام مسكات حليف الدولة الفرنسية والانكليزية ويطرق ميناها سفن عديدة من البلاد المجاورة لها وهي معروفة عن بر افريقية مدرج ليس بمتسع وسكانها يتاجرون بالفرا والعاج وخاصةً بخشب الابنوس وهذه البلاد ايضاً مقرٌّ لبيع العبيد وسوقهم رائج فيها لان فيها تحتشد الغنائم التي يكتسبها روساء اقوام افريقية الوسطى بمحاربتهم بعضهم بعضاً ويعرضونها للبيع وهذه التجارة ممتدة جداً حتى عند ارياف النيل (١)

فعند وصول السفينة الى زنجبار اسرع قنصل الانكليز لاقتبال

---

(١) ان اهل الخير ساعون كثيراً في هدم لامام في نسخ هذه العادة السيئة التي يستكف منها كل طبع سليم وقد نجح مسعاهم اذ حُرمت تلك التجارة شرعاً ووُضع قصاصٌ على المخالفين

العلاّمة فرغوسن في منزلهِ لانهُ كان عارفاً بمقصدهِ بمطالعتهِ الصحف الاوربية وهو من جملة الذين ادخلوا رحلتهِ في طي الخزعبلات والخرافات واول ما شاهد العلاّمة وقرأه السلام قال لهُ: كنت في شكٍ وعلى ريب من رحلتك ولكن تبين لي الان انك مزمع على تنفيذ اربك فزال مني الشك وتحققت نجاح مصلحتك

فطلب العلاّمة من القنصل استعلامات عن القبطان اسپيك السائح الانكليزي فبلغهُ القنصل تحاريره ورأى انهُ متعنب جوعاً وعياء وبالكاد يمكنهُ ان يقدم في المسير على الهوينا.

فقال حينئذٍ ساموئيل: انا بحولهِ تعالى سنتجنب هذه الاخطار والويلات ولا نرى منها ما ينقص رحلتنا

ولما تأهب العلاّمة لتنزيل قبته الهوائية من السفينة بلغ بعض الناس القنصل ان لا يفعل ذلك في المدينة لان سكانها يمانعونها بالقوة الجبرية ولعمري لا شيء اقبح من الشهوات المتعصبة تعصباً لا طائل تحتهُ فانهُ لما عرف سكان الجزيرة بقدوم رجل مسيحي يريد ان يطير في الجو غضبوا واحتقوا وهاجوا وماجوا اما الزنج فاخذ منهم الغضب اشد مأخذاً من العربان لانهم رأوا بهذه الرحلة ما ينافي دينهم وظنوا ان القبة تطير قاصدة الشمس والقمر وتضر بهما ويفعل راكبوها بهما ما شاؤوا فكيف يتركون ذا الامر والشمس والقمر لديهما بمقام سامٍ واعتبارٍ فائق فصمموا النية على مقاومة هذا العمل بجميع قواهم وحرفهم

ولما علم القنصل بجميع ذلك اطلع العلاّمة وقبطان السفينة عليهِ اما قبطان السفينة فقال: لا يمانعنا شيء ولا نخشى احداً. فقال لهُ القنصل: ياصاح انا نفوز بالنصر والغلبة على العربان والزنج وخاصةً لان عسكر الامام يعدون لما

ساعد الاسعـاف ولكن لا يخفى على حضرتك ان سهماً واحداً اذا اطلق على القبة اذهب بقوتها وفاعليتها وبطلت الرحلة فيلزم اذاً ان نتصرف بتأنٍ واحتراز علّنا نبدد هذه المصاعب ونزيلها

قال القبطان: وما العمل فاينا اردت ان تركب تجد نفس المانع

قال القنصل: لا شيء اسهل من انكم تنقلوا القبـة الى الجزائر الصغيرة التي ترونها بعيدة عن هذه المدينة وهناك لا يصدكم احد البتة

قال ساموئيل: هذا رأي صحيح فاما هناك نبقى احراراً لا يستعبدنا العبيد باهوائهم الخسيسة

وبعد ذلك الحديث توجهوا حالاً ونزلوا جزيرة كبيرة وجعلوا القبة في بقعة فسيحة وسط غاب ثم صنعوا صاريين كبيرين يبلغ طول الواحد ثمانين قدماً ووضع الواحد بعيداً عن الاخر بمسافة طول الصاري وفوقهما البكرات وعليهـا الحبال وهكذا رفعوا القبة وكانت اذ ذاك غير منفوخة والقبة الصغيرة داخل القبة الكبيرة وترتفع كما ترتفع هذه وادخلوا الانبوبة التي منها يدخل الإدروجن عند طرف كل من القبتين واما اليوم السـابع عشر من الشهر المذكور فقضوهُ في تجهيز الالة لاحصال الغاز وكانت مؤلفة من ثلاثين برميلاً وفيها يُحلّ المـاء برادة الحديد والحمض الكبريتي ( اسيد سلفريك ) الموضوعين في كمية وافرة من الماء والادروجن يصل قبلاً الى برميل في وسط البراميل بعد ان يُغسل في طريقهِ ومن هناك ينفذ في الانابيب حتى يصل الى القبة وهكذا تمتلئ القبتان بكمية محدودة من الغاز

وقد تطلب هذا العمل ثلاثة الاف ومائتي ليتر من الحامض الكبريتي والفين وستمائة وثلاثـة وسبعين رطلاً من الحديد وواحد واربعين الف ومائتي ليتر من المـاء فابتدأوا بهِ في الليلة التاسعة واستمر نحو ثماني ساعات وفي الغـد

كانت تتمايل القبة في الهواء فوق الزورق وقد ثُقل عليها باكياس كثيرة من الرمل

ثم رفع العلاّمة آلتهُ لامتداد الغـاز وانقباضهِ باعتناء جزيل وبعد ذلك وضعوا في الزورق لوازم السفر كما ذكرناها قبلًا

وقد تمَّ هذا الشغل نحو السـاعة العاشرة من النهار وكانت الحراس تسهر حول الجزيرة لئلا يطرقها احد من العبيد ام من العربان

اما الزنج في جزيرة زنجبـار فـكانوا يصيحون باصوات الغضب والحنق ويطوف السحرة فيما بينهم ويبثون فيهم روح الغضب واراد بعض المتعصبين ان يأتوا الجزيرة بالساحة لكنهم مُنعوا عن ذلك حالًا

وبدأ الرقاؤن والسحرة حينئذٍ في المـناداة الى السماء لتنزيل الامطار والحجارة الحارة (والحجارة الحارة بمعنى البَرَد في تأويل اهل زنجبار) ولاتمـام ذلك اخذوا اوراقًا من جميع اصناف اشجار المدينـة وغلوها على نار خفيفة وفي غصون الغليان ذبحوا خروفًا وادخلوا في قلبهِ دبوسًا كبيرًا لكن السماء ما زالت رائقة رغمـًا عن طقوسهم المضحكة وما ربحوا الّا خسارة الخروف واتعـابهم البـاطلة

فجعلوا وقتئـذٍ يشربون المسكرات ويغني كلٌّ على ميلهِ بدون ترتيب ولا انتظـام

ولما كانت الساعة الحادية عشرة من النهار اخذ المسافرون يتناولون الطعام وكان جالسًا معهم القبطان وجميع الضابطة واما ديك فـكان يدمدم في شفتيهِ ويتمتم بعض الكلمات الغير المفهومة وعينهُ كانت شاخصة دائمـًا بالعلاّمة فرغوسن

اما الحزن فـكان خاطًا رسومه على وجوه جميع الحاضرين لان الافـكار

لخذت في الانشغال من دنو الساعة العظمى وبدأ جميعهم يرددون في فكرهم ما عسى يحلّ بهؤلاء المسافرين الابطال وهل يا ترى يعودون الى الاوطان ويشاهدون الاخدان واذا حلّ بهم ويلٌ واضطروا الى النزول بين البرابرة فما تصبح حالتهم

امـا العلاّمة فرغوس فكان يحاول ان يتخلص من الأسف الذي لاحت لوائحهُ على جميع الوجوه لكنهُ لم يستطع ذلك فتناقل بعض الكلام مع رفقائهِ ولكنها كانت عرية من كل رونق ورهاء

ولـما امسى المساء ذهب العلاّمة ورفاقه ورقدوا في السفينة لئلا تصيبهم مصيبة وعند الصباح والشمس اذ ذاك قد بزغت اشعتها والنسيم رحيم نزل جميع ركاب السفينة في الجزيرة ووقف عشرون ملاّحاً عوضاً عن اكياس الرمل التي كانت ماسكة القبة

وفي تلك الساعة وقف ديك امام العلاّمة وخاطبـهُ قائلاً : أ عزمتَ عزماً ثابتاً على السفر

قال العلاّمة : ولا شكّ في ذلك

قال ديك : فاني قد بذلت جهدي لاصدك عن رحلتك ومـا بقي عليَّ عتاب ولا لائمة ولهذا ارافقك في رحلتك

قال العلاّمة : كنت مؤكداً ذلك منك ايها الفاضل الجزيل يا ايها الخليل

ولما وافت ساعة الوداع تعانق الاصحاب مع الاصحاب ثم ركب المسافرون المركبة نحو الساعة الثالثة من النهـار فشعل العلاّمة القصبة لتمتدّ الحرارة وسط القبة الطيارة وفي الحال ارتفعت هذه القبة عن الارض نحو عشرين قدماً اذ ارخى الملاّحون شيئاً من الحبال التي كانوا متمسكين بها

ثم وقف فرغوسن ورفع البرنيطـة عن رأسه وقال : فلنسمّ مركبتنا باسم

يوليها الحظ والسعادة ولقبها المنصورة ( فـكتوريا ) فصاح الجميع قائلين فلتحيى الملكة فكتوريا فلتحيى انكلترة

واذ تمت قوة الحرارة وقد ودع المسـافرون رفاقهم الوداع الاخير قـال ساموئيل : ارخوا الحبـال جميعًا وسوية فارتفعت المنصورة الى العلاء واطلقت السفينة المدافع اكراماً لها واجلالاً للمسافرين فرنت اصواتها في الافاق

## الفصل العاشر

### في مرور المسافرين في بلاد عديدة ومبيتهم على شجرة الصبَّار
### فوق حل دوتوي

ولما ارتفعت المنصورة الى الاعالي كانت الريح لطيفة والجو رائقاً فعلت نحو الف وخمسمائة قدم فوق الارض بخط مستقيم وقد عرف ذلك ساموئيل من انحطاط البارومتر بخمسة سنتيمترات تقريباً (١) وعند وصولهم الى ذلك العلو تغيرت الريح قليلاً ودفعت القبة نحو جنوبي غربي افريقية

وكان يتراءى لاعينهم مشهد من اجمل المشاهد اذ ان الحقول كانت متجسمة الالوان والاشكال والاشجار المائلة الاوراق تعجب النواظر وجزيرة زنجبار كأنها بقعة مستوية الارض وسكانها كأنهم هوامٌ وتتصاعد اليهم اصوات صراخ متواصل من اهل تلك الجزيرة

فسأمت نفس يوسف من السكوت في تلك الفرصة فقال : يا لهُ من مشهد جميل تطيب له الخواطر ويروق الناظر

فلم يجبهُ احد على مقاله لان العلامة كان مهتماً بمراقبة التغييرات البارومترية ويدقق الفحص عن تفصيل صعوده وغير ذلك اما ديك فكان يحدق النظر متأملاً ذلك المشهد الغريب العجيب حال وجوده في الفضاء بين الارض والسماء

ولما كانت اشعة الشمس شديدة الحرارة وازرت قوّة القصبة فعلت القبة

---

(١) كلما انحط البارومتر سنتيمتراً يكون راكب الهواء قد ارتفع مائة متر تقريباً

عن الارض نحو ٢٥٠٠ قدم

ولم تعد حينئذٍ تبين السفينة لديهم الا كقارب صغير وكانت دعوة البحر الاحمر تحط وحدها تخم الافريقيـــة العربي والارض الافريقية ملطخة بقع حصرا فقال يوسف لرفيقيه ما بالكما لا تتكلمان فاخذ العلامة طارة وبدا يتطلع نحو الارض وقال الآن وقت النطر فعلينـــا ان ننظر ما ينبسط لانصارنا

قال يوسف اما انا فلا اطيق السكوت

فقال لهُ سيده تكلم قدر ما تشاء فانك بالكلام جدير

وعليه طفق يوسف يُعبر عما ادركه من الاندهال بالزار كلما يعلمهُ من الفاظ الهتاف والعجب

وفيما هم يجوزون البحر اراد العلامة ان يلبثوا محافظين على ذلك العلو وكان امامهُ ترمومتر وبارومتر فيراقبهما دائما ليعرف على اية حالة هم في الطبقـــات الجوية لو بعض النظر في هيئة جاب افريقيه الشرقي

وما مضى ساعات الا انلت الريح العمة الطياره الى فوق اليابسة واراد العلامة ان يقترب من الارض فخفف حرارة القصبة فنزل حالا الى علو ٣٠٠ قدم فوق الارض وحسد وحدوا فوق الجهة الشرقية المعروفة باسم مريغا وهناك اشجار باسقة ملتفة الاغصان والورق ومعرسة العروق وفي الجهة العربية كان جبل أعورو

فمرت المصورة بقرية عرفها العلامة قرية موله سنداً على الرسوم الجغرافية الواردة في الخرطة الكبيرة التي حلها معهُ وفيما هم فوقها سمعوا صجيجاً وصراخاً عظيماً من سكانها ومنهم من رشق القبة بالسهام فكانت تميس باعينهم عائمةً فسهامهم وروعتهم ساحرة

وما زالت الريح تدفع القبة نحو الجنوب فرأى العلامة ان لا بأس بذلك فانهٔ تابع الطريق التي سلكها القبطانان برتون واسبيك

اما كادي فخذى اخيراً حذو يوسف واحب كثرة الكلام فاخذا يتناقلان الاحاديث ويقول الواحد للآخر كيفك يا صاح أليس انك تكره العربات والسعن برؤيتك هده المركبة الهوائية فقال ديك حتى والسكة الحديدية فنجز وافق عليها لان الراكب يسير لكنهُ لا يشاهد ما يمرّ امامهُ

فقال يوسف : قل ما احلى القبة الطيارة فانا نطير على اجنحة الهواء ولا نتعب ولا يشق علينا المسير والطبيعة منتشرة امامنا فنعاينها بابصارنا متأملين ونسبح رب العالمين

قال ديك : وما اجمل هذا المنظر وما احلاه وما ابهى هده الطلعة البهية لعمري أكاد اظن نفسي عريقاً في بحر اصعات الاحلام

، فقال يوسف : ان عصافير بطني تصيح مهلاً تريدون ان تتناول طعاماً

فقال سيده : نعمَ ما افتكرت بهِ فهات ما نأكل

فاحضر يوسف الطعام حالًا وهو حار ولحم مقدَّد وبعدما انتهوا من الطعام قام الخادم وصنع قهوة لذيذة المشرب حسب معرفتهِ الخاصة وذاق جميعهم لذة اوراح سلية تطيب لها الخواطر

ثم اخذ كلٌ منهم ينظر الى تلك البلاد ويتأمل بها فكانت غاية الخصب والريعان ومزدانة بوساد الخضرة والازهار ثم مرّوا بحقول مزروعة تبغاً وذرة وشعيراً وهي بالغة ناضجة وشاهدوا ايضاً قطعان غنم كثيرة العدد محوطة ضمن دائرة لتبقى آمنة من غوائل الضباع وكلما مروا بسكان قرية سمعوا ضجيجاً واصوات حتى تتصاعد الى المنصورة . اما العلامة فما زال مرتفعاً عنهم

بمسافة لاتبلغ اليها السهام وكثيرًا ما لحقها الناس وهم يقذفونها بالشتائم واللعنات لكنهم لا يدرون ما يفعلون وما ابلد فعلهم

وعند الظهر تطلع ساموئيل برسومة الجغرافية فرأى انهُ فوق مدينة اورازامو وفي هذه الناحية ايضًا كان الزرع كثيرًا والحصار فارشة تلك الارض والطيور تصدح بالانغام على الاشجار فتمنى ديك لو انهُ استطـاع ان يصطاد منها شيئًا ولكن ما الفائدة اذ لا يطيق احضارها ولو ضربها بالرصاص

وكانت القبة الطيارة تسير مسافة ١٢ ميلًا اونجيًا في الساعة ولم تمض مدة الّا وصلوا الى طول ٢٠°٣٨ فوق قرية طُدا

فقال فرغوسن يا رفاق انظرا فان برتون واسبيك انتليـا بالحمى في هذا المحلّ وظنا ان اتعابهما السالفة ذهبت هدرًا ولا يستفيدان شيئًا من بعد فاذا كان التعب والضنك اعيـاهما بوصولها الى هـا فكيف اذًا بتقدمهما نحو ينابيع النيل واضطرارها الى خوض البطاح والمفاوز التي لا حدَّ لها ولا قياس

وكثيرًا ما مرّوا باقوام متسلحيـن بالمكاحل ورؤاهم يتمون المتصورة بقصد رشقها بالسهام . فاراد ديك مرة ان يقترب اليهم ليشاهدهم عيانًا فمانعهُ العلامة وقال: الّا تعلم انهم اذا ضربونا بسهم وخرقوا القبة تبدد الغاز وسقطنا على الارض متهورين

فقال ديك : دعنا اذًا بعيدين عن هولاء الجـاهلين ولكن يا ترى ماذا يحسبوننا ونحن طائرون في هذا الفضاء الفسيح فلا بد انهم يعبدوننا

قال ساموئيل: دعهم يعبدوننا عن بعد فاننا بذلك نربح الاضعاف ولكن الا ترى الان كيف تمرّ القرى والضياع فمن قريب نصل الى جبال لا سكان فيها ولا خضار

قال: في الحقيقة اني ارى بعض الاكام نحو تلك الجهة

قال ساموئيل : وعن قريب نرى سلاسل جبال اوريزارا وجبل دوتومي واومل ان تقضي ليلتنا وراءهُ ولكن ينبغي لنا الان ان نزيد حرارة القصبة لترتفع الى علو خمسمائة او ستمائة قدم فنجوز بذرى الجبل بسهولةٍ

ولما ارتفعوا الى العلاء شاهد يوسف اشجارًا باسقة عظيمة فقال ويلاه ما اعظمها واجسمها فان عشرة منها تكفي لان تؤلف غابًا او حرشًا

قال فرغوسن : هذا شجر البوابات فان منها ما لهُ جزع تبلغ دائرته نحو مائة قدم وانظرا هذه الشجرة العظيمة فعليها رُبط الفرنسي مزان سنة ١٨٤٥ واخذ رئيس القوم الذي القى عليهِ القبض في ان يقطع مفاصله شيئًا فشيئًا وكانت الخدام اذ ذاك يرتلون ترتيل الحرب ثم حسم حنجرته واخيرًا انتشل رأسهُ وكان للفرنسي مزان من العمر نحو ٢٦ سنة فأُقبِرَ على هذه القساوة البربرية التي تستنكفها القلوب ولا يطاق سمعها

فقال كادي : وكيف ان الامة الفرنسية لم تنتقم لهذا الاثم الفظيع

قال ان الامة الفرنسية طلبت القاتل فعمل سعيد دنجبار ما عمل وبذل اقصى جهده فلم يحظى بالقاتل

ولما كانت الساعة السادسة ونصف بعد الظهر قابلت المنصورة جبل دوتومي فاضطر العلامة الى ان يرفع القبة الى علو ثلاثة الاف قدم وهكذا مروا بالجبل ولم يمسهم ضرّ البتة

وفي الساعة الثامنة بعد الظهر نزلوا المنحدر المقابل للجبل ورموا حينئذٍ المراسي فتعلق احداها باغصان شجرة صبار عظيمة وبقت متمسكة بها . ثم نزل يوسف الخادم بحبل المرسى ومكنهُ تمكينًا ولما اراد الرجوع الى الزورق أُنزل لهُ السلم الحريري فعاد الى مكانهِ بكل سهولة ثم اخذوا يهيأُون العشاء لان الطبقات الجوية فتحت منهم القابلية فسأل ديك العلامة وقال كم جزنا من

المسافة في هذه المدة

فاخذ العلامة يحص عن ذلك في الرسم الجغرافي المسطر من صاحبه نترمان وهو في غاية الضبط والدقة فرأى انهُ انتقل الى درجتين عرضاً وهما مسافة مائة وعشرين ميلاً

وفيما هم يتناولون الطعام تفاوض بعضهم مع بعض على ان يقسموا الليل الى ثلاثة اقسام وكلّ واحد منهم يسهر في قسم والاثنان يرقدان براحة فسهر العلامة في القسم الاول وكادي في نصف الليل ويوسف عند الفجر

---

## الفصل الحادي عشر

في حُمّى ديك ودوائها وبروله الى الارض،
مع يوسف طلبًا للصيد

مضى الليل كلهُ بالهدء والاستكانة ولكن لما اصبح صباح السبت نهض ديك من الفراش وقد حسَّ بتعب وخمول قوّة ورجفة حمى وكان قد تغير الفلك وتبقعت السماء بالسحب وتهددت الارض بالغيث والعواصف اما تلك النواحي المعروفة باسم زنغمرو فلا تزال فيها الامطار متواصلة في جميع فصول السنة الّا في شهر كانون الثاني فانها تنقطع مدة نحو خمسة عشر يوماً

وما مضت برهة الّا هطلت الامطار وسالت السيول في تلك الوديان

فقال يوسف: وما اردى ما هذه البلاد فاني ارى ديكاً منحرف الصحة بعد مرور ليلة عليهِ

فقال الصياد: في الحقيقة اني اشعر بحمى شديدة

فقال ساموئيل: لا بدع في ذلك يا صاح لان هواء هذه البلاد من اسوء ما يكون في البلاد الافريقية وليس مرادنا البقاء فيها بل هيوا بنا نسير الى اعلى الطبقات الجوية

وفي الحال نزل الخادم ورفع المرسى ثم عاد الى محله ووفرّ ساموئيل حرارة الغاز فتصاعدت المنصورة الى الاعالي وهي مدفوعة بريح شديدة

ولما اندفع الى ما قدام اخذت البلاد في الاتسام بهيئة جديدة ومن الامور الكثيرة الحدثان في الاقطار الافريقية ان بلاداً نظيفة وحسنة الاهواء

لحم بلاداً سيئة المناخ والاهواء

وما زالت الحمى تعذب الصياد عذاباً اليماً فانتحب بالحاف قائلا الآن ليس وقت الضعف فما لي وله

فقال فرعوس مهلا يا ديك عليك ان تعتصم بحبل الصبر قليلا وعلي ان اريك عن برهة قدرة المولى

فتعجب ديك من هذا المقـال وقال لعمري اذا كنت طبيباً وعندك الادوية والعقـاقير فارجوك ان تداويني حالا لان صبري قد عيل واحب ان اكون سالم الصحة في هذا الرحيل

قال سامويل سأداويك بدوا لا يكلفني شيئا

قال وكيف ذلك

قال ولا اسهل من ذلك فاني عا م على ان ارتقي فوق هذه السحب وابتعـد عن هذه الطبقة الوبائيـة فقط ارجوك ان تصبر علي عشر دقائق لأنشر العار

وما مضت الدقائق العشر الا ارتقت القبة فوق الطبقة الرطبة واشتم ديك نسيم هواء رحيم ينعش الفؤاد فترنم حاله وراى نفسهُ مقبلا على الصحة

فقال يوسف لعمري ان هذه الادوية المحيية

قال العلامة بل هو امر طبيعي لا عجب فيه

قال يوسف حبذا اعلم بذلك

قال العلامة كما ان الاطبـاء توعز الى المرضى ان يرتحلوا من محلات الاهواء السيئة الى محلات الاهواء السليمة ليشتموا رائحتها وينتعشوا بها هكذا انا ارفع ديك الى طبقات الهواء السليم ليشفى من دائه

فقال ديك وما اجمل من هذه الحركة الهوائية فانها كفردوس ارضي

قال يوسف: لا بل تهدينا اليه

اما المرأى الذي انبسط لاعين الطائرين فكان بهياً جميلاً اذ السحب تطوي بعضها على بعض وتنعكس اشعة الشمس عليها فتجمل منظرها ثم ارتفعت القبـة الى علو اربعة الاف قدم ولم يعودوا ينظرون الارض بل شاهدوا في الناحية الغربية ذرى جبـال رويبهو وهي على حدود بلاد اوغوغو في درجة ٣٦°٢٠ طولاً. اما الريح فكان مهبها شديداً وتدفع المركبة الى عشرين ميلاً في كل ساعة اما هم فلم يشعروا بسرعة مسيرهم بل كأنهم جالسون على هودج لا يحركهُ محرك

وغب مرور ثلاث ساعات تم انذار العلامـة فرغوس وبُرئ ديك من سقمهِ ثم فطر بقابلية ومسرة

ثم قال: هوذا ما اعتضت به عن سلفات الكينا وعدي انهُ الخير منهُ

قال يوسف: نعم الهواء هواء هذه الطبقات وان شاء المولى سآتي اليها لاقضي فيها آخر ايام حياتي

ولما كانت الساعة الثالثة من النهـار صحت السماء وتبددت السحـب في الافاق فشرعت المنصورة تدنو من الارض شيئاً فشيئاً واراد سـاموئيل ان يجد ريحاً تقيدهُ الى شمالي شرقي افريقيـة فوجدها في علو ٦٠٠ قدم فوق الارض وغب مرور برهة بان امامهم جبل

وفي تلك الساعة اخذت ذرى الصخور في الارتفاع واقتضى الحـال ان يتحذروا في كل دقيقة من رؤوس بعض الصخور التي كأنها تهددت المركبة

فقال ديك: ان قبتنا فيما بين هذه الصخور كالسفينة التي تسير بين الصخور المتوارية في المياه

قال العلامة: طمن بالك يا ديك فان هذه رؤوس الصخور لا تمسنا

فاخذت المتصورة تمرّ بين ذرى الصخور والجلاميـد ولا يمسها ضرر ولا عارض

ثم قال فرغوسن: لوكنا سرنا مشاةً في هذه الاراضي المائية لخضنا في في بجر حماة لا مــاص منهُ ولا مفر ولكانت تضورت دوابنا عياءً وتعباً مُذ خروجنا من رنجبار الى هذه الناحيــة وكنا اصبحنا ضعفاء الجسم نحيفي البدن وهيهات ان يجلدنا الصبر ويولج فؤادنا التجمل وأنّى مني من احصاء المصائب الكثيرة والمشاق العديدة التي تحيق بالمسـافرين في النهار حرٌّ لافح مضنك يكاد المرء لا يطيق احتمالهُ وفي الليل برد قارس يلسع الجسم فلا يتمكن من مقاساتهِ ومع هذا كلهِ لا تخلو من الذباب التي قيل عنها انها تخرق الاقمشة واذ لسعت البدن حبلت عقل الانســان هذا مع قطع النظر عن الوحوش الكاسرة والاقوام الدابرة

قال يوسف: اسأل لطف المولى ان لا يرميني في هذه المهوات

قال ســامونيل : لعمرك اني لم اغالي في الوصف بل اذا سمعت قصص السواح ورواياتهم في رحلاتهم الافريقية اغرتك على سكب نبات العيون من الجفون

ولما كانت الساعة الواحدة قبل الظهر مروا ببحيرة إيمجي والاقوام اذ ذاك في تلك النواحي يتهددون المتصورة بالسلاح فلم يظفروا بالنجاح ثم وصلوا الى الارض المعوجة الكائنة قبل جبل روبيهو وهناك السلسلة الثالثة السامية من جبال اوراغارا

فاخذوا يتأملون جيداً هيئة تلك الجبال فكانت الاقسام الثلاثة مفروقة بعضها عن بعض ببطاح فسيحة وبين الصخور والجلاميد ترى الحجارة والحصى مشتتة ومبعثرة . فالجهة المقابلة لزنجبار هي ذات منحدر وعر جدًّا واما في الجهة

الغربية فالمنحدر لا يشبهُ بل هو ساحات منحنية قليلًا ولا تخلو من الجداول التي تصب في نهر كنغاني في الجهة الشرقية حيث اشجار الجميز وتمر الهدي والنخل والقرع متكاثرة بل على هيئة رياض

فقال وغوسن : علينا الان ان نأخذ حذرنا من هذا الجبل العالي وهو جبل روبيهو الذي تأويلهُ في عرف اولئك الاقوام ( مرور الرياح ) فينبغي لنا ان نرتفع الى العلاء وعلى ظني اذا ما وصلنا الى علو ٥ الاف قدم فقط فلا نجو من الخطر ولا نظفر بالوطر

فقال يوسف : وهل كثيرًا ما يقتضي الحال ان نصعد الى مثل هذا العلو الشاهق

قال وغوسن : كلاَّ لان جبال افريقية ليست سامية الارتفاع كسائر جبال اوربا واسيا اما نحن فما لنا ولها اذ لنا مر بها بقبتنا دون صعوبة وعلى الاثر اسعر العلامة النار فازدادت الحرارة ودفعت القبة دفعًا هائلًا حتى اوصلتها الى علو ستة الاف قدم

فسأل الخادم سيده قائلًا : أنجوز هذا الحدّ من العلو

اجاب ساموئيل : اذا كانت القبة كبيرة فيتمكن الانسان من الصعود الى درجة اسمى من هذه كما فعلهُ بريوسكي وغاي لوساك ولكن احذ الدم يمج من انافهما واذانهما وعدما التنفس ومد بضع سنين تجرأ رجلان افرنسيان على الارتقاء الى الاعالي فاخترقت قبتهما . . . .

فسأل ديك حالًا وقال : هل سقطا على الارض

قال ساموئيل : لا شك في ذلك لكنهما سقطا سقوط العلماء الذين لا يمسهم ضرر البتة في سقوطهم

فقال يوسف : سادتي انكم احرار اذا اردتم تجربة هذا الامر اما انا

فلست بعالم بل جاهل واوثر ان ابقى في الحالة الوسطى وقد قيل حب التناهي غلط خير الامور الوسط ولا اود ان ابقى في علو باسق ولا في وطوء دني فان الطمع ضرٌ ما نفع

ولما بلغوا علو ستة الاف قدم اخذ يخف ثقل الهواء ولم يعد الصوت ينتقل الّا بصعوبة كلية واختلطت الاشياء على بصرهم فامسوا لا يشاهدون الّا اجولاماً غير مخططة ولا تبين الطرق الّا كشبابك والبحيرات الّا كاحواض

وكان الهواء الجوي يدفعهم فوق الجبال المكسوة ذراها بالثلوج كانها باقية على حالتها الاولى من يوم خلقها المولى سبحانهُ وتعالى

ورسم فرغوسن هيئتها وجميع ما يجاورها بتمام الضبط والدقة

ثم نزلت المنصورة الى منحدر جبل روبيهو وكان هناك غاب واحراش فيها من الاشجار اعطمها والخصار اعجبها واغربها فدنا ساموئيل من الارض والقى المراسي فتعلق احداها بشجرة جميز . ثم نزل يوسف ومسكهُ باعتناء وترك ساموئيل القصبة في حالة الحرارة ثم قال للصياد : اذهب للصيد لست ويوسف فعليكما ان تاخذا سلاحكما وتصطادان ما يحلو لخاطركما لتعتدي الان بين هذه الاحراش وتنشرح برهةً

فنزل حالًا الى الارض ولما خفت القبة ثقلًا تمكن فرغوسن من اطفاء نار القصبة

فقال لهُ يوسف من اسفل : حذار يا سيدي ان تطير وتتركنا

فقال فرغوسن : كن على راحة بال فان القبة متمكنة جيدًا فاذهبا بالسلام فاني اتمنى لكم النجاح والتوفيق ولكن كونا على حذر دائمًا واذا ما دهمني داءٍ فاني اطلق الرصاص حالًا فيكون ذلك علامة لاقتضاء حضوركم السريع . وهكذا تم الاتفاق وانطلق الاثنان للصيد

## الفصل الثاني عشر

### في هجوم السعادين على القبة الهوائية ووصول المسافرين الى كاره

اما الارض التي كانوا يسيرون فيها فكانت من فخار وهي تتشقق من الرمضاء (شدة الحرّ) وشاهدوا فيها بعض اثار القوافل وشيئاً من عظام الحيوانات والناس معاً

وبعد ما مشوا نحو نصف ساعة ولج يوسف وديك غاباً ذات اشجارٍ متنوعة وهما يرصدان طيراً ام حيواناً آخر ليصطاداهُ ولم يكونا يعرفان ما هي اجناس الحيوانات والطيور الموجودة في تلك النواحي

فقال يوسف : ان لنا نفعاً في مسيرنا على اقدامنا ولكن يا ليت هذه الارض سهلة وحسنة الانتظام

اما ديك فأومى اليهِ بالسكوت والوقوف لانهُ نظر عن بعد بعض الحيوانات الشبيهة بالايل واراد ان يكمن لها لكنهُ لم يدنُ منها قليلاً الّا احست بالخطر المحيق بها . فكانت واردة مورد الماء لتستقي منهُ فعند احساسها بدنو عدوها شرعت تلعق لعقةً وتنظر الى الهواء اما ديك فتوارى عنها ودار حول صخرٍ ثم اورى زناد سلاحهِ فولت جميعهنَّ مدبرات ولم يصب سهمهُ الّا واحدة منهنَّ فسرَّ سروراً بليغاً لهذه الغنيمة الفاخرة ولما اقترب اليها رأى لونها ضارباً على الزرق واللون الرمادي وبطنها مع ساقيها ذات لون ابيض اشبه ببياض الثلج

فقال ديك لصاحبهِ : لله هذه الالوان ما اجملها فان مرادي حفظ جلدهـا

قال يوسف : ولماذا يا ديك

قال ديك : أما ترى هذا البهاء والجمال

قال يوسف : اما ترى انت ان هذا حملٌ يثقل على صاحبنا فرغوس اذ انهُ يفسد موازنة قتبه

قال ديك : هذا صحيح ولكن يشقّ عليَّ ترك هذا الحيوان

قال يوسف : كلاّ لا نتركهُ كلهُ بل نستنتج منهُ اولاً ما يقيتنا وبعدها ثم نترك ما تبقى واذا شئت هيأت لك الان لحمانهُ

قال ديك : افعل ما تشاء وتريد وانا ايضاً لا يصعب عليَّ تهيئة لحمانه كما لا يصعب عليَّ صيدهُ بالرصاص

قال يوسف : لا ريب في ذلك ولكن اتركني اتحمل الان هذا التعب فيما تهيأ لي وجاقاً على ثلاثة حجارة وبعد ذلك تكلف خاطرك بجمع قليل من الحطب لنورث النار ونشوي عليها اللحمان

قال ديك : على الرأس والعين فان جميع ما امرت بهِ يتمّ برمشة عين واخذ حالاً بانشاء الوجاق ولم تمض برهة الاّ جمع الحطب واشعل النار فصعد لهيبها وطار شرارها وكان يوسف قد انتشل من جوف الحيوان السلسلة وغيرها من اللحمان الطرية وجعلها على النار لتشوى

وبما هما على هذه الحال قال ديك لرفيقهِ : أتعرف ما خطر في ذهني

قال ديك : خال في ذهنك ان اللحمان ستنضج عن قريب وهي شهية للطعام

قال يوسف : كلاَّ بل طرق ذهني فكر وهو انهُ ما عسى يحلّ بنا لو

فهنا ولم نشاهد القبة الطيارة

قال ديك : وما هذا الفكر الذي تفتكر به أتظن فرغوسن يتركنا في هذه البلاد

قال يوسف :كلاَّ فليس الامر كذلك ولكن على فرض ان المرساة فلتت من الشجرة فترتفع القبة ويصعد معها مولاي

قال ديك : ومن المحال ان يفلت الانجر على هذا الحال وهبهُ جرى فان العلاَّمة سينزل في مكان اخر لينتظرنا ولعري ان آلتهُ من افخر الالات واحكمها ترتيباً وانتظاماً

قال يوسف : ولو هبت ريح شديدة فانها تدفعهُ الى حيث لا يمكننا الوصول اليه

قال ديك: ارجوك الصمت يا مبشرًا بالسوء فان حديثك هذا لا يبسط الخاطر

فقال يوسف: يا سيدي ان جميع ما يحدث في هذا العالم هو طبيعي والحال كل امرٍ قابل للحدوث فاذًا ينبغي على المرء ان يأخذ حذرهُ قبل فوات الفرصة

ولم ينتهِ ديك من التفوه بهذه الكلمات الّا دوت طلقة نارودة في الافاق

قال ديك : مَه ثُم يا يوسف. ما الذي ناب فرغوسن ليطلق الرصاص

قال : ربما احاق به خطرٌ هلمَّ اليه راكضين

فجمع الرفيقان ما كان جهزاه من الصيد وعلقا على المسير نحو القبة الطيارة وكانت الاشجار المتكاثفة في ذلك الغاب تمنعهما عن مراقبة القبة عن بعدٍ ولم تمضِ برهةٌ الّا أُطلقت رصاصة اخرى

فقال يوسف   العجب العجاب الطاهر ان الخطر مبين عجيب علينا المحنة كيف ترى يا خليلي

قال   هلم فلنسرع واظن انهُ يدافع عن نفسه

ولما قطعوا الغاب شاهدوا القبة الهوائية مرتكزة في محلها والعلامة ساموئيل جالساً على مركبته

فقال ديك   ربي ما هذ وما الذي حطر ببال فرغوسن

قال يوسف   اما ترى هنالك السود المحيطين بالقبه

فتطلع ديك جيداً فشاهد عن بعد نحو ثلاثين شخصاً يزحم بعضهم بعضاً وهم يعوون ويصيحون ويتسلقون على شجرة الجميز ومنهم من كان قد ارتقى على الشجرة واخذ في التقدم نحو الاغصان العالية فكان الخطر على القبة مبينا

فقال يوسف   اواه ما هذا الخطب لسيدي

قال ديك   لاتخف بل اسرع في مسيرك وهرول ركضاً فاما نحوله تعالى سيدد شمل هؤلا الاعدا قبل وصولهم الى فرغوسن فهيا بنا هيا

ثم أُطلقت رصاصة اخرى فاصابت حنشياً كان يتسلى على حبل المرساة وفي الحال شاهدا جسماً مسا يتساقط من غصن الى غصن الى ان بلغ علو عشرين قدماً من الارض فعلق جسمه في العلا وتدلت ذراعاه ويداه تتذبذب في الفضا

فقال يوسف   يا ويلاه وباي حبل يعتصم هذا القرد الكبير

قال ديك   مالك وله فقد قربنا من القبة

قال يوسف وهو يقهقه ضحكاً أما ترى يا ديك انهُ معتصم بحبل دنبه فانهُ سعدان وجميع هؤلاء السود هم سعادين

وفيما هما يتثـاقلان هذه الاحاديث اذا وصلا اليهنَّ فدخلا فيما بينهنَّ وراهنَّ شرذمة من السعـادين البالغين في التوحش والبربرة ولهنَّ انياب هائلة كانياب الكلاب فأخذا يطلقـان عليهنَّ الرصاص فبددا شملهنَّ وطرحا على الحضيض كثيرًا منهنَّ

ثم دنا كاديك من القبة وارتقى الى المركبة على السلم واما يوسف فتوارى بين اغصان الجميز ليحلّ المرساة ثم اقتربت اليهِ المركبة فدحلهـا بسهولة وفي الحال ارتفعت القبة الى الاعالي واتجهت نحو الشرق بقوة هواء لطيف

قال يوسف : لقد نجونا من معركة شديدة

قال ديك : كنا قد ظننا انك محتاط بقوم من السودان

قال فرغوسن : ولا يختلفون عنهم كثيرًا اسمًا وفعلًا اذ انهم سعادين

قال ديك : لا يمكن تمييزهم عن بعد

قال يوسف : حتى ولا عن قرب

قال فرغوسن : وعلى جميع الاحوال فانّا نجونا الان من خطب جسيم لانهُ لو فلتت المرساة من الشجرة بحراك السعادين فلا اعلم الى اين كانت اخذتني الرياح عنكم

قال يوسف لديك : اما قلت لك ذلك من برهةٍ

قال ديك : لقد اصبت في طلبك هذا ولكن لا يخفى عليك اني كنت وقتئذٍ مهتمًا بتجهيز حبال الصيدة ومشتاقًا لمناولة ذلك الطعام الشهي الناضج

قال فرغوسن : بالحقيقة ان لحم هذا الحيوان الشبيه بالايل لذيذ وتشتهي النفس اكلهُ

قال يوسف : ذُق منهُ اذا شئت يا سيدي فانهُ حاضر واحكم لنا بصحة الامر

قال الصياد : نعم ان هذه الحيوان وحشية لكنها انيسة للحنجرة ولا تمجها المعدة

فقال يوسف وهو يأكل : لعمري اني ارضى بان يكون لحم هذا الحيوان قوتي اليومي الى اخر يوم من حياتي ولكن ما الذه اذا كرع معهُ بعض جرعات من العرق اللذيذ ليحسن هضمهُ في المعدة

وفي الحال احضر شيئاً من هذا الشراب وناول رفاقه ثم تجرع حصتهُ وفي تلك الساعة سأل فرغوسن صاحبهُ ديك وقال قل يا صاح ما رايك الان هل ندمت على مرافقتنا

فاجابهُ ديك وقال : لعمري ما من احدٍ كان يطيق ان يثنيني عن مرافقتكما ومساعدتكما

وكانت تلك الساعة الرابعة بعد الظهر فهبت ريح واسرعت المركبة مسيرها فكانوا يشاهدون الارض كأنها ترتفع امام اعينهم فدلهم البارومتر على انهم في علو ١٥٠٠ قدم فوق مساواة مياه البحر فاضطر العلامة الى ان يزيد حرارة القصبة لئلا تقترب القبة من الارض وعند الساعة السابعة حامت القبة فوق بحيرة كنيامه وعلم فرغوسن من رسومهِ الجغرافية انهم في اراض تأسست فيها حديثاً بعض القرى المشتة بين اشجار البوباب وغيرها وهناك مقر احد سلاطين أغوغو حيث خف التوحش على وجهٍ من الوجوه . لانهُ قلما باع فيها احدٌ عضواً من عيلتهِ . اما الناس فيسكنون هناك مع البهائم وليس لمنازلهم ترتيب ولا انتظام بل كأنها اكواخ حقيرة تُشبه كداديس عشب يابس

وبعد ان جازوا بحيرة كنيامه مرُّوا بأرض صخرية ومحجرة الى ان بلغوا ارضاً ذات خضارٍ وزرعٍ رطبٍ ولكن كان الهواء مستكناً ورأيت القبة واقفة غير متحركة

فانتهز العلامة هذه الفرصة الملائة ليقيم الليل كلهُ في الجوّ اذ ليس ما يحرك قبتهُ فيستريح ورفاقه في الطبقات العلوية باستكانة وطمانينة ولذا قد ارتفع عما كان عليهِ علو الف قدم فكانت السماء اذ ذاك رائقة وفي كبدها تتلألأ النجوم والكواكب فسبح الجميع مولاهم على عجيب خلائقـهِ ورقد الصياد مع يوسف لان النوبة الاولى كانت على فرغوس ولما دخل نصف الليل ايقظ فرغوسن ديكا وفوّض اليهِ المحافظة واوصاه ان يكون حريصاً واميناً في وظيفتهِ واوعز اليهِ ان اذا دهمهُ ادنى عارض عليهِ ان يـيقظـهُ حالّاً من وراشهِ وقال لهُ اياك ان ترفع لحاظك عن البارومتر لانهُ لنا بمنزلة البوصلة

اما الهواء في تلك الليلة فكان بارداً لان ميزان الحرارة نزل ٢٨ درجة عن حرارة النهـار وما زالت الحيوانات الخارجة من مرابضهـا هرباً من الجوع والعطش تضج وتصيح اثناء الليل والصفـادع تنق في مراقدها وابن اوي ينبح ويعوي

ولما اصبح الصباح واستفاق الرفاق من الرقاد نظر فرغوسن الى البوصلة فعلم ان الهواء تبدل وتغير اتجاه القبة الطيارة لانها منذ ساعتين من الصباح اختطت مسافة ثلاثين ميلاً في الجهة الشمالية الغربية وتطلع برسومه الجغرافية فعلم انهُ مارٌّ ببلاد مابنغورو المحجرة وقد شاهد المسافرون فيها من حجر السيناء ذات الصقل الجميل وصخوراً كثيرة محدبة ومتنوعة البناء والخطوط وعظـاماً مشتتـة ومبعثرة من الفيلة والجواميس ولم يشاهدوا فيها شجراً بل عن شمالهم قامت احراش وغابات متسعة ووراءها بعض القرى والضياع

وعند الساعة السابعة تراءى لاعينهم صخر مستدير ذات مسافـة ميلين شبيه بترس سلحفاة عظيمة

فقال العلامة فرغوسن: الحمد لله انا في سبيل الهدى طريقنا مستقيمة

وما هي بلاد جيهولـــكوّا فلي رغبة في ان احلّ بها برهةً لاجدد زاد المـاء الضروري لآلتي فتحوب اذًا ان تتعلق بمكان

فقال ديك: قلما يوجد اشجار في هذا المقرّ

قال: علينا ان نجرب علنـا تتعلق بخلل صخرٍ واوعز الى يوسف ان يلقي المراسي فالقاها ولما كانت القبة قد فقدت شيئًا من قوّتها الرافعة دنت من الارض واذا بمرساة تمسكت بثقب صخرٍ فوقفت المصورة ثابتة غير متحركة

فلا يظن القاري انهُ ضاع للعلامة اخماد الحرارة في حالة وقوفه لان موئنة القبة حُسبت على مساواة سطح البحر والحال ان تلك البلاد هي في ارتفـاع وقد بلغوا فيها علوًا ٦٠٠ الى ٧٠٠ قدم عن سطح البحر فعلى هذا المنوال كانت القبة تميل الى النزول وقد التزم العلامة ان يترك الغاز شاعلًا قليلًا ليحافظ على لبوثها في ذلك العلو من الارض

وقد نظر العلامة فرغوسن الى الرسوم الجغرافية فعرف انهُ في الجهة الغربية من سفح بلد جيهولكوّا حيث يوجد بعض غدران ماء فذهب اليها الخادم وحدهُ حاملًا برميلًا صغيرًا وقد شاهد المحل الذي دلهُ عليهِ فرغوسن واملأ البرميل واتى بهِ المركبـة بعد مرور نحو ثلاثة ارباع الساعة ولم يشاهد في طريقهِ شيئًا غريبًا خصوصيًا الّا حجرًا واسعة لايقاع الفيلة وقد كاد يهوى في احداهنَّ

وقد احضر معهُ جنسًا من الترسيم وهو حضرة كانت تأكلهُ السعادين بتلهف فعرف العلامة ان هذه الخضرة تعرف بافريقية باسم امبنبو وهي كثيرة الوجود في نواحي جيهولكوّا الغربيـة وقد انتظر فرغوسن خادمهِ بقلق لانهُ كان يخشى من طارئٍ يطرأ عليهم في تلك البلدان التي لا يراعى فيها دمام الغريب وليس لهُ امان على نفسهِ

ثم وضعوا البرميل في المركبة بكل هينة لانها كانت قريبة الى الارض

كثيرًا وبعد ان رفع يوسف المرساة طلع الى المركبة وجلس امام سيده فأضرم لهيب القصبة وامتد الغاز وارتفعت المنصورة سائرة في طريق الرياح وكانت المركبة اذ ذاك بعيدة عن مدينة كاره ذات الاهمية العظمى في اواسط افريقية نحو مائة ميل وقد ربما المسافرون ان يصلوا اليها في النهار ذاته نظرًا لوجود الرياح الجنوبية الشرقية وكانت المركبة تسير مسافة ١٤ ميلًا في الساعة ولكن قد صعب على فرغوسن في تلك الدقيقة ادارة مركبته لانهُ لم يكن يمكنهُ ان يرتفع الى علو ناسق بدون ان يعد الغاز كثيرًا لان تلك البلاد كانت شاخصة الارتفاع وعلوها الاوسط ٣٠٠٠ قدم فبذل ساموئيل غاية مجهوده لان لا يعد الغاز كثيرًا وقد مرَّ بجبال واكام كثيرة ثم بقريتي طمبو وتوراولس وهذه القرية كانت ببلاد اونيام وازى فيها الاشجار الباسقة ومنها شجر شبيه بالصبير يرتفع الى علو شاهق

ولما كانت الساعة الثانية بعد الظهر وكانت السماء صاحية حامت المنصورة فوق مدينة كاره الكائنة في مسافة بعيدة عن ساحل البحر ثلاثمائة وخمسين ميلًا

فتطلع فرغوسن وتشتت في مفكراته وقال رحلنا من زنجبار الساعة التاسعة صباحًا وبعد ان سرنا يومين طفنا مسافة ٥٠٠ ميل جغرافي اما القبطانان برتون واسبيك فلبثا مقيمين اربعة اشهر ونصف يسيران في الطريق نفسها التي مررنا بها

---

## الفصل الثالث عشر

في مدينة كاره وسوقها واولاد العمر وهيئة رقصهم وعادة قوم تلك البلد لوصف وظهور عمرس في النعمه السماويه

اما كاره فليست بحصر الكلام مدينة ( لان ليس مدينة في اواسط اوريقية ) بل هي مركز ذات اهمية حربية في اوريقية الوسطى لكنها ليست الا مجموع ست اودية وبها عدة اكواخ لأوى اصحابها وشاهدوا بعضاً منها محاطاً بساتين مزروعة بصلاً و طماطة وبادنجان وحناً (شبه الكماة) وغير ذلك مما يروق للخاطر. اما اوبياوارى فهي بلاد القمر ولا تخلو من الخصب وحمال المطر وفي وسطها مقاطعة اوبيه عمه وهي لا حمية ايضاً وهناك يقيم بعض آل عمان من عرب العرباء الذين يتاجرون بالعواء والعاج والعبيد مع بلاد العرب والقوافل تاتيهم ببضاعة الصححة وغيرذلك مما هو غالي الثمن لانهم عائشون مع نسائهم وعبيدهم بصفا البال وطيبة العيش ولا ينغص عيشهم حادث من طوارق الزمان فيتمددون ويمرحون ويدحون اثناء الليل واطراف النهار ولقد يشاهد اكواخ كثيرة حول تلك الاودية واسواق واسعة لعرض البضائع يحيط بها اشجار كثيرة وهناك محل اجتماع القوافل فان منها ما يأتي من الجنوب مصحوباً بالعبيد والعاج ومنها ما ياتي من الجهة العربية مصحوباً بالاقطان والادوات الزجاجية لاقوام الجيرات العظيمة

ولهذا ترى في تلك الاسوق اضطراب مستديم وصجيج وبعاق ولغط غريب فانك لاتقف برهة الا وتسمع صراخ المكاريين وطنطنة الطبول والزمور ودقدقة الدواب ونهيق الحمير وعواء النساء ورقرقة العلمان ومدقة الحمدار رئيس القافلة

وشاهدوا تلك الصنائع المزوقة من العاج واسنان الفيلة المتنوعة والعسل والقطن وغير ذلك من الاشكال المحسنة

في الساعة والحال عند ظهور القبة الهوائية فوق كاره بطلت الضجة وزال الصراخ وفر كل من ذلك القوم الرجال والنسا والعبيد والتجار والعربان والزنج هروبًا الى كوخه ليختبيء فيه ولم يعد احد ظاهرًا للوجود

فقال ديك لفرغوسن اذا اتت قبتنا دايما بهذا المفعول فصعب علينا جدًّا تمكين العلاقات التجارية مع مثل ذلك القوم

قال يوسف ولكن اما تعطي ان لنا الان معاملة تجارية سهلة جدًّا وهي ان ننزل بهدو وطمانينة الى الاسوق ونحمل ما خف حملًا وغلا قيمة من دون ان نعامل التجار وهذا صحيح من الاغنيا الموسرين

قال فرغوسن سقيًا لك انما الغبيا الرعبه في اول وهلة على هؤلاء الاقوام ولكن لا يلبث ان يرى الجميع راجعين سوا كان باعتقاد باطل ام رغبة معرفة ما شاهدوهُ

قال يوسف هذا رأيك يا مولاي

قال لا شك في ذلك وعن قريب تراهم مقبلين ولكن حذار من ان نقرب اليهم لان قبتنا ليست قبة مصفحة ولا مدرعة بل اذا اطلق علينا ضربة رصاص ام اذا بلنا نبل وحرق قبتنا هلكنا لا محالة

قال ديك الا تعزم على ان تخاطب هؤلا الافريقيين

قال فرغوسن بلى اذا سمحت لنا التقادير لان مدينة كاره لا تخلو من التجار والعربان المثقفين والمتمدنين نوعًا واتذكر جيدًا ما حُكي عن برتون واسبك انهما بالاضافة حسنة من سكان المدينة فترى اذًا انه لا يوجد مانع للدخول بينهم والمحادثة معهم

ولما اقتربت المنصورة من الارض تعلقت احدى مراسيها براس شجرة عالية قرب محلة السوق

وفي تلك الساعة ظهر القوم وخرج كل من خبائهِ لكنهم لم يجزجوا الّا قليلًا فقليلًا بحرص واحتراز

ثم هرول بعض السحرة المعروفين عندهم باسم وغنغـا وهم حاملون القرع المدهون بالشحم والاصداف وغيرها من الاشياء المشهورة بقلة نظافتها

ولم تمض برهة الّا وازدحم القوم واحاطت بهم النساء والغلمان وصحت الطبول بضوضاءِها ثم رفعت الايدي نحو السماء

فقال فرغوسن: هذه عادتهم في الدعاء والتضرع وعلى ما ارى فانهُ عن قريب يصير لنا اهميـة جزيلة عند هؤلاء الافريقيين وانت يا يوسف لربما ستمسي عندهم الهاً

قال يوسف: لا ازهد في مثل ذلك الامر ولا أكره رائحة البخور

وفي تلك الدقيقة قام احد السحرة المعروف باسم ميانغا واومى الى الناس بالسكوت فسكتوا جميعهم ثم تقدم نحو المسافرين في المركبة وخاطبهم بلغـة مجهولة لديهم فلما لم يفهم فرغوسن كلامهُ تفوه على الفور ببعض الالفاظ العربية فاجيب على كلامهِ بهذه اللغة ايضاً

ثم خطب امامهُ الساحر خطابًا طويلًا انيقًا فحص فرغوسن من مآلهُ ان هؤلاء القوم اتخذوا المنصورة نفس القمر وان هذه الالهـة المحبوبة تنازلت ان تدنو منهم مع اولادها الثلاثة وان هذا لشرف عميم شمل لفيف سكان تلك المدينة فاصبحوا لهـا من الممنونين ومعروفهـا هذا لا يُنسى من تلك الارض المحبوبة من الشمس

فاجاب فرغوسن بامارات العظمة والكبر وقال: فليكن معلوماً عندكم ان

القمر يطوف حول بلاده مرة كل الف سنة اذ انه يرغب في الظهور لاعين عابديه ويريد منهم ان يعرضوا لحضرته الالهية ما لهم من الحاجات والضرورات ولا يرتكنوا ويرتبكوا في توسلاتهم بل يجب ان تكون غير مشوبة بالجزع والخديعة

فقال الساحر ان سلطانا (ويعرف باسم موالي) قد انس وراش المرض منذ سنين عديدة فالتمس منه ان اتوسل الى جلالة القمر ليرفق بحاله ويدعو اولاده يشرفونه بحضورهم اذا شاؤوا

فلم فرعوس رفقاه تلك الدعوة فقال الصياد وهل مرادك ان نتوجه الى عند هذا الملك الحبشي

قال وما المانع فاني ارى هؤلا القوم حسني الالتفات نحونا ولا يأتونا بضرر وها ان الجو رائق فلا نخاف على مركبنا

قال ولكن ماذا تصنع هناك

قال فرعوس لا تخف فاني اقضي شغلي بشيء من الادوية الطبية الموجودة معي

ثم التفت نحو الجمع وقال لهم اليوم حين قلب القمر على سلطان بي اوبيام وارى وسا بخاطره ان يسلمنا دواء شافيا لدائه فليكن اذا مناهبا لملاقاتنا لانا ذاهبون اليه

فصحت حينئذ اصوات هولاء الرهط بالصياح والنعاق واخذوا في المسير الى البيت الملوكي

ثم قال ساموييل لرفاقه يجب ان نكون على حذر واهبة للرحيل اذا اضطررنا لترك هذه المدينة حالاً فليق ذلك في المركبة محافظاً على ما يكفي من القوة الرافعة بواسطة القصبة اما المرساة فهي ممكنة غاية التمكين ولا نخشى

عليهـا وانا نازل الى الارض ويرافقني يوسف الى عند طرف السلم وهناك يستريح على خاطره

قال الصياد وهل تذهب وحدك بعد ذلك لحدشي

قال يوسف الا تريد يا سيدي ان اتبعك الى النهاية

قال وعوس لا اقتضـاء لذلك فان هؤلاء القوم طلبوا ان الههم القمر آتٍ لزيارتهم فساعقادهم هذا الباطل لا يمكنهم مضربنا فارحوا باكم وليبق كل منكم محافظا على وظيفته

فقال الصياد سمعاً وطاعة يا ايها المالي

اما صراخ القوم فاخذ في الازدياد وكانوا يطلبون ان القمر ليقضي وطرهم

قال يوسف وما هذا الامر الظاهر انهم متحيرون نحو الههم وامانه

ثم نزل وعوس من مركبه واخذ معه بعض الادوات المقوتة وسار يوسف امامهُ ولوائح العظمة والوقار لائحه على محياه ثم جلس عند طرف السلم وقعد على ركبتيه حسب الزي الشرقي فاحاط به قوم من الافريقيين باحتشـام لائق

اما العلامة وعوس فساروا الآلات الموسيقية الشادية بانغامها الشجية (ولله درها) واحاطت به السحرة وغيرهم من المعتبرين وما مشوا قليلًا الا وقد ابن السلطان الذي كان وحيد الارث الشرعي دون اخوته الشرعيين فلقى وسجد لابن القمر اما وعوس فانهضهُ حالا بحركة لطيفـة ثم مشي معهم في تلك الطرقات المظللة بانواع الاشجـار والنباتات وما مضت نحو ثلاثة ارباع الساعة حتى وصلوا الى سراية السلطان الكائنة في سفح اكمة وهي نوع من البناء المرج المدعو في لغة اهل تلك البلاد باسم ابيتيبيا وحول جدرانها قطع

محارية منها على هيئة رسم انسان ومنها ما كان احسن انتظاماً وهو على هيئة الحيات واما سقف المنزل فمفصول عن الجدران معمد والهواء يتلاعب في المخدع من ذلك العلو لان الشبابيك غير موجودة فيها والساب يكاد يستحق اسم باب لصغره وهيئته الغريبة ولما بلغ ورعوس الى ذلك المحل لاقته الحفرء ورجال الدولة عن د الاحلال وكانوا جميعهم اناسا يمثلون حسناً هيئة اقوام اوريقية الوسطى ذات بنية حسنة وقوة مشهورة ومرح سليم وشعرهم محدولة على هيئة الصغار مسدلة على اكتافهم وحدودهم مخططة بالحمرة والسواد والزرق من المصادع حتى الفم وعلى اذانهم المدودة قطع خشب مستديرة والواح عراة سدروسي ولباسهم مزركش وما ن وكانت الحد واقعة وهي حاملة القسي والاسنة والقوس والسيوف المحدبة المدات

فدخل العلامة ذلك البلاط الملوكي وما زال الصراخ والصخب قائما عند دخوله زعما عن تدثر السلطان بلحاف السقم وشاهد عند اسكمه الباب ادناب ازاب ونواصي اعيار ( جمع عير وهو الحمار الوحشي ) معلقة بطير طلاسم سحرية فلاقاه جمٌ غفير من نساء السلطان وهن يضربن بالطبل ويزمرن بالمزمار وكثيرٌ منهن يلعبن في الحبال ككن يشربن الدخان بالغلايين الكبيرة السود وهن ضاحكات لا يكترثن بشي وقد لففن من اثوابهن المرقعة قطع من الجوخ والالباف المسدلة على حقويهن رجا

لكنه لحظ منهن ستة لم يكن فارحات اقل من سائر رفيقاتهن وان كن معدات لان يُجعلن في القارحيات مع السلطان عند مماته

وبعد ان رمق ورعوس بلحظة عين جميع ما ترا ى لديه تقدم نحو تخت السلطان المصنوع من خشب وشاهده رجلاً بالغاً سن الاربعين سنة وقد طرحتهُ في الفراش ودوختهُ المسكرات المختلفة ولا يمكن ابرا دانه بدواء وعلى

لخصوص لان المرض قد نابهُ منذ سنين جمة وكان هذا السكير البائس قد اضاع حواسهُ وزال ادراكهُ ولو جُمع لهُ جميع نشادر العالم لما كان كافياً لان يعيده الى نفسه

وفي مدة زيارة ابن القمر لجلالة السلطان جرت النساء ساجدات لهُ وتحت ظهورهن فاخرج العلامة شيئاً من الدواء المقوي الذي كان معهُ وسقى منهُ السلطان فتحرك جسمه قليلا ولما كان قد مضى عليه بعض الساعات ولم يبد ادنى حركة تدل على بقائه في قيد الحياة سر القوم بالحركة التي بدت منهُ في تلك الدقيقة وصحوا بالصراخ علامة الشكر والممنونية واجلالا للطبيب السماوي

وعلى الاثر ارتد مرعوس عن المريض واوسع فسحة بين هؤلاء القوم المزدحمين حولهُ وسار قاصداً منصورته لان الساعة كانت وقتئذٍ السادسة بعد الظهر

اما يوسف فكان منتظراً سيده بكل طمأنينة وراحة بال عند سلم السلم وحولهُ قوم من تلك المدينة يقدمون لهُ واجبات الاكرام اللائق بابن القمر

وكانت هيئتهُ مشوشة مع عادية المحدقين به وهو يخاطبهم باحاديث لطيفة من جملتها ما كان يراجعهُ لهم بلغته الانكليزية قولهُ هذا اعبدوني اعبدوني يا ايها الرجال ويا ايتها السيدات لاني شيطان لطيف رقيق الجانب وان كنت ابناً للقمر

وقد قدم لهُ هؤلاء القوم الهدايا استعطافاً لسمو ذاته الالهية واستعماراً عن ذنوبهم وكانت تلك الهدايا بعض سنابل من الشعير وشراباً معمولاً من الشعير ايضاً فاضطر يوسف الى ان يذوق شيئاً قليلاً من هذا الشراب ولما

ـكان مما تحمهُ الصحوة تأثر منهُ وكشر عن اسنانه لشدة مرارة فحسب القوم تلك الكشرة تبسمًا لطيفًا رائقًا

وكانت الشابات تترنم باصواتهن الرخيمة في ذلك المحفل الديني ومنهن من كن يرقصن المحو رقصة عندهن

فقال يوسف ما لي اراكن ترقصن وانا لا ارقص فانظرن اذًا لتتعلمن كيف الرقص في بلادنا

واخذ من ثم ان يرقص رقصة مضحكة وهو يدور ويحوم ويهز رجليه ويديه وركبتيه ويلتوي وينعطف ويقف برهة ويكشر عن اسنانه وهكذا اراد للقوم الاوقيانيين كيف ترقص ابنا القمر

فما فرغ يوسف من حركاته واطواره الغريبة الا نهض كثيرون منهم رجالًا ونساء ولما كانوا مطبوعين على التقليد نوع غريب كما يقلد السعادين اطوار الانسان شرعوا في تقليد اطوار يوسف من الدورات والحركات والتكشير عن الاسنان ورأيت من ثم هؤلاء الهمج قد هاجوا وماجوا وعربدوا وارتدوا وبينما هم على تلك الحال اذا اقبل فرعوس متجها نحو منصورة وكان الاوقيانيون حوله يراجمونهُ صارخين وسحرتهم ورؤساؤهم مضطربون اما هو فيسرع في مسيره وقد تعجب يوسف غاية العجب وظن نفسه عسى ان السلطان هلك من مداواة طبيبه السماوي ويتهددونهُ ليلحقوهُ به

وشاهد ايضا كاذي صطراب القوم وشغبهم ولم يفهم السبب ثم اقترب العلامة الى سفح السلم وكان القوم صارين عن المصرة فشخصه لاعتقاد باطل ما زال يخالج صدورهم وكان ذلك حظًا لفرعوس اذ به تمكن من الولوع الى السلم وبه الى المركبة واتبعهُ خادمهُ في الحال

فقال فرعوس ليوسف هلم واسرع فان الوقت قد ضاق بنا ولا تكترث

محلّ المرساة لان مرادي ان اقطع الحبل واترك المرساة

فقال يوسف وهو يتسلق المركبة وما الذي جرى وما عسى ان هؤلاء القوم

ثم قال ذلك وهو حامل سلاحهُ متأهبٌ لاطلاق الرصاص اذا لزم الامر قل يا صاح وما بال هؤلاء البحارة

فقال ورعوس لرفيقيه انظرا الى الافق

فقالا وما الذي هناك

قال ورعوس هناك القمر فاشار الى القمر الوردي المتلألي الظاهر في كبد السماء اللازوردية فلا شك ان ذلك القمر المالوف

فاحتار القوم وقالوا في انفسهم اما انه يوجد قمران في الدساحة الزرقا واما ان الرفاق الثلاثة ما هم الا خداعون ومكارون وليسوا ابناء القمر كما توهمــا

ولهذا لما راوا ان العلامة قد عاص من ايديهم وكاد يطير في الطبقات الجوية رفعوا الاسنة والحراب وتاهبوا ليطلقوها على الفئة فقام احد السحرة واومى اليهم ان لا يبدوا حركة فانزل جميعهم الســلاح ثم تسلق الشجرة وعزم على ان يمسك حبل المرساة ويجر المركبة الى الارض فمسك يوسف في الحال سكيناً وسأل مولاه وقال هل اقطع الحبل

فقال ورعوس انتظر قليلا لاني امل حفظ المرساة ومتى اضطررنا الى قطع الحبل فلا يمنعنا مانع حتى ولا هذا العبد الخادع

وفي تلك الدقيقة كان هذا الساحر يعدو الاغصان التي هي حول المرساة فخلصت هذه حالا ولما كانت القبة ذات قوة رفعة جذبت المرساة وجرتهــا اليها وجرت معها العبد الاسود الراكب على المراساة كانهُ على حصان ذات

اجنحة وطار المسكين مع المسافرين الى الطبقات الجوية

فاندهش القوم اندهاشا لا مزيد عليه عند معاينتهم احد سحرتهم طائراً في الاهوية

وكانت القبة بقوتها الصاعدة قد ارتفعت الى علو شاهق فقال ديك لا بأس من رحلته برهة في هذه البلاد لانها توليه انشراحا بتغيير الهواء

فسأل الخادم سيدهُ وقال هل يرجي هذا الاسود على الفور

قال فرغوسن حاشا ليس هذا من دأبنا ولكنا نقترب من الارض بعد برهة وبصعهُ بكل هدوء وراحة واري انهُ بعد هذه الحادثة الغريبة سيعظم شأنه لدى قومه وتزيد قوتهُ السحرية عندهم

فقال يوسف وربما يعبدونه كاله

وكانت القبة قد بلغت علو الف قدم والعبد الاسود مستمسك بحبل المرساة استمساكا شديداً وعيناه شاخصتان بالمركة وهو ساكن ولهان

ولما ابتعدت القبة عن المدينة خفف العلامة حرارة القصبة ودنا من الارض فلما راى الساحر نفسهُ قريبا انتهز الفرصة فرمى بنفسه من علو عشرين قدماً وولى الادبار قاصداً مدينه كازه فخف حينئذٍ ثقله عن المركبة وارتفعت حالاً الى الجو

# الفصل الرابع عشر

## في العاصفة الشديدة والنجاة منها وفي ارض بلاد القمر الارضية ومسطحها

فقال يوسف "هوذا قد تنبأنا للقمر بلا استناد . فاننا ما نانا وكدنا نقع بين ايدي البرابرة وندهب فريسة لتوحشهم ولكن لم تقل لنا يا مولاي هل لم تحسن تطبيقك لحلالة السلطان محف مقام القمر عندهم

وسأل ايضاً ذلك العلامة وقال هات اخبرنا عن ذلك السلطان الجليل الشان

قال فرعوس ان السلطان رجل نشوان سيوصله سكره الى دركات المنية بعد برهة وجيزة ولايتاسف احد على فقده اما ما يتضح مما جرى امامنا هو ان كل مجد رمي زائل لايلزم الانسان ان يلتصق به اسفاً عليه

فقال يوسف كان ذا امرٌ يوافقني فاني قد نلت احلالا وتجيلا فائقي الحد واصبحت الها على خاطري فحسدني القمر على ذلك وظهر حالا في الافق ملونا بالاحمرار وهذا مما يدل على انهُ قد ساءهُ صنيعنا

وفيما هم يتساقلون هذه الاحاديث اذا شاهدوا عن بعد سحابا وضبابا كثيفا يتراكم ويزاحم بعضه بعضا وهو مقبل من الشمال ثم عصفت ريح فدفعت المقة الى بين الشمال والشرق اما الذبابة الزرقاء التي فوق المركبة فكانت رنقة لا سحاب فيها ولا ضباب الا ان الحركان ثقيلا جداً

ونحو الساعة الثامنة ليلا وصل المسافرون الى درجة ٤٠°٣٢ طولًا و١٧°٤ عرضاً ولما كانت الريح متأهبة للعاصفة كانت تدفعهم مسافة ٣٠

الى ٣٥ ميلًا في الساعة مروا فوق صحارى أموتو الاريصة ذات الخصار والنضار وكان منظرها مدهشًا يعجب الانظار

قال فرغوسن: هوذا نحن في اواسط بلاد القمر وقد دعيت هذه البلاد باسم بلاد القمر من الازمنة القديمة لقدمية عهد عبادة القمر فيها لعمري انها لارض رائعة الجمال

قال ديك . قلما يشاهد في العالم ارض ذات نضارة وخصب شبيهة بها

قال يوسف: لو كان ذلك حول لندرة لما كان طبيعيًا غير ان القلوب لهامت به وراقت لمشاهدته الانظار ولكن يا للعجب لماذا هذا الريعان قد جعل في بلاد يسكنها الاقوام البرابرة والوحوش الكاسرة

قال فرغوسن: ومن يعلم هلاَّ يأتي يوم وتصبح هذه البلاد مركزًا للتمدن لانهُ عند ما تكل الاراضي الاورپية عن ان تنبت لسكانها زرعًا وتفرع منها وسائط المعيشة لربما يهجرونها ويقصدون هذه المحلات ويجعلونها سكنًا لهم

قال ديك: وهل تصدق في قولك هذا

قال فرغوسن: بلا شك انها الحق العزيز ألا ترى جريان الحوادث في العالم مند ابتدائه الى الان فانك اذا اتبعت على ممر الاجيال مسير الشعوب ومعيشتهم ورحيلهم من بلاد الى بلاد توصلت الى نتيجتي نفسها تأمل اولًا في المشرق التي كانت مهد الجنس البشري فانها قد لبثت مدة اربعة الاف سنة تنمي زرعًا وتنبت نباتًا كافيًا لاعواز سكانها جميعًا ولما شاخت وفسدت اكثر اراضيها احدث الاقوام في الانتزاح عنها واندفقت متهافتةً الى بلاد المغرب التي كانت تزهو وتتنزه بجمال الصبوة وما زالت هذه في دورها تكفي سكانها مدة الفي سنة حتى اخذ خصبها في الخمول وبدأت تنقص قوتها النامية يومًا فيومًا

وصارت الامراض تبلي محصولاتها وزرعها في كل سنة وكأنك بها السنسان قد دهمت ايام صوته فشاخ وهرم ووهنت قواه الحيوية وفسد منهُ الدم في العروق ولذا كم السنين حتى كانت الاقوام الاوربية تهجر بلادها وتتهافت متدفقة الى البلاد الاميركانية ليرضع من حليبها الخصب ولا يحسبنَّ احدٌ ان ينابيعها غير قابلة النشف بل سيأتي يوم وتسد كورها وتطمس في السن وتزول احراشها وغاباتها بموس الصناعة وتضعف الاراضي التي انتت زرعًا كثيرًا فحينئذٍ تتجه الالحاظ نحو البلاد الافريقية ويتهافت الناس لاقتطاف اثمار كورها التي ما زالت تحتشد فيها من قديم الازمنة ويتعودون مناخ اقليمهـا في مدة قليلة وستصبح هذه البلاد التي نحوم عليها الان اكثر ربعانًا من غيرها وتقوم فيها الممالك العظيمة وفيها تكتشف الاكتشافات الغريبة التي تفوق لزنا البحار والكهربائية عجبا ودهشة

فقال يوسف: سيدي حبذا لو رأيتُ ذلك

قال وعوس مهلًا مهلًا يا يوسف فقد انتكرت في رعتك

قال ذيك وقد بان لي ان الجيل الذي فيهِ تقتني الصناعة جميع الكنوز الارضية سيكون جيلًا سائنًا وعندي انهُ لاتلذ فيهِ المعيشة لان الناس لكثرة ما يخترعون من الالات والادوات المحسنة سيكون مصيرهم ان يبتلعوا منها وقد حال ببالي دائمًا ان اليوم الاخير يكون اليوم الذي فيهِ يسحق الناس ماعونًا عظيمًا نار تعادل قوتها قوة ثلاث مليارات من حرارة الهواء فتتأثر كرتنا من هذه القوة النارية العجيبة وتطير متشتتةً في الفضاء الفسيح وتذهب كالهباء المنثور

قال يوسف: ويكون الاميركان لم يتقاعدوا عن الاهتمام في اختراع مثل تلك الآلة .

فقـال العلامة: نعم ان الاميركان قوم يحبون شغل المواعين اغني بذلك

احتراع الالات وىكں ٠١ لنا ولهده الاحاديث علينا ان نتأمل عماطر هده الارص البهية حيث اوتينا مشاهدتها

فكانت اشعة الشمس الاحيرة تتلألأ في تلك الاراضي ا ربية بالاشجار الباسقة والحشائش والحصار الحميلة الشاهقة المثمرة ثمرا عجيبا ولم تحل الغـابـات والاحراش من فضاء فسيح في وسطها فكں مديًا فيها بعض القرى وحولهـا الاحام والسياحات العطيمة

ثم شاهدو نهر النعراري الدي يصطب حوية تمعـايكا وهويشي بين الخصار ويتناول الجاري الكثيرة المتجمعة في الاراضي الحزمية وقت فيضان المياه اما الطائرون في العلاء فكانوا نشاهدونها كنسيح شلالات ماتقاة على الجهـة الغربية من تلك البقعة

ثم شاهدوا المواشي الدمان ترعى في العياض الاريجة وتتوارى بين الحشائش المتصلة اما الاحراش فتراءت كباقة زهر تحتمي فيها الأسد والضبـاع والنمورة ليأمنوا فيها من شرّ حرارة النهار

فقال ديك ما احلى هده البلاد للصيد فان رصاصةً واحدة اذا أُطلقت على الجيرة صادت طريدة حديرة بها فيا ترى هل لا يمكنا نحص لامر

قال فرعوس كلاَّ ايها الخليل فان الليل يتهددنا بالعاصفة والعواصف شديدة في هده البلاد لان ارصهـا المسحة تنيل الشمس تشـبه المدافع الكهربائية

قال يوسف تكلمت في الصواب ايهـا المولى لان الحرّ متزايد والهواء فاسد وكل مـا نخيس نقرب حدوث شيء خارق العادة

قال فرعوس . ان الجوّ محمل بالكهربائيـة وكل ذات حية تشعر بحالة الهواء السابقة تناقص العناصر وانا معترفًا باني لم اتأثر قط من ذلك مثل هده المرة

فقال ديك. حيث الامر كذلك ألا يوافقنا النزول الى الارض

قال فرعوس. حتّ عليَّ الصعود من النزول ولا اخشى سوى ان يدعني الى خارج طريقي تصلب المهبات الجوية

قال ديك أتريد ان تسير الى جهة غير التي سرنا اليها حتى الان

قال فرعوس اذا استطعت فاني اتجه ذات الشمال مدة سبع الى ثماني درجات علي ارتقي الى عروض ينابيع النيل الموهومة واشاهد هنالك بعض آثار رحلة القبطان اسبيك او لقافلة دي هكلين وهودا نحن الان في الدرجة ٣٢°٤٠' طولاً وارغب في ان اقفو اثر خط الاستواء باستقامة

فقاطعه ديك في الكلام وقال له انظر الى هؤلاء الزرافات كيف تتسلق الارض لتخرج من البحيرات وهؤلاء التماسيح التي تصيح ملتمسة الهواء لتستنشقه

قال يوسف لقد صاق تنفسها ولكن اما تنظران الى هذه زمرة الحيوانات التي تزاحم بعضها بعضاً في مسيرها لربما هي ذئاب واظن انها تبلغ عدد المائتين

قال فرعوس. كلاً يا يوسف فان هذه الزمرة كلاب وحشية باسلة لا تخشى مصارعة السباع واذا التقى بها مسافر فبالتعاسته لانها تمزقه آرباً في الساعة والحال

وقال الخادم: وانا لا احد على نفسي ان اصغ لهنَّ الكمامة واذا كانت الشراسة من دأبهنَّ فما لي ولهنَّ

ثم تكاثف الهواء واصبح الرفيق لا يسمع صوت رفيقه واختبأت الطيور في الاشجار ودلت الطبيعة كلها على انه عن قريب ستغمر الارض بمياه امطار وابلة

وفي الساعة التاسعة مساء حامت المحصورة موق صيع قطر مسنة وكانت ما ككاد تمتار للنصر لتكاثف الظلام

فقال ديك وهو يستنشق عل، رئته من داك الهواء المتراحي وما هده الحال فان اوشك ان احتنق والناس انا لا نتحرك في هدا الفضاء هلاّ يوافق نزولنا الى الارض

فقال ورغوس وهو في اضطراب : الا تبالي بالعاصفة المقبلة

قال ديك - ادا كنت تحشى ان يدفعك عصف الرياح فلا حيلة لك الّا النزول ونطمأن هناك من كل عائلة

فقال يوسف : وربما لا تبدو العاصفة في هده الليلة لان السحب عالية حدًا

قال ورغوسن - وهدا الامر مما يحملني ان ارتاب في الارتقاء الى موقعها حيث يلزمنا الصعود الى علو شاهق جدا ولا نعود نعرف ليلتنا كلها ادا كنا سائرين ام واقفين

قال ديك بدار ان تتخذ رأيك الان لئلا يفوتك الاوان

قال يوسف لسو حطنا سقط الهواء ولو دلك لكان دفعنا بعيدًا عن مقرّ العاصفة

قال ورغوسن : ان دا مما يوجب الكدر فان السحب هي لنا ذات حطر مبين حيث انها حاوية مجاري متضادة قابلة ان تدمجنا في هواءها وبروقًا نارية نخشى منها ان تحرقنا . ثم ادا نزلنا الى الارض وربطنا المرساة في رأس شجرة فان هبة واحدة من الريح العاصفة ترمينا الى الارض وتوهي قوانا وقوة منصورتنا

قال ديك : وما العمل اذًا وما الحيلة

قال فرعوسن: عدي ان نبقى في طبقة وسطى بين ويلات الارض واخطار السماء ليبما يفرجها المولى ويفتح لنا باب الرحمة وله الحمد فان عندنا ماء عزيزًا لاصرم نار القصبة وثلاثة وثلاثين رطلا من ثقل الرمل نلقي منه عند الحاجة

فقال الصياد: ونسهر معك في هذه الليلة

قال فرعوسن · لا حاجة الى ذلك يا خليليَّ بل ضعا رأسكما في الحمى وناما بسلام واذا مست الحاجة ايقظتكما حالًا

قال يوسف ولكن ألا يوافق ان تنام انت ايضا اذ ليس ما يتهددنا الآن

قال فرعوسن · كلاَّ يا يوسف فاني احبُّ السهاد ونحن الان غير متحركين واذا لم يحدث شيء فنبقى غدًا في اعلى نقطة الذي نحن فيه

فتدثر ديك ويوسف باللحاف وتمددا في المركبة ورقدا ومكث فرعوسن وحده ساهرًا في السماء الوسيعة

ثم اخذت الغيوم بالنزول رويدًا رويدا وتكاثفت الظلمات وتراكمت بعضها فوق بعض واحاطت السوداء كدائرة حول الكرة الارضية كأنها مزمعة ان تسحقها

وعلى الاثر صار برقٌ سريعٌ في ذلك الظلام ولم ينتهِ من لمعانه الّا قصف الرعد ودوى صوتهُ في اعماق السماء

قال فرعوسن هيا بنا يا رفاقي انهضا

فللحال نهض ديك ويوسف من قوة قصيف الرعد الذي رَدَفَهُ صوت فرعوسن ووقفا ينتظران اوامر العلامة

فقال ديك · وهل ننزل

قال ورعوس . كلاً فانا لا نطيق النزول ولكن هيا بنا ان نصعد الى العلاء قبل ان تتحول هذه السحب الى مياه وتعصف زوابع الرياح

ثم اضرم نار القصبة بقوة واحدث المصورة في الارتفاع

اما العواصف في تلك البلاد فانها تمتد سريعاً وتشتد كثيراً وما مضت برهةٌ الّا اومض البرق ولمع في الغيوم ثم ارتدفهُ عشرون برقاً احمر حتى امست السماء مخطَّطة بشرر كهربائية احدث في التساقط مع الامطار الوابلة

قال ورعوس قد تأخرنا في تمهيد مرامنا ويسعي علينا الان المرور بمطبقة نارية بقتنا المفعمة هواء قابل الاشتعال

اما ديك فما زال يراجع كلامهُ ويقول علينا في النزول علينا في النزول

قال ورعوس سواءٌ صعدنا ام نزلنا فلا يزال خطر الصاعقة محيقاً بنا ورد على ذلك انا اذا نزلنا الى الارض تشققت قبتنا حالاً باغصان الاشجار

فقال ديك . ارى اننا نعلو الان

قال ورعوس : طلاع طلاع

وما برحت البروق المتتابعة في وميض ولمعان كالاسنة في القتال والرعد في قصيف وعجيج وشرهدت السماء كأنها شعلة نارية ماحقة اللهيب والريح تهب هبوباً شديداً في دامس الظلام وتاوي لها السحب المستنيرة بالبروق وكأن آلة نارية عاملة من العلاء على اضرام النار ونشرها

ومكث ورعوس محافظاً على قوَّة حرارة القصبة والقبة تمتد وتصعد الى العلاء وكان ديك جاثياً على ركبتيه وسط المركبة وهو ماسك باطراف الخيمة لكن القبة كانت تدور دواراناً يدوخ الراس وقد اضطرب المسافرون من شدة حركتها والرياح تصدم القبة وتحوّرها في بعض الاماكن فتصعط ضغطاً عظيماً ثم اخذ البَرَد في الهطلان واتبعهُ صيحة ولغط واما القبة فما انفكت تسير مرتفعةً

وحولها تدور البروق بخطوط نارية يلاقي بعضها بعضاً

فقال ورعوس - في حفظ الله تعالى ها نحن بين يديه فليفعل ما ما يشاء ومنهُ وحدهُ نرجو نجاتنا من تهلكتنا وعلينا يا صاحبي ان نكون على حذر من كل طارقة وبلية وربنا تخترق قبتنا ولا يكون سقوطنا الى الارض سريعاً جداً

ولم يكاد يتم صرخت ورعوس آذان الرفيقين لكنهما كانا يشاهدانه في صفاء وهدوء تامين وسط البروق وعيناه شاخصتان باحجيج النيران المحيقة بقبته

وما تنكت القبة تدور وترتقي الى فوق فمضت ربع ساعة واذا قد تجاوزت حدود منطقة السحب واخذ المسافرون حينئذ في مراقبة تلك الاشعة الكهربائية تحتهم كاكليل ناري يتوج السحب وكأن ذلك الاكليل مركوز في اسفل المركبة وكان هذا المنظر من اجمل المناظر الطبيعية التي يشاهدها الانسان لان العاصفة اسفل والسماء اعلا مرصعة بالنجوم والكواكب وهي صافية لا غيم فيها والقمر يلقي اشعتهُ على تلك الغيوم المضطربة

فتطلع ورعوس في البارومتر ورأى انهم في علو اثني عشر الف قدم عن الارض ونظر الى الساعة فكانت الحادية عشرة ليلا

ثم قال : شكراً لمولانا فقد زال عنا الخطر ولنا منانا وينبغي علينا ان نحافظ برهة على هذا العلو

فقال ديك - ويلاه ويلاه ما كانت ارهب تلك الساعة

قال يوسف - وقد شاهدنا هذه المرة شيئاً جديداً في رحلتنا واني مسرور الخاطر لمشاهدتي العاصفة من المعالي فانهُ مشهد يروق للناظر

# الفصل الخامس عشر

## في محر الحصرة ومصارعة العيل والعشاء في العربة والمبيت فيها

ولما دحلت الساعة الرابعة صباحًا تراءت الشمس من وراء الافق وتددت السحب من السماء وهبّ في تلك الدقيقة نسيم الصباح وهو نسيم رحيم يعش الفؤاد

ثم طهرت لديهم الارض المتأرجح عرفها اذ انهم لم يحيدوا عن الناحية التي مكثوا فيها مدى الليل كلهُ فحعف ورعوس حرارة القصبة وابتدأت القمة بالنزول ودلك لكي تتجه الى الناحية الشمالية فبدل العلامة مجهوده ليجد طبقة هوائية موافقة لغرضهِ فما سمح مسعاه بل ما برح الهواء يدوم المسافرين الى الجهة العربية حتى اتوا على مرأى من حال القمر المشهورة التي هي على هيئة نصف دائرة حول رأس بحيرة تعايكا وسلسلتها الظاهرة في الافق اللازوردي والوعرة جدًا والصعب الصعود عليها واشتهت نخص مبيع يصد المسافرين عن المرور وفي بعض دراها قامت ثلوج مستديمة

فقال ورعوس : هودا بحن في بلاد لم يأتيها المسافرون للفحص عنها وقد توعل القطان برتون كثيرًا في الجهة العربية لكنهُ قط لم يتوصل الى هده الجبال العظيمة بل انهُ انكر وجودها حلافًا لرأي رفيقهِ اسبيك الدي اثبت وجودها ورعم برتون انها حالت في عقل رفيقهِ كشبح خيالي. اما بحن الان فقد تأكدنا وجودها ولا يعترينا الريب بدلك

فسأل ديك وقال . هل نجوز هده الجبال

قال فرغوس : ان شاء المولى فلا نفعل دلك واومل وجود طبقة هوائية

يكون فيها مهب ريح تدفعنا الى خط الاستواء. واذا لزم الامر انتظر ريثما الى ان تهب ريح موافقة لغرضي كما يُفعل في المراكب التي تلقي المراسي في انتظار عدم هبوب رياح مخالفة لمسيرها

واذ كان يحيى سامويل الطبقات الهوائية صادف ما وافق مسعاه فسارت القبة في جنوبي شرقي افريقية بسرعة وسطى

فتطلع في البوصلة وقال ها نحن سائرون في الجهة الموافقة وعلو على الارض نحو ميلين قدم وليس ما يصدنا عن مشاهدة الاصقاع التي نمر بها ولما كان القبطان اسبيك منطلقا الى اكتشاف بحيرة اوكروي سار الى الناحية الشرقية ومر على خط مستقيم فوق مدينة كاره

قال ديك وهل يطول مسيرنا هكذا

قال فرغوسن. ربما يطول قليلا حيث مرادنا ان نتقدم الى جهة ينابيع النيل ولكي نبلغ الحد الذي بلغه المسافرون القادمون من الشمال فيجب علينا المسير مسافة ستمائة ميل ونيف

فقال يوسف وهلا ننزل الى الارض لنحرك اقدامنا المتخدرة

قال فرغوسن بلى ومع ذلك يجب علينا توفير زادنا ولكن عند نزولنا سيأتينا ديك لحما طريا

قال ديك هذا بين يديك يا حبيبي

قال فرغوسن. ويلزمنا ايضا ان نجدد زاد الماء. ولا اعلم هل تدفعنا الريح الى اصقاع قاحلة وبناء عليه يلزمنا ان نأخذ احتياطنا من ذلك القبيل

وعند الظهر صارت المنطاد في درجة ٢٩°١٥ طولا و٣°١٥ عرضا فقد اجتازت بقرية ايوو وهي حد اونيامواري الشمالي بعد مرورها على بحيرة اوكروي

اما الاقوام القريبة من خط الاستواء فتفوق تمدناً على غيرها من اواسط
افريقية ويتولاها ملوك ذات سلطة مطلقة فيجورون على رعيتهم ويبعون بعضاً
عبيداً والاقاليم التي تكثر فيها السكان يتألفون بعضهم مع بعض هو الاقليم
المعروف بقراعوا

واجتمع راي المسافرين الثلاثة على ان ينزلوا الى الارض في اول محلة
مناسبة لغرضهم وكان مرادهم ان يكتشفوا عليها برهة طويلة ثم نظر فرغوسن الى القبة
وجمع اطرافها ليرى اذا كان اعتراها شيء من الخلل فحقق العلامة حرارة
القبة وبعده تدلى المراسي فاخذت تمرّ على حشائش كثيفة مساوية السطح
يبلغ علوها نحو سبعة الى ثمانية اقدام

ولم تكن تلوي تلك الحصار لدى الحركة فوقها ولا تتخللها حجارة ولا
اشجار بل انها كبحر عرمرم لا هادية فيه

فقال ديك ارى انا نسير كثيراً في هذا المرج الفسيح لاني لا ارى شجرة
يمكن ان نتعلق بها واظن انه قد قامت دون الصيد موانع ومصاعب كثيرة
في هذه الاماكن

فقال فرغوسن مهلاً يا ديك مهلاً ألا ترى انك لا تستطيع الصيد بين
حصار تعلو قامتك فاما عن قريب نصل الى مكان يوافقنا

وفي الحقيقة كان مسيرهم الهوينا في ذلك البحر الحصر المنفقة من النسيم
مما يطرب الفؤاد ويسرّ الخاطر وقد اتى اسم المركبة طبق اسمي لانك كنت
تراها كأنها تشق الامواج والطيور ذات الالوان البهية تتطاير احياناً من تلك
الحصار ساعية باصواتها الشجية في تلك الروضة الزهية وقد حطت المراسي
المتدلية حطاً شبيهاً بالخط الذي ترسمهُ السفينة في البحار

وفيما هم سائرون هكذا اذا صدمت القبة شيئاً انتفضت منهُ فطن

المسافرون ان المرساة تعلقت باحدى الصخور المتوارية بين تلك الخضار

فقال يوسف قد تعلقنا يا مولاي

فقال ديك . عليك في القاء السلم

فم تفوه بهذا الكلام الا صحّ صراخ حادّ في ذلك الفضاء . فاندهش المسافرون من ذلك ورفع جميعهم صوتاً واحداً قائلين . وما هذا

فقال واحد . هذا صوت غريب

وقال آخر . العجب العجاب انا سائرون

وقال آخر . قد انحلت المرساة

فقال يوسف : وهو ماسك بالحبل محاول حزمه الباين انها متمسكة جيداً

فقال ديك . ويحك وهل يسير الصخر

فما مضت برهة الا شاهد المسافرون شيئاً مستطيلا ومتلويا دون الخضرة

فقال يوسف لا ريب في انها حية رقطاء تمشي بنا

فقال ديك أهي حية . وذلك سلاحهُ متأهبًا لاطلاق الرصاص عليها

قال فرغوسن . كلا ولم تصيبا تشكيا يا خليليَّ فان ما هذا الآ خرطوم فيل والفيل هو الذي يجرنا

فتأهب الوفيقان واستعدا لاطلاق الرصاص عليه

فقال فرغوسن . اصبرا قليلاً فان ينطلق بنا الى ناحية موافقة لنا

وبعد ان سار الفيل في ذلك الجو الاخضر تراءى لاعينهم في بقعة خالية من الخضرة باكثر جلاء وامتياز ومن قامته الشامخة العلو علم فرغوسن انهُ ذكر

من طائفة حسنة جداً ولهُ ناباں يلمعاں بياضاً دات انثاء لطيف ويكں
ان طولهمـا يبلغ ثمانية اقدام ثم نصروا المرساة ان اطرافهـا تعلقت بنابيهِ
وتمكنت بهما

فما برح الفيل يسعى ويحاول التملص منهُ فدهب سعيهُ هدرا

فقال يوسف وقلبهُ طافح بالسرور هيا ما هيا يا فيلا اميناً فقد تنوعت
كثيرًا هيئة سفرنا في هده البلاد اد احد فيلٌ يجرّ مركبتنا كما تجر احياناً
السفن بعضها بعضاً ونعم السفر على هدا النحو

فقال ديك - والى اين ينطلق بنا (وكان سلاحهُ بيده وقد عيل صبره
من انتظار امر وعوس لاطلاق الرصاص)

قال وعوس اعتصم قليلا بحبل الصبر يا خليلي لاننـا منطلقون الى
جهة حسنة

اما يوسف فما زال يحث الفيل بكل انواع الالفاظ والعبارات اللطيفـة
ويصرخ باعلى صوتهِ - خوخو هيا يا هجين البراري الافريقية سر بنا سر بنا الى
قـدام

ثم ابتـدا الفيل في العدو السريع وهو يلوي خرطومهُ دات اليمين ودات
الشمال وفي قعره كانت تهتز القبة هزة شديدة فهيأ العلامة فأساً ليقطع الحبل
المعلقة عليهِ المرساة ادا الجأته الى دلك الضرورة

لكنهُ قال: لا ارغب في ان اعتقهُ الّا وقت الضيق

فدامت تلك العـــارة نحو ساعة ونصف والفيل لا يحس بتعب ولا كدّ
وقد قيل عن هده الحيوانات دات الخراطيم انها تعدو عدواً بليغاً ومن يوم الى يوم
تشاهد في امكنة بعيدة بعضها عن بعض بمسافات شاسعة وتشبه كثيرًا الحيتان
البحر العظيمة بجسمها وسرعة عدوانها

وقال يوسف · في الحقيقة ما صنعنا إلّا ويشبه صنع صيادي الحيتان لأننا دينا الخطاف فتعلق به الفيل كما تتعلق الحيتان خطاطيف صياديها

اما وعوس فاضطر الى ان يعير مسيره ويسلك من قانده لما تراءى امامهُ في شمالي المرج من تعيير هيئة تلك الاراضي اذ شاهد عن عد ثلاثة اميال حرشا فيه الاشجار المتكاثفة فازعر لى حليله ديك قائلًا دونك والفيل فانهُ يجب علينا توقيفه عن مسيره برفع ديك سلاحهُ واطلق الرصاص ولما كان في مركز لا يتمكن به من تحكيم طلقته اصابت الرصاصة راس الفيل وسقطت على حانه لكنهُ لم يرتع من تلك اللطمة بل عند ما طرق آذانهُ دوي تلك الضربة زمع في سيره واخذ يعدو عدوًا شبيهًا بسباق الخيل

فقال ديك ويلاه فان الرصاص لم يؤثر في راسه

قال يوسف ان راسهُ لاصلب من الصخر

قال ديك ومرادي ان اطلق الرصاصة على كتفه ثم دكَّ سلاحهُ واورى الزناد فصاح الفيل بصوت هائل وما برح يعدو

فقال يوسف سيدي ديك يلزمني ان القي بايدك والّا لا ينتهي العارض فدكَّ سلاحهُ واطلقا كلاهما رصاصتين فاصابتا جوانب البهيم

فعند ذلك وقف الفيل برهة ورفع خرطومه ثم عاد الى جريه وهو يهز راسه ودمهُ يسيل من جراحه سيلانا وافرًا

فقال يوسف علينا ان نحمل بأرد ذائمة

فقال وعوس · وبارًا مستعرة اللهيب لاننا لا نبعد عن الغابة اكثر من ستين ذراعًا · فاوقدوا النار الدائمة فقفر الفيل قفرة هائلة وارتجت لها القبة ارتجاجًا عظيمًا حتى اوشكت ان تتمزق قطعًا ووقع الفأس حينئذٍ من يد العلامة الى الارض

فاصبح المسافرون حينئذ في حالة محيفة اضطربت لها افئدتهم لان المرسا كانت ممكنة في الفيل فلا يمكن قطع الحبل بالسكاكين التي كانت مع المسافرين وما انفك الفيل يتقدم نحو اعداءه وعند دنوه منهم رفع راسه قليلا فاصابته رصاصة فقأت عينه فوقف ساعتئذ واضطرب ثم انثنت ركبتاه كاشفاً جانبه الى الصياد

فقـال ديك . هاك رصاصة في قلبك يا فيل السوء ورماه رصاصة اخيرة

فزأر الفيل ورمحر وهمهم كمداً ومبارعة ثم نهض على قوائمه وعقب حرطومه وسقط بثقله كله الى الارض على احد نابيه فحطم حطماً وكانت تلك الساعة الاخيرة

فقال ديك قد تحطم نابه وهو من العاج الذي يسوى في بلادنا كذا عشرين رطلا ٣٥ دهماً انكليزياً

فقـال يوسف وهو نازل الى الارض وماسك الحبل في يديه ومنه عاد الثمن على حسابك

قال فرعوس : وماذا يمنعك اسمك ياخليلي ديك هل ترى قد اتينا لنتاجر بالعاج ونتمس الغنى والاموال في هذه البلاد فصمت الصياد

اما يوسف فنظر الى المرساة فرآها محكمة التعليق بناب الفيل السالم سالماً ثم قفز العلامة وديك الى الارض ولبثت القبة المفتوحة نصفها مرتكزة على جسم الحيوان

فعند نظر ديك الى الفيل قال وما احمله واعظمه فاني لم ارَ في بلاد الهند فيلاً له قامة شبيهة بهذه القامة النرودية

قال فرعوس : لا عجب في ذلك لان الفيلة في البلاد الافريقية تستوطن

وجمالًا وطالما قد سعي في صيدها اقوام في سواحل الجنوب ولذا قد هجروا الى خط الاستواء حيث سراهم مجتمعين بشردمات

فقال يوسف. اما الان فاني عازم على ان اطبخ طعامًا لذيذًا مدهشًا من هذا الحيوان وانت يا ديك اذهب واصطد ما شئت مدة ساعة او ساعتين ريثما سيدي يناظر القمة ويصلح فيها ما شاء

قال وعوس. هاك اوامرًا مناسبة فافعل اذًا يا يوسف ما شئت

قال ديك اما انا فاني منطلق لاصطاد مدة الساعتين التي تنازل يوسف ان يسمح لي بهما

فقال مرعوس: انطلق يا صاحبي ولكن كن حريصًا ولا تبتعد عنا كثيرًا

فتسلح ديك بارودته ودخل الغاب وجعل يوسف يهتم تهتيم وطبخه فاحتفر في اول الامر ثقبًا في الارض يبلغ عمقه قدمان واملأه حشيشًا يابسًا كان منتشرًا بكثرة على الارض ومحطمًا من فيلة قد مرت من هنالك كما دلَّ عليه آثارها وبعد ان امتلأ الثقب ووضع فوقه حطبًا كثيرًا عاليًا عن الارض نحو قدمين واضرم فيها النار

ثم اقبل الى الفيل الساقط بعيدًا عن الغاب نحو ثلاثين ذراعًا وجسم خرطومه البالغ عرضه نحو قدمين في مخرجه ثم فصل قدرةً من لحمه وضمَّ اليها احدى قوئمه اللذيذة جدًا فان القوائم في الفيل هي القطع الاشهى والالطف من جميع لحومه كالرِجل في الدب وكالراس في الخنزير الوحشي

وبعد انحلال النيران في الثقب قام يوسف الرماد والحطب منهُ فكانت حرارة قوية وسط الثقب فلفَّ قدر اللحم بورق العشب ووضعها في عمق ذلك الثقب المتأجج حرارةً ثم غطاها برماد سخن ووضع حطبًا فوق الرماد وبعد ما اشعلها مدة رفعها فوجد اللحم قد شوي ونضج على احسن اسلوب

فاخذها وجعلها على اوراق حصراء ثم رتب الطعام على الحشيش الرطب واحضر الكعك والعرق والقهوة ثم استقى ماء عذبًا من ساقيــة كانت جارية في تلك الحصار

واصبحت تلك الوليمة مما يطرب الخاطر وظنّ يوسف ان تناول الطعام شانه ان يزيد النظر بهجة وسرور

وقد قال في نفسه . ما احلى والذّ من هذه المعيشة لاننا نسافر في اقطار وسيعــة بلا تعب ولا خطر ونأكــل ونشرب في الاوقات اللازمة فيا تراه جانساعليا ومع هذا كله لم يكن للخواجا ديك يشاء مرافقتنا

اما العلامة فوعيرس فاشتغل بفحص مدقق عن ادوات القبة الهوائية ورأى انها قد قاومت ما حصل لهــا من الضغط مدة مدة ولم يحصل لها خلل من ذلك ثم قاس علو تلك الارض المقيم فيهــا وحسب قوّة القبة الرافعة عسرّ لرؤيته انهــا لم تفقد شيئًا من الإيدروجن ونظر الى الغطاء الخارج فشاهد ان المادة الصمغية المدهون بها الغطــاء لم يعترها ادنى فساد ولا يمكن ان يتخلل القبة حجة من جهاتها لا الهواء ولا الماء

ثم نظر الى الزاد فكان غزيرًا وقد مكثوا في رحلتهم من زنجبــار الى ذلك المكان مدة خمسة ايام ولم ينفد منه الّا ما قلّ ولم يحتج العلامة سوى الى التزود بالماء من جديد

اما الانابيب وغيرها من ادوات تخفيف الحرارة فوجدها فلتت سالمةً من كل غائلة ولم يصر بها قط ما حصل للقبة من الاضطراب وقت رتقانهــا فوق الغيوم وامتطائها الفيل

وبعد ما فرغ من الفحص عن مصورته احد يرسم هيئة تلك البرية المحيطة بهم مع المرج الواسع والحرش المقابل لهم ورسم ايضًا القبــة منتصبة على الفيل

ذات الجثة الناعطة

وفي عصون ساعتين من الزمان اقبل ذلك ومعهُ الاحمال المدهشة والمجاد بعض الحيوانات النديدة فعرض الى يوسف ان يشوي منها شيئاً زيادة على ما هيأهُ من العشاء

قال لهم يوسف : هوذا العشـاء حاضر فتفضلوا نأكل في الحال قد جلس ثلاثتهم على ذلك البساط الاخضر وتناولوا الطعام ووجدوا لحم الفيل لذيذاً جداً وشهياً للاكل ثم شربوا على ذكر الاوطان واخذوا في تدحين التبغ في تلك الاراضي الرهيبة التي لم يسبقهم الى التدخين فيها احد قط مذ نشـأتها

وكان ذلك يأكل ويشرب بفرح وطرب ويتكلم كثيراً وقد بلغ منهُ ملغ ثمول حتى انهُ عرض على رفيقه العلامة بحذر ان يتسوا لهم هناك كوخاً وان يقضوا فيها ما بقي لهم من الايام في الرغد والهناء وعليه يعيشون هكذا عيشة زنسون الشهير فيكون يوسف بمنزلة صاحبه الملقب وندردي ( اي الجمعة )

ولما رأى العلامة ان هذا الصقع خال من سكان قد اطمأنَّ فعزم على ان يبيت ليلتهُ مع رفيقيهِ على الثرى فقام يوسف وهيأ متراساً من النيران حول فرشهم لكي يمنع وثبات الوحوش الكاسرة التي لا بد من وجودهـا في تلك القفار فضلاً عن انهُ يمكن ان رائحة لحم الفيل تجتذب في تلك الليلة بعضاً من الضبـاع والناب آوي وغيرها من الحيوانات فأطلق كنادي الرصاص مراراً عليهن ولكن مضت ليلتهم كلها دون ان يدهمهم عارض سوء البتة

——oo✿oo——

## الفصل السادس عشر

في ما كان من بحيرة اوكارُوه ومبيت المسافرين على جزيرة قفرة ومشاهدتهم عيون النيل وامضاء اندريا ديبنو

ولما اصبح الصباح واستيقظ الرفاق من رقاد نحو الساعة الخامسة اخذوا يتأهبون للرحيل فحطم يوسف نابي الفيل بالفأس الذي وجده بعدان وقع من يد العلامة كما ذكر ولما جلس ثلاثتهم في المركبة ولم يعد يعيقها عائق ارتفعت الى العلى ودفعت الريح المصورة الى الجهة الشمالية الشرقية فقطعت ١٨ ميلا بالساعة

وكان قد حسب فرغوسن درجة مركزه من علو النجوم في الليلة السالفة فعرف انه في درجة ٢° ٤٠ عرضاً تحت خط الاستواء اي على مدى مئة ثمانية وستين ميلاً جغرافياً ثم مرّوا بقرى عديدة غير مكترثين عما كانوا يسمعون من الصراخ والضجيج المتصاعد اليهم من الذين كانوا يشاهدونهم مارين فوق رؤوسهم واخذ فرغوسن رسم تلك الاراضي مع ما ترى له من المناظر ثم جاز بروات روعهي الوعرة كروُوس جبل اوراغار ولما وصل الى تبعا شاهد بداية ذري سلاسل كراغواه التي طبها مشتقة من جبال القمر وقد قرب الى الحقيقة ما كان يقال في الحكايات القديمة ان هذه الجبال هي مهد لبحر النيل لانها متأخمة لبحيرة اوكارُوه وقد زعم كثيرون ان هذه البحيرة هي الخازن الذي منهُ تجري مياه ذلك النهر العظيم

ثم شاهد اخيراً فرغوسن من الافق تلك البحيرة المشتهاة التي نصرها القبطان اسبيك بدون تحقيق في اليوم الثالث من شهر آب سنة ١٨٥٨ وكان

نظر العلامة اليها من كاورو وهي مقاطعة وسيعة تحار تلك البلاد

فتحركت عند ذلك شعائر فؤاده لانهُ قرب الى مركز احدى المقاصد ذات الاهمية الجليلة التي عانى نشأها تلك السمرة الجوية ووضع المطرة على عينيهِ وحدّق في النحو فيها والتأمل بجميع نواحيها واطرافها وكانت الارض تحت اقدامهِ جدباء قاحلة وقلما يصادف فيها بعض الوديان النابتة زرعاً

ولما كانت الارض مرتفعة في جملة اماكن رآها آخذة في استواء سطحها كلما قربت الى البحيرة ثم بدأت تتراءى لعينيهِ حقول الارز ويليها حقول الشعير وغيرها من النبات التي يستقطر منهُ الخمر ثم الموالي وهو نبات يقوم مقام القهوة وهناك عاصمة كاسواه المؤلفة من نحو خمسين كوخاً يغطيها القش وتحيط بها بساتين مزدانة بالزهور

وقد نظر المسافرون من منصورتهم هيئات ذلك القوم الجميلة الناهتة الضاربة الى لون الاصفر المنير وشاهدوا ايضا النساء ذات الجسم الضخم المتماشية في حقول الزراعة وقد تعجب يوسف وديك لما اعلمهما فرغوس ان سمن هؤلاء النساء مسبب عن اتخاذهنّ اللبن قوتاً يوميا لهنّ

فبعد الظهر وصلت المنصورة الى درجة ٤٥ ° ١ من العرض الجنوبي وبعد مرور ساعات من الزمن دفعتها الريح الى ما فوق البحيرة

وقد دعا القطان اسبيك تلك البحيرة باسم نيانزا فيتوريا وفي تلك الجهة اخذ فرغوس يقيس البحيرة وكان ثمانين الف متر وعدد طرفها الجنوبي لتي القطان جملة جزائر فسماها جزائر البعال ثم تقدم الى موانزا في الجهة الشرقية وهناك قابل السلطان فاواهُ بالاكرام واضافهُ بلياقة ولطف ودار حول زوايا البحيرة الثلاثة لكنهُ لم يتمكن من وجود قارب واحد ليعبر بهِ البحيرة ويصل الى جزيرة اوكازوه الكبرى الكثيرة السكان وقد قيل عنها انها

مسادة من ثلاثة سلاطين مع انهُ لم يتحقق عنها الا انها شبه جزيرة عند انحصار المياه المحيطة بها

فالمحارات المنصورة الى النجيرة من الجهة الشمالية على كثرة من العلامة الزاعب في ان يجدّد دائرتها على جهة الجنوب اما سواحلها فكانت مملوءة ادغالاً كثيرة الاشواك واجمات ملتفة بعضها على بعض وتغطيها ربوات من المعوص الحالة عليها وهي متجمة اللون ولا يطرعن تلك الحلات بها مسكونة ام قابلة السكنى وكثيراً ما كانت تخرج اوراس الماء باحراش القصب ثم تعود راكضة الى النجيرة لتتوارى في مياهها البيضاء

اما الافق المشاهد على مدى النجيرة فكان عريضاً ولذا يخال الناظر بها بحر متسع والمسافة طويلة بين الطرفين فلا يمكن لمن وقف على جهة ان يبصر شيئاً من الجهة المقابلة سوى الماء المتراكم ولم تتألف العلاقات بين سكان كليهما وخصوصاً لان الانواء والزوابع فيها شديدة ومالة للحدوث والرياح فيها عاصفة لانها عالية ومكشوفة

فشق على فرغوسن الاتجاه فوق تلك النجيرة وكان يخشى ان تدفعهُ الريح الى الجهة الشرقية ولكن وافقهُ الحظ وذهب ذات الشمال ولما صارت الساعة السادسة حلت المنصورة على جزيرة مقفرة في درجة ٣٠°١ عرضاً و٥٢°٣٢ طولاً وهي بعيدة عن الساحل نحو عشرين ميلاً اوبحياً

فعلق المسافرون مرساتهم على شجرة ولما امسى المساء سكن الهواء فقضوا الليلة بالهدء والطمانية وفي تلك الجزيرة لا يستطيعون النزول الى الارض لان الناموس والبرغش تستر الارض كسحاب متكاثف ولما نزل يوسف الى الشجرة لتمكين المرساة ثم عاد الى مركزه احس بلسع الهوام ولدغها من كل جانب ولكنهُ لم يسوءهُ ذلك بل قال ان اللسع من دأب تلك الهوام

اما العلامة فرعوس فلم يستصوب ان تفعل فيه طبيعة تلك الهوام بل رجى ما استطاع من الحمل حشية من ان يتصاعد اليه شيء من تلك العوص البالغ اليه هديرها المخيف

وقد عرف فرعوس علو البحيرة فوق مساواة سطح البحر فكان ثلاثة الاف وسبعمائة وخمسين قدماً كما حدده القبطان اسبيك

فقال يوسف وهو يحرك كمه ها نحن مقيمون بجزيرة

فقال الصياد لكنا نستطيع ان نطوف حواليها في برهة وجيزة ولكن لا يسكنها ساكن الا هذه الهوام اللطيفة الرقيقة الحاف

قال فرعوس ان جزائر هذه البحيرة ليست سوى اكام عالية ومعمورة في المياه وقد اصابنا حظ بمصادفة هذا الملجأ على هذه الجزيرة لان سواحل البحيرة لا يسكنها الا اقوام برابرة فارقدا اذاً يا خليليَّ بسلام لان الليلة رائقة

قال ديك وهل لا تجدو حدونا

قال فرعوس لا استطيع ان اطبق جفوني فان هواجسي تحملني السهاد ويجافيني النعاس من جرائها وما عدا فاذا وافقتنا الرياح سرنا الى الشمال نحط مستقيم وربما اكتشفنا السر المكتوم وهو عيون النيل فهل تظن اني ارقد وانا قريب من ينابيع هذا النهر الشهير

ورقد ديك ويوسف محافظة رفيقهما العلامة لان الاهتمامات العلمية لم تكن تسلب لهما الهواجس والافكار

ولما صبح صباح الاربعاء في ٢٣ نيسان رفعت المنصورة مرساتها وكانت وقتئذ الساعة الرابعة وكان عيم الظلام المحيق بالبحيرة يتبدد قليلاً فقليلاً ولكن قد هبت الريح بعد برهة واصبحت عيثاً كثيفاً كان مظللاً مياه البحيرة فارتفعت المنصورة الى المعالي واضطربت في اول وهلة ثم اتجهت نحو الشمال

فصفق العلامة بكفيه علامة الفرح والابتهاج وصرح قائلًا . ها نحن في سبيل مستقيم وان شاء المولى نشاهد اليوم عيون النيل وإلّا فلا نعود نراها ابدًا ونحور الان خط الاستواء وندخل في نصف الكرة الشمالي

قال يوسف وهل تظن يا سيدي ان خط الاستواء مارٌّ ههنا

قال فرعوس نعم يا خليلي الامين

قال يوسف فارحوك اذًا ان تأذن لي لكي اشرب على صحتهِ حالًا اذ اني ارى ذلك مناسبًا

فضحك العلامــة وقال افعل ما بدا لك واشرب كاس عرقٍ اذ شئت ولعمري ان لك فمًا جافًا بل لكنهُ لا يخلو من الفطنة والحكمة

وعلى هذا النسق كان احتفال مرورهم بخط نصف الكرة الارضيــة من اعلا مركبتهم الهوئية

ثم هبت الريح فاسرعت المركبة بالمسير فسارت ثلاثين ميلًا بالســاعة وشاهد المسافرون الساحل الغربي مختصًا قليل العوج وسهلات أوعدا وأروعا المرتفعة بعض الارتفاع

وشاهدوا مياه البحيرة الهائجة تعلو بعضها كامواج البحر واستنتج العلامة ان البحيرة عميقة جدًا من مشاهدتهِ بعض الامواج تترجرج مدةً بعد سكون الهواء فمرّوا بتلك البحيرة كلها ولم يبصروا فيها سوى قاربًا او قاربين

فقال العلامة : لا بدع ان هذه البحيرة المرتفعة المركز هي الحوض الطبيعي الذي منهُ تجري مياه الانهر التي في شرقي افريقية وما تحتدهُ السماء اليها من الابخرة تعشيهِ بالامطــار وعندي انهُ امر مؤكد ان منبع النيل من هذه البحــيرة

قال ديك . وهذا سنحققهُ ان شاء الله

وعند الساعة التاسعة اقترب المسافرون من الجهة العربية وكانت قمرة ومحشمة ثم هبت الريح نحو الشرق فدفعت المنصورة الى الساحل الثاني من البحيرة وكان منحنياً وفي آخره زاوية مكشوفة في درجة ٤٠ ' ٢° من العرض الشمالي وفي هذه الجهة الاخيرة جبال شامخة ذات رؤس قاحلة ويخترق هذه الجبال مضيق عميق ذو ثنيات عديدة يجري فيه نهر مزبد المياه

اما العلامة فكنت تراه محدقاً نظره بتلك المحلات مع اعتنائه بادارة المركبة وكان بادلاً جهده ان لا يفوته شيء مما وجد بتلك النواحي

ثم نادى رفيقيه وقال لهما لقد صدقت حكايات العرب المتداولة بينهم بقولهم عن نهر منه تتحول بحيرة اوكاروه الى الشمال لان هذا النهر موجود بالحقيقة وها نحن سائرون فوقه وماؤه تجري سريعاً وتحاكي سرعتها سرعة منصورتنا وكل نقطة مما نشاهده من هذه المياه الجارية تحت اقدمنا تسير الى ان تصب في البحر الابيض وما هي الا من مياه النيل

فصاح ديك قائلاً ها هو ذا النيل وقد شارك العلامة رفيقه بانتهاجه وتعجبه معا

اما يوسف فقال حيَّ الله النيل ومن عادة يوسف ان يحيي ايا كان وقت طربه وسروره

وقد قامت صخور وجلاميد بين ضفتي هذا النهر السري فاعاقت مسير مياهه ومما حقق العلامة في تحسباته مصادفته كثيراً من مجاري المياه السريعة والشلالات المحكي عنها

وشاهد سيولاً كثيرة لا يحصى عديدها نازلة من اعلاء تلك الجبال المحدقة بالنهر والساقطة فيه وفي الجهة العربية كانت تنحدر مياه السواقي وتسير جميعها وفي مسيرها تحتشد سوية وتتسابق في الوصول الى ذلك النهر الآحد

في التعاظم والتجسم شيئاً فشيئا

فقال العلامة لا شك في ان هذا هو النيل ولقد اشتطّ العلماء بالتفتيش عن اصل اسمه كما اشتطوا باستقراء منبعه فمنهم من اصّله من اللغة اليونانية ومنهم من اصّلهُ من القبطية ومنهم من اصّلهُ من الهندية القديمة (١) ولكن ما لنا الان ولاصل اللفظة اذ قد أوتينا مشاهدة منبع المياه

قال الصيـــاد : وكيف نؤكد ان هذا النهر ليس هو الّا ذاك الذي شاهدهُ المسافرون الذين اتوا من الجهة الشمالية واخبروا عنهُ

قال فرغوسن . اذا وافقنا الهواء سنجد حوله تعالى عما قريب براهين ثابتة مقنعة لا رادَّ لها

ثم افترقت الجبـــال بعضها عن بعض وقامت مقامها القرى والضيـــاع الكثيرة والحقول المزروعة سمسماً وذرة وقصب سكر ولما مرت المنطوره فوق سكانها هاجوا واضطربوا واظهروا الغضب والعدوان عوضاً عن ان يتأهبوا للعبادة اذ احسوا ان المسافرين اناس غرباء لا الهة وكأن من قصد عيون النيل حاول ان يسرق منهم كنزاً مكنوناً او جوهرة ثمينة فاضطرت المنطورة ان تمكث سامية الارتفاع لئلا يبلغ اليها رقيل العبيد ( والرقيل آلة يُرمى بها البندق )

قال ديك : لانستطيع ان نحط في هذه الاراضي بدون خطر

محاورة يوسف وقال انما هم الخاسرون لانهم يعدمون لذة محادثتنا

قال فرغوسن لا بد من النزول في هذا المكان ولو ربع ساعة والّا فلا يكفي ان اثبت نتائج رحلتي

قال ديك : وهل لا بد من ذلك

---

(١) وقد جمع احد العلماء النيرتين ارقام نيلوس على ما في اللغة اليونانية القديمة فبلغ عددها ٣٦٥ يوماً وهي عدد ايام السنة تماما

قال فرغوسن: لا بد منهُ ولو اضطرتنا الامور الى المحاربة والمناضلة

قال ديك هذا مما يسرني واحد في ملاطفة باروديه ويأهب لادخارها

قال يوسف نحن بين يديك مر بما تشاء واستعد هو ايضًا للمبارزة والقتال

قال فرغوسن. لا تكون هذه المرة الاولى التي استخدم فيها العلم قوة السلاح

لان دا الامر حرى في اسبانيا لعلامة فرنسي وهو يقيس ربع الدائرة الارضية

قال ديك طمّن روعك يا فرغسن وثق بمحافظين ماهرين

قال يوسف وهل وصلنا يا سيدي

قال فرغوسن كلا وينبغي لنا اولًا ان نرتفع الى العلاء لنشاهد رسم هذه الناحية حق المشاهدة

فامتد الإدروجن واذا بالمنصورة علت بعد عشر دقائق الفين وخمسمائة قدم فوق الارض ومن هناك نصروا شبكة انهر لا يحصى عديدها مختلطة بعضها ببعض تصب مياهها في النهر العظيم وغيرها ايضًا كانت تجري عرنًا بين الاكام الكثيرة المحيقة بها الحقول المخصبة

وفيما كان العلامة ينظر الى الرسم الجغرافي قال لسنا بعيدين عن غندوكورو تسعين ميلا بل لا بعد عن الحد الذي بلغه المسافرون الآتون من الشمال بخمسة اميال فلنقترب اذًا من الارض بتأنٍ واحتراز

فهبطت المنصورة نحو الفي قدم وبيف

وحينئذ قال العلامة يا رفيقيّ كونا على حذر فانا لا نعلم ماذا يطرأ علينا

قال ديك ويوسف: ها نحن على حذر

فسارت المنصورة متتبعة اثر النهر وهي تعلوهُ نحو مائة قدم وحسب تخمين العلامة بلغ عرض النهر في ذلك المكان مائة متر وشاهد المسافرون سكان تلك القرى الكائنة على ضفتيهِ في اضطراب وشغب وفي الدرجة

الثانية شلالة قائمة علوها عشرة اقدام ولا يمكن النزول بها

فقال العلامة هذي هي الشلالة التي دلّ عليها موسيو ديمو

وكان حوض النهر آخذا في الامتداد رويداً رويداً وبدا المسافرون يشاهدون جزائر كثيرة منتصبة في وسطه اما العلامة فما زال محدقا بها ومشدداً نظره اليها لكنه كان كالمحتار في امره اذ جعل يبحث عن مركز حتىّ ولم يكن يقع نظرهُ عليه

فتقدم بعض السودان في القارب الى ما تحت المركبة فقرأهم ديك سلاماً جميـلاً باطلاقهِ عليهم الرصاص فلم يصب احدا بل التى في قلوبهم الرعب والهلع ولذا هرولوا راكضين الى ضفة النهر

وودعهم يوسف وقال. بحفظ الله وامانه يا خلان ولو كنت مكانكم لما تجرأت قط على الرجوع الى هنا لكنت اخاف جداً من وحش جوي يرمي الصواعق من العلاء على من يشاء

وفيما هم على تلك الحال اذ امسك العلامة نظارتهُ على الفور ووجه نظرهُ الى جزيرة منتصبة وسط النهر

وقال هناك اربع اشجار

وفي الحقيقة كانت اشجار اربع مرتفعة في طرف تلك الجزيرة

ثم قال هذه جزيرة بنغا

قال ديك : وبعدهُ ماذا يكون

قال فرغوسن ان شاء المولى نزلنا هناك

قال يوسف ولكني ارى ان العبيد جالون عليها

قال ديك : ان كلام يوسف طبق واقعة الحال فاني اعاين نحو عشرين رجلاً مجتمعين في هذه الجزيرة

قال فرعوس . وهل يعيقنا هؤلاء عن انقاذ فرعونا فاننا نبدد شملهم

قال ديك . اذا حسن ذلك لديك فانا في يدك

وعند ما اقتربت المنصورة من الجزيرة كانت الشمس قد وصلت الى السمت وناهزت الغروب

اما العبيد الذين هم من قبيلة مكادو فاذ شاهدوا القبة الهوائية صخوا في الصراخ ورفع واحد منهم قلنسوته عن رأسه وحمل يهزها في الهواء فاتخذها ديك هدفًا له ورماها برصاصة فسقطت من يده متفرقعة ودهشت شذر مذر وولت الشجاعة عن قلوب العبيد مدبرة وخافوا من تلك اللطمة الخوية خوفًا عظيمًا وللحال اسرعوا جميعًا بالنزول الى النهر وخاروا بالسباحة ومن هناك اخذوا يضربون القبة بالمخانق والخلاهق والاسنة لكنها لم تصبها قط ضربة واحدة ثم تعلقت مرساة المنصورة بشق صخر ونزل يوسف الى الارض في الساعة والحال

فقال له العلامة انصب لنا السلم وانت يا ديك تعالَ معي

قال ديك والى اين ولِمَ

قال هلمَّ بي نذهب سويةً لانهُ يعوزني شاهد

قال ديك . هانذا بين يديك

قال فرعوس وانت يا يوسف كن امينًا في حراستك

قال يوسف . كن مرتاح البال من هذا القبيل فاني مسئول بالجميع

ثم ذهب العلامة برفيقهِ الى مجموع صخور متصلة عند رأس الجزيرة وهناك جدَّ في الفحص والتفتيش واخذ ينبش في الاحجار حتى تخضبت يداهُ بالدم ثم مسك بجاذة بيد رفيقهِ وقال له انظر الى هنا

قال . ارى حروفًا

وفي الحقيقة كان حرفان منقورين في الصخر وظاهرين للعيان بجلاء وبيان

وهما A D اي ا . د .

قال فرعوس · اعلم يا رفيقي وفقك الله ان ا د. هما اول حرفي اسم اندريا ديسو وهو من سبق جميع الذين قصدوا اكتشاف عيون النيل في التقدم الى هذا المكان

قال ديك ان ذا امرٌ لا ردَّ عليهِ

قال العلامة وهل عندك اشكال في الامر الان

قال · انا هذا النيل ولا ريب فيه

ثم نظر فرعوس الى هذين الحرفين الثمينين نظرةً اخيرة واخذ رسمها بدقة تامة

وبعد ذلك قال الى رفيقه · هلمَّ بنا لنعود الى قبتنا

قال ديك فلنسرع لان بعض العبيد يتأهبون لعبر النهر والاتيان الى هذا المقر

قال العلامة . لا يهمنا الان شيء . اذا دامت الريح رهة دفعتنا ذات الشمال حتى نصل الى غندوكورو ونعاين ابناء الاوطان

وما مضت عشر دقائق الا حلقت المنطادة تصعدها الى الاعالي ثم نشر فرعوس الراية الانكليزية في تلك النطاح دلالةً على فوزه بالنجاح

## الفصل السابع عشر

في الحبل المرتجف واقوام نيام نيام وما كان من احاديث العرب عن تلك البلاد

فاذ شاهد ديك رفيقة العلامة ناظرًا الى البوصلة سأله قائلاً وما هو اتجاهه

قال العلامة انا نسير الى جهة شمال الشمالي العربي

قال ديك. ويلاه ان هذه الجهة ليست الشمالية

قال العلامة كلاَّ واظن انهُ يعسر علينا جدا الوصول الى عسكورو وذلك مما يكدرني . غير انه على كل الاحوال فانا قد وصلنا حيث اكتشافات الجهة الشرقية بالشمالية فعليهِ لايليق بنا الاسف

وحدت المقصورة تبتعد رويدا رويدًا من اسيال

ولاحت من العلامة التفاتة الى تلك درجة العرض التي امتنع على اعظم السواح قطعها وقال . هاك تلك القبائل العاصية التي عبّ عنها تاريك ودارنو وميالي فلا شك انهم الذين تركوا لنا احسن الفوائد المتعلقة بالنيل الاعلى

قال ديك والحالة هذه قد ايَّدت اكتشافاتنا سابق تخمينات العلماء

قال فرغوسن اي نعم قد ايدتها كثيرًا فان ينابيع النهر الابيض مغمورة في بحيرة عظيمة كالبحر وكثيرًا ما نظمت الاشعار بشانه محاولات ان تأصلهُ من ينبوع سماوي وقد دعاه القدماء باسم اوقيانوس وقرب الى ظنهم انهُ جار من الشمس خطًّا مستقيم . ولا شك ان مثل هذه التخيلات الشعرية تحسر شيئًا من رونقها فعلينا ان نستقي من مياه الفوائد التي يأتينا بها العلم فسد ما رواهُ

عريًا عن الصحة وتستمسك بما فيه صحة الرأي

قال يوسف وهناك شلالات ايضا

قال فرغوسن - انما هي شلالات مكدو في ثلاث درجات عرضا ولا شيء ادق من ذلك وانني لو كنا تمكنا من الرحيل فوق خط النيل

قال الصياد وكأني ارى عن بعد رأس جبل

قال فرغوسن - هذا جبل لكويك المعروف عند العرب بالجبل المرتجف وقد طاف اندريا دبونو حول هذه البلاد وهو متجمل لقصه اسم لطيف افندي اما الاقوام الساكنون بالقرب من النيل فهم اعداء بعضهم لبعض ولا ينفكون من القتال والمصارعة وعليه فلا بدَّ من ان يكون دبونو المذكور قد عانى من المشقات والمصاعب والمحذورات معظمها

وقد حملت الريح على اجنحتها منطرة المسافرين الى جهة الشمالية الغربية بحد العلامة في ان يجد طبقة هواء منحرفة عن الاتجاه الى جبل لكويك لتتنحى عنه

فقال العلامة - خليليَّ مُذ هذه الساعة تبدا رحلتنا الافريقية لانا فيما سبق لم نتبع الآثار من سلفنا وها حين الان نرمي بانفسنا في بحر هذه المفاوز المجهولة فما قولا لي هل تخمد همتكما ويبرد نشاطكما

فصاح الرفيقان بصوت واحد وقائلين كلا ثم كلا

فقال فرغوسن هيا بنا هيا يا خليليَّ ولنسير بحفظ المولى

ولما دخلت الساعة العاشرة وقد مرَّ اذ ذاك المسافرون فوق وهداتٍ واحراش وقرى متفرقة وصلوا اخيرًا الى جانب الجبل المرتجف فتأتوه ومضوا بغير عاقة

وفي ذلك النهار المحلد الذكر اي في ٢٣ نيسان مرُّوا برهة خمس عشرة

ساعة مسافة ثلاثمائة وخمسة عشر ميلًا جغرافيًا وذلك بقوة ريحٍ شديدة

ولكنك كنت تراهم في هذه المدة الاخيرة ملتحفين لشعار كآبةٍ لا سبب ظاهرٌ لهـا وقد ملك السكوت المطلق في افئدتهم فهل يا ترى كان فرغوس غارقًا في بحر التأملات من جرى اكتشافاته ام كان رفيقاه حاملين على عاتقهما عبء الاهتمام بالرحلة العتيدة وسط البلاد القفرة والمفاوز الشاسعة وهم اذ ذاك لا يعرفون لهـا بدءًا ولا نهاية فلا شك في ان جميع هذه الامور تخللت افكار المسافرين وقد خالجها التذكر بالاوطان والخلان

اما يوسف فما لاحت على محياه الّا لوائح عدم الاكتراث لشيء. واذا خطرت له على بال ذكرى الاوطان قد قال لم تعن عني الاوطان بل انا غنت عنها وهذه علة غربتي ومع ذلك قد نظر الى سكوت رفيقيه بعين الحرمة والاعتبار

فعند الساعة العاشرة مساء القت المركبة مرساتها في جوار الجبل المرتجف وتناولوا العشاء هنيئًا ثم رقدوا لحراسة كل منهم

وفي الغد طرقت اذهانهم الافكار الصافية وكان الجو رائقًا والريح تتلاعب في تلك الآفاق ومنها من الجهة الموافقة فقام يوسف وقدم لرفيقيه فطورًا لذيذًا فانتعشت منهم الاكباد وتحولت اخلاقهم من دار العبوس الى دار الايناس

واما البلاد التي جابوها في ذلك اليوم فهي شاسعة جدًا وتخومها من جبال القمر الى جبال دروير وتلك المسافة تكاد تبلغ مسافة اوربا من اولها الى آخرها

فقال العلامة انا مازون الآن بالبلاد التي زُعم عنها انها مملكة أُوروغا وارتأى بعض اهل الجغرافية ان بحيرة عظيمة ممتدة في اواسطها فسنعلم ان كان

في هذا الامر بعض ظواهر الحقيقة

قال ديك وكيف امكن اقتراض ذلك الرأي

قال فرغوس . انهم اقترضوهُ من حكايات العرب الذين يكثرون من الاخبار والاحاديث فان بعض المسافرين عند وصولهم الى كاره او الى البحيرات العظيمة تلاقوا بعبيدٍ من الاقاليم المتوسطة فاستعلموا منهم عن بلادهم ثم شحنوا رزمة اوراق تلك الاخبار واستنتجوا منها أقيسة ودهبوا فيها مذاهب شتى وهي في جوهرها لا تخلو من بعض الصحة والحقيقة وقد رأيت الآن ان حكاياتهم عن منبع النيل وقعت موقع الحقيقة وان لم تؤخذ قولا على محمل الصدق

قال ديك : في الحق تكلمت

فاستتلى فرغوس كلامهُ وقال : انهُ بواسطة هذه الاوراق والاخبار سُطرت الرسوم الجغرافية ولهذا سأسير في طريقي طبقًا لهذه الرسوم واصححها اذا مست الحاجة

قال يوسف : يا مولاي وهل هذه البلاد مسكونة بالاهالي

قال العلامة لا ريب في انها مسكونة ولكن بئس السكنى وجميع هؤلاء الاقوام يُعرَفون باقوام نيام نيام وما وُضع هذا الاسم الّا مماثلة للمضغ والعلك

قال يوسف : بالتمام والكمال نيام نيام نيام نيام فكأني سامعٌ

قال العلامة . لوكنت سندًا لهذا اللقب لما طابت لديك

قال يوسف : فسر لي كلامك يا سيدي

قال فرغوس : اعلم ان هؤلاء الاقوام معدودون اعوالًا يأكلون لحم بني آدم

قال يوسف . وهل دا امر لا يشوبهُ ريب

قال العلامة ولا ريب فيهِ ومن الناس من قال عنهم ان لهم اذناب كالدواب والبهائم ولكن تحقق عندهم فيما بعد ان هذه الاذناب خاصة بجلود بعض الحيوانات التي كانوا يتردون بها

قال يوسف: وما احلى من الذنب فانهُ يصلح لطرد الناموس والبعوض

قال فرغوس: ربما يصلح لذلك ولكن ينبغي ان ندخل هذه الحكايات في طي الخرافات معاينة احد السواح من رؤوس الكلاب الى بعض الاقوام الافريقيين

قال يوسف: ولا احلى من رؤوس الكلاب ايضاً لانها تصلح للعواء حتى وتنفع لأكل بني البشر

قال فرغوس . ان الامر المثبوتة صحتهُ والموجب كل اسف انما هو ان هؤلاء الاقوام متولعون جداً في تلقف بشرة الانسان وطالبونها بعزام عظيم

قال يوسف: اودّ ان لا يعزموا في جسدي

قال الصياد وهذا حسبك يا يوسف

قال يوسف : اذا طرأ علينا يوم قحط وجوع ومست الحاجة الى ان أؤكل فارغب في ان تتمتع بي انت وسيدي ولكن اذا وقعت في ايدي هؤلاء البرابرة وقضي عليَّ بان اكون لهم غذاء لا بد من ان اموت حرباً وكمداً

قال الصياد . حياك الله يا يوسف فقد تم الاتفاق بيننا وعولنا على ان نعتمد عليك وقت الحاجة

قال يوسف: سادتي انا بالخدامة

قال العلامة : انهُ يتعوّد بهذا الكلام لنعتني بهِ ونقيته قوتاً جيداً فيسمن ويحم

قال يوسف ان دا رأيٌ محتمل استوحد عليهِ حب الدات المفرط لان الانسان حيوانٌ

ولما كان بعد الظهر تطلّت السماء بضباب سحيق يتصاعد من الارض ويمنع المسافرين عن تمييز الاشياء في طريقهم قد عوّل العلامة على ان يرمي المرساة الساعة الخامسة خشية من ان تصدم المركبة رأس صخرة وهم لا يشعرون بذلك

فقضوا ليلتهم حيثما كانوا ولم يطرأ عليهم طارق غير ان مثل ذلك الظلام اوجب عليهم مضاعفة السهر والاحتراز

وعند الصباح قد هبت الريح بشدةٍ وصار الهواء يدخل متعمقاً في اسفل القبة ويحرك الآلة التي كانت تدخل فيها الانبيب امتداد العار فمنعوا اضطرابها بحبال شُدَّت بها وقد تمم يوسف هذا الامر باحكام وحطة

وتفحّص يوسف في فوهة القبة الهوائية وحقق انها مسدودة سدّاً محكماً

فقال العلامة لنا فائدة من جهتين بسدادة الفوهة فمن الجهة الاولى لا يتلف العار الثمين ومن الجهة الثانية لا نترك وراءنا دنباً قابل الاشتعال لانهُ يخشى عليهِ اخيرًا ان يلتهب ويحرق القبة

قال يوسف. ولا اردأ من هذا حادث السوء في رحلتنا

قال ديك. وهل اذا لا سمح الله نُلينا بهِ تهوَّرنا الى الارض بسرعة

قال العلامة. كلاَّ فلا نتهوَّر بسرعةٍ بل يأخذ العار في الاشتعال رويداً رويداً وننزل قليلاً فقليلاً وهذا ما جرى للسيدة الفرنسية بلنشار وهي راكبة مركبة هوائية فقد اشتعلت قبتها وهي ترمي بالاسهام النارية من مركبتها لكنها لم تسقط حالاً ولو لم تصدم في نزولها مدخنة قلبت قاربها لما كان اصابها ما اصابها من السوء

قال الصياد : اولى ان لا ينوبنا مثل هذا العارض المشئوم لاني الى الآن لم ارَ خطرًا في رحلتنا ولا ارى سدًا يصدنا عن الوصول الى اربنا

قال العلامة : ولا انا ايضًا واعلم يا صاح ان العوارض التي طرأَت على راكبي المركبات كانت دائمًا مسببة عن قلة فطنتهم او عن قصور بدا منهم في بنا القبة والآلتها ومع هذا كلهِ فلم نسمع عن حوادث سببت الموت لراكبي المركبات الَّا ما قلَّ ويكاد يبلغ الواحد في الالف ولكن في العموم ليست الاخطار الّا في الارتفاع فوق الارض والنزول اليها ولذلك ينبغي لنا ان نكون على حرص وحذر وان لا يبدو منا قصورٌ وتوانٍ في الاعتناء الكامل

قال يوسف هذا وقت الغداء يا سادتي فسنكتفي حاليًا في ان نتناول لحمًا قديدًا وبعدهُ نشرب القهوة الى ان يتمكن ديك من ان يصطاد لنا بعض الوحوش ذات اللحوم اللذيذة

---

## الفصل الثامن عشر

في الابة السماوية والانحدار لسامية الارتفاع والمدمحة التنيمه
التي تخللتها الوسائط الالهة

ثم اشتدت الريح وهبت من جهاتٍ مختلفة ولم يُعرَف لها اتجـاه ولما كانت المصورة تثب وثبات شديدة مديدة تارة نحو الشمال وطوراً نحو الجنوب ولم يستطع فرغوسن ان يصادف مهبّاً ثابتاً

فلما نظر ديك الى الابرة المغـناطيسية ورآها تضطرب وتتذبذب كثيراً قال: اننا نسير بسرعة هائلة لكننا نتقدم قليلا الى ما قدام

فقال العلامة ان المصورة تسير اقلهُ مسافة ثلاثين ميلًا في السـاعة وعليك يا ديك ان تميل بعينك الى اسفل فترى كيف تتوارى الحقول عن انظارك وانظر الى هذا الغاب ايضاً فكانهُ مسرعٌ الى ملاقاتنا

قال الصياد اما ترى ان الفدفد قد قام مقام الغاب فما مضت برهة الّا تكلم يوسف وقال هاك القرية قد قامت مقام الفدفد فتأملا في السودان كيف ان الدهشة استولت على محياهم يا ما اللدهم

قال العلامة: ومن الامور الطبيعية ان تستولي عليهم البهتة والدهشـة فان الفلاحين الفرنسيين عند مشاهدتهم القباب الطيارة في المرة الاولى ظنوا انها وحوش جوية فاطلقوا عليها الرصاص ولهذا لا عجب اذا حدقت السودان انظارهم متفرجين على قبتنا

وكانت المصورة مارة فوق قريةٍ وهي لا تعلوها اكثر من مائة قدم

فقال يوسف طرق ذهني ان التي لهؤلاء الانام المفرحين ابية فارعة ان أدت لي يا سيدي فاذا وصلت الى الارض سالمة من كل عائلة عدوها كالهة واذا تحطمت كسرًا اتحدوا تلك الكسر كطلمات سحرية

فما فاه بهذا الكلام الّا ورمى بالانية فتكسرت ارابًا اما السردان اضطربوا وصحوا في الصراخ ثم طفقوا يأوون الى كهوفهم خوفًا من العوايل الجوية

وبعد ان ساروا برهةً قال ديك ها هو شجرة غريبة الشكل لانها من جنس في اعلاها وجنس آخر في اسفلها

قال يوسف . ويحك يا ديك ان الاشجار في هذه البلاد تنبت بعضها فوق بعض

قال العلامة . انما حقيقة الامر هو ان جرع شجرة تين عليه تراب سافي فهبت الريح يومًا ودفعت بزرة نخل على ذلك التراب فنمت النخلة كما ترى رعت في حقلة

قال يوسف . لعمري انها لصناعة جميلة ساهتم بحوله تعالى في ان اجريها بحدائق لندرة ان ذلك مما يطرب الخاطر ويبهج الناظر وهي وسيلة طريفة لتكثير الاشجار ذات الاثمار لارقاء الحدائق الى الجو ولا بدّ من ان يسرّ بهذه الصنيعة اصحاب العقارات والاملاك الصغيرة

ثم اضطرت المصورة الى ان تعلو الارض كثيرا لتمرّ فوق اشجار باسقة يبلغ علوها نحو ثلاثمائة قدم ونيف وهي من جنس النان الطويل العمر

قال ديك . وما احلى هذه الاشجار وما اجملها لعمري لم ارَ في حياتي مشهدًا بهيًا كمشهد هذا الحرش ذي الاشجار القديمة الايام وارجوك يا فرغوس ان تتمهل فيه قليلًا

قال مرعوس . في الحقيقة ان اشجار هذا الغاب من اعجب العجاب ولكن الاعجب من ذلك هو انه في البلاد الاميركانية توجد اشجار اشمخ وانسق منها

قال ديك : واعجباه وهل من شجر اسمى علواً وارتفاعاً من هذه

قال العلامة : لا شك في ذلك وتلك الاشجار ندعوها باسم مموث تريس اي اشجار مموث فقد وجد في بلاد كاليفرنيا ارزة بلغ علوها اربعمائة وخمسون قدماً وهذا العلو يفوق برج لندرة (وهو من الابراج المشهورة في العلو) حتى واعظم اهرام مصر واما قاعدتها فبلغت دائرتها مائة وعشرين قدماً وقد أستدل من الطبقات الظاهرة فيها ان عمرها يفوف الاربعة الاف سنة

قال يوسف . والحالة هذه فلا عجب في علوها وشموخها لان من عاش كثيرا طال كثيراً والشجرة التي عاشت مدة اربعة الاف سنة فمن الضرورة ان يوافق علوها طول عمرها

ولكن ما تمت حكاية العلامة وجواب يوسف الّا توارى الغاب عن انظارهم ووصلوا فوق اكواخ مبنية حول ساحة مستديرة ووسط تلك الساحة شجرة وحيدة فلما نظر يوسف اليها قال ويلاه اذا كانت هذه الشجرة تأتي عثل تلك الاثمار مدة اربعة الاف سنة فلا احييها بالسلام ولا اسرّ رؤيتها

قال هذا واومى الى جميرةٍ سامية العلو وقد عطي جرعها بكومة من عظام بني آدم وقد اعنى يوسف بالاثمار عن رؤوس مقطوعة حديثاً كانت معلقةً على جاح مشكوكة في قشرة الشجرة

قال العلامة . يا لها من حرب شنيعة تشبه حرب النموس فان الهنود في مثل هذه الحروب يسلخون رأس الاسير الذي يقع تحت غائلة القتل واما الافريقيون فيقطعون راسهُ تماماً

قال يوسف : فان لكل فريق عادة

فما مضى برهة الّا تركوا وراءهم تلك القرية ذات الرؤوس المخضبة بالدماء
غير انهم وصلوا الى قرية اخرى شاهدوا فيها منظراً يفتت الاكباد ويرقها
تحسراً وتأسفاً اذ نظروا بعض القتلى المأكولة الى نصفها وعظاماً
مجردة عن اللحم واعضاء اجسام بشرية مبعثرة هنا وهناك وتحدث رائحتها
الضباع وابناء آوي ليتلقفوا منها ما بقي من اللحوم

قال العلامة لا ريب في ان هذه اجسام المحرومين وفي بلاد الحاشة ايضاً
يُعاقب الاثمة بعقاب ليس اقلّ شناعة ورداءة اذ يلقونهم عرضة للوحوش
الكاسرة فبعد ان خنقتهم هذه نهشة من نهشاتها المميتة تأخذ في ان
تتنطقهم على خاطرها وهواها

قال الصياد ليس هذا العقاب امرّ من المشنقة بل انما هو اشنع واقبح
كثيرا

قال العلامة ان عقاب المذنبين في بلاد افريقية الجنوبية هو انهم
يُجعلون في اكواخهم مع ماشيتهم واحياناً مع عائلتهم ثم تُضرم فيها النيران
فيحترق الجميع معاً وانا اسمي هذا العقاب توحشاً لكني اقرُّ معترفاً مع صاحبي
ذلك ان المشنقة عقاب بربري ايضاً وان كان اقل قساوة وشناعة من ذاك

اما يوسف فتوضح الجو فلمح بصره بعض شردمات من الطيور الكاسرة
تحوم في الافق

فنظر اليها ذلك بالمنظرة وقال انما هي نسور حمية وسرعة طيرانها تضاهي
سرعة مسيرنا الجوي

قال العلامة وقانا الله من صدمة تصدم بها هذه الطيور قنتنا فاني
اخشاها اكثر من الوحوش الضاريات والاقوام المتوحشين

قال ديك وانما هده المحافة ألا تعلم اننا سدد شملها بالرصاص

قال العلامة احتُ عليّ ان لا احتاج الى حدقك هده الدفعة لان قماش قبتنا ليست من حديد ليقاوم نقرة من نقار منقارها عير اني اراها قد احتشت قتنا ولم تحدبها الينا عوانة مقصورتنا

قال يوسف ولكن طرق دهي فكرٌ يا خليليَ ان الافكار تداهمني اليوم بالعشرات والمئات وهو لو امكنا ان نلتقط زمرةً من النسور الحية ونربطها بمركبتنا لقد جرتنا في الجوّ على اجمل منوال

قال العلامة وقد عُرضت هذه الطريقة بحذّ انما الدي يمنع نفود الامر هو الخانق الخموح المفطرة عليه تلك الطيور

قال يوسف . وهلاَّ يمكن ترويضها وتهذيبها وعوضاً عن اللجام تُجعل عصابة على عيونها فادا تُحت عين اليمين سارت النسور ذات شمال والعكس بالعكس وادا حجبت العينان وقفت بغتةً الطيور

قال العلامــة : أذن لي يا حبيبي ان أُفصل ربحاً موافقــة على نسورك المقطورة لان الريح لا تأكل طيرها وترى لي ايمن

قال يوسف . الادن معك يا سيدي لكني ما رات صائطاً ما رأيتــهُ من الرأي

قال العلامة لا بأس في دلك

وكان الطهر والمصورة احدث في سيرالهوينا في تلك البطاح وعلى الفور طرق آدان المسافرين صحيح وعريز وصفير فتطلعوا من مركبتهم الى اسفل وادا ترأى لاعينهم ما حملهم على التأسف والكدر ومحع الفتدتهم غمًا وكرنًا وهو مشهد قبيلتين متهوشتين في معمعة القتال يبارز بعضهم بعضاً ويقتل بعضهم بعاندةٍ وضغنٍ شديد وبينما هم يقاتلون ويتناحون مساحة الكلاب اذا مرت

المصورة وقيهم ولم يشاهدوها وكانوا نحو ثلاثمائة نفر محتبكين في حومة المعركة وكثيرون منهم خائضون في دماء قتلاهم ومطرهم مما تمجه الاعين وتأنف منهُ القلوب

فبعد ما نصروا بالقبة الطيارة وقفوا لحظةً وارددوا صحيحًا وعاقًا وحملوا يرمونها بالسهام فوصلت منها واحدة بالقرب منها وتمكن يوسف من امساكها بيده

فقال حينئذٍ وعوس فلنرتفع الى الاعالي لئلا يصيبنا سهمٌ ولا يكونَ قليلي الفطنـة فانهُ لا يجوز لنا ان نستقر في هذه الدرجة فاخذت المصورة بالارتفـاع وما زال الدمح والنزال جاريين على قدم وساق فسدت السـال وتكسرت النصـال وتحطمت السمر الطوال واحمرّ بساط الارض من هدر الدماء في ذلك القتال وكلما تحدل عدوٌّ الى الحضيض قتلهُ خصمهُ بضربةٍ فقطع رأسهُ للحال وقد تداحات النساء في تلك المعمعة الهائلة فكنَّ يتسابقنَ على جمع الرؤوس السائحة في الدماء المتحجرة ويذهبنَ بها الى آخر ساحة القتـال وكثيرًا ما تصارعنَ للحظوى بتلك غنائم الظفر الكريهة المنظر

فقال ديك وقد شقَّ قلبهُ سهام الكدر والنفور مما شاهده في تلك الملحمة الهائلة ويلاهُ ما قبح هذا المشهد وما اسواهُ

قال يوسف ان المتحاربين اناس دون صورة قبيحة ولكن لو لبسوا الثياب العسكرية لكانوا كسائر الجنود في الحروب المدنية

فقال ديك ارغب جدًّا في ان اتوسط بين هؤلاء المتحـاربين في هذه المعركة الهائلة

قال هذا ومسك سلاحهُ متأهبًا لاطلاق الرصاص

قال العلامة حذارِ حذارِ من هذا الصنيع فانهُ لا يأتينا الّا بالاذية والضرر

فلهتم مما يعنينا وقل لي ايضاً هل تعرف مَن من الطائفتين هي المذنبة لتتوسط بينهما وتستنصر لاحداهنَّ . فالخليق ما ان نمرَّ من هذا المنظر الشنع الذي تمعر منهُ القلوب فلو اشرف رؤساء الجنود في الحروب على ساحات الحرب وتأملوا ما يجري فيها من سفك الدماء لذهب ذلك المشهد برغبتهم في المحاربة وحب الفتوحات

وكان احد رؤساء الطائفتين يمتاز بطول القامة وعرض الجسم فانهُ كان يخترق صفوف العدو ويضرب بالفأس ويشك الرمح ثم التي لحظةً رمحهُ بعيداً عنهُ وكان معمساً في الدم ورمى بنفسهِ على احد الجرحى ثم جدم ذراعهُ بضربةٍ واحدة من الفأس وامسكهُ بيده رافعاً اياه الى فمهِ وجعل يعضهُ بتواتر

قال ديك - ويلاهُ ما هذا الوحش المفترس لقد عيل اصطباري

قال هذا واطلق عليهِ رصاصة فاصابتــهُ في جبهتهِ وصرعتهُ الى الارض مستلقياً على ظهرهِ فعند سقوطهِ استولت الدهشة والرعب على قلوب اتباعهِ وارتاعوا من موت رئيسهم العجيب وهاجت منهم الاوكار اما احصامهم فازدادوا شجاعةً وحماسةً وعليهِ قد فرَّ بعض المحاربين من حومة القتال

فقال العلامة - هلموا بنا نرتقي الى طبقــةٍ اعلى لنجد ريحاً تدفعنا الى مكان بعيد عن مشهد هؤلاء البرابرة لانهُ قد ضاق في قلبي حاسة الغم والكدر ولا عدت اطيق النظر اليهِ

وبعد ان رحلوا برهةً شاهدوا عن بعد الطائفة المستظهرة قد انقضت على القتلى والجرحى انقضاض الجوارح وجعلت تتسارع على لحومهم السخنة لتأكــلها بشراهةٍ وحرص

فقال يوسف أُفٍّ أُفٍّ ان ذا لموجب الاستكراه الفرار الفرار

واما المنصورة فشرعت في الارتفــاع والامتداد وتبعهم قوم من اولئك

الدائرة المسوح وهم يصيحون في الصراخ والعويل ولكن لما دفعتها الريح الى الجنوب توارت عن المذبحة الهائلة ومآكلة اللحم البشري

وكانت الارض في تلك المحلات مختلفة الهيئة والمطر وتخططها مجاري المياه الكثيرة السائلة الى الجهة الشرقية ولا بدَّ انها تسكب مياهها في مصاب البحيرة نو وفي نهر الغزلان الذي اتى عنه المسافر لجان بفوائد غريبة الاشكال والالوان ولما امسى المساء القت المنصورة مرساتها في درجة °٢٧ طولًا و°٢٠ ٤ عرضًا شماليًا بعد ان قطعت مسافة ١٥٠ ميلًا

# الفصل التاسع عشر

## في الغارة الليلية والصوت الصارخ اليَّ اليَّ و دلف الاجتهاد في نجاة المرسل

وكان ظلام الليل حالكاً لم يسمح للعلامة وعوسى ان يتبين تلك البلاد ويعرف مركزهُ والما كان متعلقا بركبته فوق شجرة عالية فما كاد تمكن من روق اوراقها المتكاثفة في ذلك الظلام الدامس

وقد توكل لحراسة عدة الثلاث ساعات التي يليها نصف الليل فقام ديك ليحرس مكانهُ محرصهُ وعوسى على ان لا يعمل في حراسته عن مراقبة ما يمكن ان يطرأ عليهم من الحوادث وقال . حال لي اني سمعت تغمغماً ولغطاً تحتنا ولا ادري ما هو

قال ديك . لربما سمعت اصوات بعض الوحوش الكاسرة

قال العلامة كلاًّ واني اتحدثهُ شيئاً آخر وعلى كل حال عليك ان تيقظنا عند ما يروعك ادنى شيء

قال ديك . لا بد من ذلك

وبعد ان امال العلامة باديه الى اسفل ولم يسمع شيئاً ارتمى على فراشهِ وتدثر بالحاف ونام

وكانت السماء مظللة بغيوم كثيفة ولكن الريح في استكانةٍ وهدوء ولم تتذبذب قط المصورة وان تكن معلقة برساة واحدة

فلبث ديك مناظراً قصبة القنة وكان ساندًا ذراعهُ على المركبة ويتأمل احياناً بما حولهُ من السكوت العميق وينظر تارةً الى الافق كي يستفحص عن

امر وهو في اضطراب وقلق وحسب انهُ يشاهد ضياء مبهماً

وفي لحظـــةٍ ظنَّ انهُ شاهد جليًا ضياء ساطعًا عن بعد نحو مائتي قدم لكنهُ كان كالبرق السريع اذ توارى عن بصره ولم يبقَ لهُ اثر

فلم يكن ذلك الضياء الَّا كتلك الاحساسات المضينة التي تتراءى لاعين المتأملين في ظلمات الليل المحتلكة

فسكن روع ديك وذهب اضطرابهُ وجعل يتأمل في الفضـــاء واذا بصفير حادّ دوى في جوّ تلك الافاق

فسأل ديك في نفســـهِ قائلا . هل هذا هو صوت حيوان ام طير الليل او هل هو صراخ ابن آدم

وكاد ديك يبقظ رفيقيهِ لخشيتهِ من خطب يلمُّ بهِ وهو على تلك الحال لكنهُ قال في نفسهِ : ان كان هؤلاء رجالا او وحوشًا فهم غير قادرين على الوصول الى قتنا ثم نظر الى سلاحهِ واخذ مطرة الليل وجعل يحدق بصرهُ في الفضاء

فخيل لهُ انهُ رأى تحت القمة خيالاتٍ تتسلق على الشجرة ثم ارسل بدر الليل شعاعًا ضعيفًا من بين سحابتين فتمكن ديك من مشاهدة بعض اشخاص متحركين ومائجين في الظلام

فطرق حينئذٍ دهمهُ تلك السعادين اللآتي صارعهـــا العلامة وهو اذ ذاك مقيم وحدهُ في المركبة ولساعتهِ وضع يدهُ على كتف العلامة

فاستيقظ وعوس للحال وقبل ان يستفهم من رفيقهِ عن واقعة الحال قال لهُ ديك صَهْ يا وعوس ولاتتكلم الَّا بصوتٍ منخفض

قال العلامة : وهل من حادث طرأ

قال . نعم فليستيقظ يوسف

فلما استفاق يوسف من الرقاد اخذ الصياد في التحبير عما تراءى لهُ

فقال يوسف قبح الله السعادين فانها تودُّ ان تقلقنا

قال العلامة وعلينا باخذ الاحتياط اللازم

قال ديك اني انزل مع يوسف الى الشجرة بالسلم لنمسك المرساة

قال العلامة . اما انا في غضون ذلك ساعدّ الآلة لتتمكن من الصعود الى العلاء بسرعة وخفة

فقال يوسف . هلمَّ يا ديك ننزل

فقال لهما العلامة . اياكما ان تستعملا السلاح اذا لم تحوجكما الى ذلك الضرورة القصوى لان لا فائدة لنا ان يدري بنا احدٌ في هذه النواحي

فاومى ديك ويوسف الى العلامة بالاشارة جوابًا عن سؤالهِ ثم نزلا الى الشجرة وارتكزا على اغصان كثيرة كانت المرساة متعلقة باحداهنَّ

ثم وقفا لحظةً ناصتين فسمع يوسف حكًّا في قشر الشجرة فمسك بيد رفيقهِ وقال . انصت باذنيك واسمع

قال : اني سامع واخال الصوت يقرب منا

قال يوسف : عسى ان يكون ما سمعتهُ صفير حية

قال . كلاَّ لانهُ كان يشبه صوتًا بشريًا

قال يوسف : احبُّ عليَّ ان يكونوا اقوامًا زائرة من ان تكون افاعي مسمة فاني لا اطيقها

ثم مضت برهةٌ وقال ديك . ان الضجة تزداد رويدًا رويدًا

قال يوسف : نعم فان الآتي الينا يتسلق ويصعد

قال ديك : انت قم في حراسة هذه الجهة وانا اتوكل حراسة الاخرى

وكانا كلاهمـــا منفردين على ذروة غصن كبير نابت تحتَ مستتيم في وسط تلك شجرة النوَّاب التي تضاهي حرشًا بكبرها واتساعها

فزاد كثيف الاوراق ظلاماً على كثيف الظلام ولكن قد دنا يوسف من
رفيقه واومى اليه ان ينظر الى ناحية الشجرة السفلى وقال : انهم عبيد سود
ثم سمع الرفيقان كلاماً تداولته العبيد من اسفل
ورفع يوسف سلاحه مستعدا لايراث النار
فقال له ديك : مهلًا رويداً يا يوسف
وفي الحقيقة كان بعض العبيد السود قد تسلقوا الشجرة وهم هائجون
ومائجون وكانوا يتسربون على الاغصان كالافاعي وقد تحقق دوهم مما اباحهُ
اجسادهم من الروائح الكريهة لكونها ممروحة بالشحم المتن
ثم تراءى لانظار ديك ويوسف راسان وذلك بمساواة الغصن المقيمان
هما عليه
فقال ديك هيا يا يوسف اطلق النار
واطلق الرصاص معاً وسمع لطلقتهما دويٌّ اشبه بقصيف الرعد ثم خمد
الدوي ما بين اصوات الاكتئاب وعن مرور دقيقة من الزمن غابت تلك
الشرذمة السوداء
واما الذي ألقى اصحابنا الثلاثة في بحر القلق والحيرة هو انهم سمعوا صوتاً
تخلل ذلك الصخيج ولم يكن يخطر لبالهم انهم يسمعونهُ وطنوهُ مستحيلًا وهو
صوت بشري نطق الكلمات الآتية باللغة الاوربسية بوضوح وجلاء . وهي :
A moi ! A moi ! اليَّ اليَّ
فاندهل ديك ويوسف عن هذا الصوت العجيب وعادا مسرعين الى
المركبة
قال لهما العلامة أسمعتما
قال ديك : سمعنا الصوت العجيب الصارخ اليَّ اليَّ

قال العلامة. عساهُ صوت رجل ورنسي رماهُ التعس في ايدي هؤلاء البرابرة

قال ديك. ربما هو سائحٌ اورنسي

قال يوسف. او احد المرسلين

فقال الصياد: واهاً على حظهِ فانهم يقتلونهُ ويذيقونهُ عذاب الشهداء الاليم

فقال العلامة وقد خالج صدره شعائر الاضطراب والتأسف. لا شكَّ في ذلك وهو ان احد الفرنسيس قد اضحى فريسةً لتوحش ذلك القوم المكروه ولكن لا نرحل من هنا الّا بعد ان نكون بذلنا جدنا وجهدنا لنجيهِ من تهلكتهِ ولا ريب انهُ لسماعهِ طلقة البارودة يكون قد خطر لهُ في بال ان يد عربية قد اتت لمونتهِ وبواسطة عجيبة من العناية الالهية ادركتهُ فلا نخيبنَّ اذاً املهُ يا خليليَّ. كيف رأيكما

قال ديك: ان ذا الراي رأينا يا فرغوسن وها نحن بين يديك فمرنا بما تشاءُ

قال فرغوسن: علينا ان نهيئْ مذ الان شغلنا وغداً عند بزوغ الفجر نجدُّ في انتشالهِ من ايدي قاتليهِ

فسأل ديك رفيقهُ قائلاً: ولكن كيف نبدد شمل البرابرة السودان

قال العلامة: تحقق لديَّ الان انهم لا يعرفون الاسلحة النارية لانهم خافوا منها خوفاً عظيماً وذهبوا راتعين مرتعدي الفرائص فيلزم اذاً ان نغتنم فرصة اضطرابهم بهذه الواسطة ولكن لا بدّ في امري الّا عند الصباح حتى نرى هل يوافقنا المكان

قال يوسف: لا بد من ان يكون هذا المسكين قريباً منا لانهُ . . . .

فما فاه باللفظة الاخيرة الّا اعاد الصارخ صوتهُ قائلاً · اليَّ اليَّ

فقال يوسف وهو مختلج الفؤاد · تعساً لهؤلاء البرابرة وتبّاً لفعالهم فانهم لا يزالون يعذبونهُ وعساهم ان يقتلوهُ هذه الليلة

فمسك ديك يد العلامة وقال لهُ أ سمعت ما قالهُ يوسف عساهم ان يقتلوهُ هذه الليلة

قال فرغوس ان ظنكما بعيد عن الحقيقة لان هؤلاء الاقوام المتوحشين لا يقتلون اسراهم الّا في النهار ويقتضي انفاذ فعالهم الرديئة سطوع اشعة الشمس المضيئة

فقال ديك · وهل يا ترى لا يوافق ان انتهز فرصة الظلام وانزل مسرقاً اليهِ وانتشلهُ من عائلتهِ ثم اتي بهِ الى المركبة

فقال يوسف: سيدي وانا اذهب رفقتك

فقـــال فرغوس · مكانكما يا خليليَّ رويداً رويداً فان قصدكما هذا هو رهان واضح عن خلوص طويتكما وشجاعتكما لكنكما ربما تضران بنا جميعاً وعوضاً عن ان توليا ذلك المتنسر حظاً سعيداً فانكما تحملان نصيبهُ التعس والويل

قال ديك · وما سبب ذلك فان هؤلاء البرابرة ذهبوا متخوشين مرتعبين ولا عادوا يرجعون الى هذا المكان

قال العلامة · اتوسل اليك طالما ان تسمع لمقالي ولا تنقاد لشعائر حميتك التي تحثك على بذل اقصى جهدك في خلاص المتعذب

قال ديك · أوَّاهُ كيف يكون حال هذا المسكين المضطرب الفؤاد الذي لا يجيب احدٌ سؤالهُ ولا يأتيهِ معين ولا مجير وربما ظنَّ ان قد خدعتهُ حواسهُ وليس ما سمعهُ من صوت الطلقة الّا هباء منثور واضغاث احلام

قال العلامة فها اني اطمش مالهُ الان

ثم استوى قائماً وسط المركبة ورفع صوتهُ صارخاً باللغة الاوربسية وقال : طأمن من روعك يا ايها الاسير المسكين وثق بثلاثة اصحاب يحرسونك

فعرّت البرابرة باصواتهم الحادة وضجوا صارخين وهكذا منعوا الرفاق الثلاثة من ان يسمعوا جواب الاسير

فقال ديك : واسفاهُ عليهِ فانهم يذبحونهُ او هم مستعدون لذبحهِ وستذهب وساطتنا هدراً ولا تكون بعث الّا تعجيل ساعة قتله وشدة عذابهِ فعلينا اذاً ان نشتغل الان في امر نجاته

فقال العلامة وكيف العمل وما الحيلة وما الذي تظنهُ مناسباً لعملهُ فيما بين هذا الظلام الدامس

قال يوسف . آه لو كانت تتبدد هذه الظلمات بنور ساطع

قال العلامة وما الذي تصنعهُ اذا تبدد الظلام واستنار هذا المكان

قال الصياد وحينئذ تسهل علينا الامور فاني انزل حالاً الى الارض وابدد شمل هؤلاء الانذال بضرب الرصاص وافعل ما اشاء

فقال العلامة وانت يا يوسف ما الذي تصنعهُ

قال يوسف . سيدي اني اسير في الطريق الامين واتصرف تصرفاً خالياً من الخطر وهو اني اعلم الاسير المتنفس ان يهرب الى صوب معلوم

قال فرغوسن وكيف تعلمهُ ذلك

قال يوسف اعلمهُ بواسطة هذا السهم الذي مسكتهُ لما كان طائراً في الجوّ فاني اربط فيهِ ورقة واصلها اليهِ او استعمل واسطةً اخرى وهي اني احاطبهُ بصوتٍ مرتفع اذ لا يفهم السودان لغتنا

قال العلامة . ان مقاصدكما صعبة العود ولا تصلح لنجاة الاسير المصوك

لانهُ كم يصعب عليهِ الفرار من ايدي معذبيهِ واما قصدك يا ديك فانهُ ربما ينجح اذ تُلقي اسلحتنا النارية الرعب في قلوب البرابرة وتجعلهم يذهبون شذر مذر ولكن اذا خاب مسعــاك وحبط عملك فانك تمسي في خطر مبين وبعود نضطر الى الاهتمام بنجــاة اثنين عوضاً عن الواحد فالاوفق اذًا ان نهتم ونجد بدون ان نكون عرضةً للخطر

قال الصياد. عليك ان تهتم في الامر حالاً

قال يوسف. سيدي هل انت قادر على ان تبدد هذه الظلمات

قال العلامة. ان ذا ليس بمستحيل

قال يوسف. اذا تممت هذا الامر دعوتك اول علماء عصرنا

فسكت فرغوسن لحظةً وخاض بحر الفكر متروياً في امر النجاة وكان رفقاهُ محدقــين به بعجب وقلقٍ اذ خاشت انفسهم من موقعهم الخارق العــادة وما مضت برهة الَّا اخذ فرغوسن في التكلم وقال. انصتــا لمقالي يا خليليَّ فاني فكرت فكرًا وهو انهُ لم يزل عندنا نحو ٣٦ رطلًا من الثقل حيث ما حملناهُ من الرمل باقٍ على حالهِ ولم نمسهُ قط فاظن ان هذا الانسان مع شدة ضنكه وتوصرصه تحت مطارق العذاب لا يزن اكثر من واحدٍ منا فيبقى اذًا عندنا نحو ١٢ رطلًا يمكنا ان نلقيها لنرتقي بسرعة الى الاعالي

قال ديك. وكيف يكون اجراء الامر

قال العلامة انك تسلم معي اني اذا تمكنت من وضع الاسير في المركبة والقيت عني ثقلًا يوازي زنتهُ فلا يحدث خلل في موازنة القبة ولكن اذا رغبت حينئذٍ في ان ارتقي بسرعةٍ الى الجوّ لافر هاربًا من هؤلاء المتوحشين فيلزمني ان التجئ الى قوةٍ مضاعفة لقوة القصبة والحال اذا القيت ما بقي من الثقل في الوقت المعلوم فلا شك انني اصعد بسرعة عجيبة

قال ديك : ان الامر بينٌ لا شبهة فيه

قال العلامة . نعم القول ولكن هنا محذور وهو اني عند ما اريد النزول فيما بعد يلزمني ان اقتصد كميةً من الغاز مقابلةً لما اكون القيتهُ من الثقل الزائد والحال ان هذا الغاز ثمين جداً مع ذلك لا يسوغ لنا ان نأسف على فقده عند ما تمس الحاجة لنجاة انسان من الهلاك

قال في الحق تكلمت يا خليلي ومن الواجب ان نبذل كل ما في وسعنا لنجاته

قال العلامة . فلنبادر اذاً الى العمل وفي بدء الامر نجعل اكياس الرمل على طرف المركبة لكي نتمكن من القائها دفعةً واحدة

قال يوسف وهذا الظلام الكثيف

قال فرغوسن : ان هذا الظلام يستر استعدادنا واهتمامنا ولا يتبدد الّا عند نهاية شغلنا واما انتما فكونا على حذر وضعا اسلحتكما بالقرب منكما عسى ان تمس الحاجة لاضرام النار وعندنا هنا الطبنجة والبارودتان والرفلمان فجميعها ترمي سبع عشرة رصاصة نطلقها في برهة ربع دقيقة اذا شئنا ذلك . ولكن ربما لا نضطر الى هذه الطريقة القصوى فلناخذ الان بالعمل أ لعلكما على حضر

قال يوسف : ها نحن بين يديك وقد وُضعت الاكياس على طرف المركبة والسلاح بالجانب منهم

قال العلامة : هيا تحرَّصا شديداً فان يوسف مفوَّض بالقاء اكياس الرمل وديك بنشل الاسير ووضعه في المركبة ولكن لا يعملنَّ احدٌ منكما شيئاً قبل ان امرهُ بهِ وانت يا يوسف اذهب الآن وحلَّ المرساة وارجع حالًا الى المركبة

فنزل يوسف متدلياً على الحبل وفعل ما امرهُ بهِ سيده وعاد الى مكانهِ

في رهة وجيزة فعامت حينئذٍ المصورة في الهواء وكادت لا تتحرّك

فطر فرغوس الى صندوق المرح وتأكد ان عنده كمية كافية من الغاركي يضرم القصبة عند الحاجة ولا يضطر الى استعمال كرة بنزن الكهربائية ثم رفع الانبوبتين المتفرقتين عن بعضهما وهما المستعملتان لحلّ الماء من عنصريهِ وبعدهُ نبش من كيس السفر قطعتي فحم مدببتين وفي آخرهما رأس حادّ فاحكمهما في طرف كل من الانبوبتين

فشخص رفيقاهُ متأملين فيما كان يصنعهُ دون ان يفهما غايتهُ اما هو اي العلامة فبعد ان قضي شغلهُ استوى على قدميهِ في وسط المركبة ومسك في كل من يديهِ قطعة من الفحم وقرب رأسيهما الى بعضهما

في الساعة والحال استنار المكان بضياء عجيب وكانت قطعتا الفحم كشعلة نارية فبدد ذلك النور الكهربائي ظلمات الليل الحالكة المحيقة بهم

فقال يوسف متعجبًا يا هيَ يا سيدي

فقال العلامة . مَه صَهْ يا يوسف لا تقل شيئًا

# الفصل العشرون

في المرسل العاراري وانتشاله من ايدي البرابرة وسيرته واوجاعه الاليمة
وحسن مداراة العلامة فرعوس له

يحوّل فرعوس توجيـــه شعاع النور الكهربائي من مكان الى مكان ثمّ وجههُ الى مكان سمع فيه اصواتَ اضطراب وشغب وجعل رفيقاهُ يتفرسان في ذلك المكان

فشاهدا ان شجرة البوباب المتعلقة بها المرساة مرتفعة بين حقلين حقل سمسم وحقل قصب سكر ويتخللهما نحو خمسين كوخاً متشتتة المراكز ويطوف حول تلك الاكواخ رجال الطائفة الحالة في تلك البقعة

ثم نصر الرفاق الثلاثة نحشة مرتكزة على الحصيص طير الساري وذلك عن بعد نحو مائة قدم من قنتهم وعند اسفل الحشة شاب مضطجع يبلغ عمرهُ نحو ثلاثين ســـنة ذو شعر اسود مستطيل وجسدهُ عريٌّ نصفهُ عن الثياب نحيفٌ مهزول العافيـــة مخصب بالدماء مثخن بالجراح ورأسهُ مائل الى صدره كما كان المسيح على الصليب

وشاهدوا في قمة رأسه شعراً محلوقاً مستديراً اشبه اكليل الكهنة

فصاح يوسف وقال انما هو مرسل هو كاهن ولا شك

قال ديك واسفاه واحسرتاه عليه

قال العلامة: سنحييه الان بحوله تعالى يا صاح كن مرتاح البال يا خليلي

فلما نصرت الطائفة السوداء بالقبة الهوائية الشبيهة بالنجم ذات الذنب ولها ذنب ذو نور ساطع بلغت منهم الدهشـــة والاندهال اشد مبلغ وصخوا في صراخ الفزع والهلع فوقع حينئذٍ الكاهن رأســـهُ ولمع اذ ذاك نور الامل

على محياهُ ثم مدّ يداهُ نحو مخلصيهِ كأنهُ يتوسل اليهم صارعًا وهو كمن يرى ساماً

قال فرغوس : حمدًا وشكرًا لباري البرايا الذي نجاه من الهلاك اما نحن فلا يعسر علينا نشلهُ لان الرجال السود تكبلوا بسلاسل الخوف والرعشة ومهدوا لنا سبيل الخلاص فهل انتما على حضر يا خليليَّ

قال ديك نعم قل ما تشاه

قال فرغوس : اطلق القصبة يا يوسف

فتم يوسف امر سيده ودفع النسيم الرحيم قبة المسافرين فوق الاسير فلما كانت القبة تأخذ في النزول مع تقلص الغاز لما فرغوس فكان يميل بنوره نحو اولئك الرهط ويحركهُ قليلًا ليضيء. لامعاً كوميض البرق فاضطرب السودان اضطرابًا عظيمًا وبادروا مسرعين الى اكواخهم ومكث الاسير منفردًا وحدهُ في محلّ عذابهِ وقد اصاب فرغوس قبلًا اذ وثق بما تلقيهِ المنصورة مع نورها الكهربائي من الرعشة في قلوب العبيد

فلما اقتربت القبة من الارض رجع بعض العبيد الاكثر جسارة وجراءة الى اسيرهم اذ دروا انهُ عن قريب سيمحو من ايديهم وكانوا يصرخون صراخًا هائلًا . فمسك ديك سلاحهُ ليرميهم بالرصاص فمنعهم فرغوس عن ذلك

وكان الكاهن جاثيًا على ركبتيهِ اذ ليس لهُ قوّة ان يستوي قائمًا وهو ليس بمعلق على الخشبة ولا مربوطًا بها اذ لا حاجة الى رباط لشدة ضعفه وهزله . فلما وصلت المنصورة الى الارض وضع ديك سلاحهُ في مكانهِ ومسك الكاهن من تحت ابطيهِ رافعًا اياهُ الى المركبة والقى يوسف وقتئذٍ اكياس الرمل التي اشرنا اليها

وكان ورعس يؤمل الارتقاء سريعاً وبحجة عجيبة ولكن القبة حيث منة الامال اذ مكثت في الجو غير متحركة بعد ان ارتفعت نحو اربعة او خمسة اقدام

فلاحت على وجهه لوائح الفزع وصاح بصوت يخالطه الرعب وقال ما الذي يمسكنا

وللساعة هرول بعض العبيد وهم يصوتون بصراخ الوحوش الضاريات

فمال يوسف برأسه الى خارج المركبة وقال · سيدي ان احد هؤلاء السود تعلق بمركبتنا

فقال ورعوسن · اياك يا ديك وصندوق الماء

ففهم ديك مقصد العلامة وفي ساعته احد صندوقاً من صناديق المـاء الذي يبلغ وزنهُ نحو عشرين رطلًا وبعد ورماه حالًا الى الارض

فلما خفت القبة فجأة قفزت قفزةً هائلة الى الجو وبلغ علوها نحو ثلثمائة قدم فشمل القوم السود الخزي والخجل اذ فلت الاسير من بين ايديهم وأنتشل ملتحماً بشعاع نور ساطع

ثم قفزت القبة قفزة اخرى فجائية وعلت عن الارض نحو الف قدم

فقال ديك وقد اوشك ان يفقد موازنة جسمهِ · وما هذا

قال ورعوسن · لا تخف يا ديك فقد رضى الندل الاسود قتنا

فمال يوسف بالحال برأسه الى اسفل وشاهد العبد الاسود ناشراً ذراعيـهِ وهو يدور في الهواء كدولاب ثم سقط على الارض فتهشم

فابعد وقتئذٍ العلامة السلكين الكهربائيين وعاد الظلام الى احتباكهِ وكانت الساعة اذ ذاك الواحدة بعد انتصاف الليل

وفي تلك الدقيقة استفـاق العربي من غشيانهِ وفتح عينيهِ فقال لهُ

العلامة اشرك فانك تموت من الهلاك

فاجاب المرسل باللغة الانكليزية وقال وهو يتبسم تبسم الاكتئاب ·
نعم اني قد تموت من ميتة شنيعة فاني اشكر معروفكم يا اخوتي على صنيعكم وجميلكم ولكن ارى ان ساعتي قد اقتربت واياميي قد فنيت فعن قريب ارحل من هذه الدنيا الى الآخرة

ثم عاد الى سباته اذ كان حسه مصوبًا الى الغاية

فقال ديك · · واسماه عليه فانهُ في حالة النزاع

قال العلامة ·كلاَّ يا ديك ثم كلاَّ لكنهُ خائر القوى لشدة العياء والعذاب فلنحمله تحت الخيمة ليرقد هناك

فمدوا ذلك الجسم النحيف المهزول تحت الخيمة بلطافةٍ وعطوهُ للحمهم وكان اذ ذاك معمورًا باثار العذاب والجراح المتشبعة بالدماء · وقد اثر فيها الحديد والنار تأثيرًا بليغًا · فغسل العلامة جراحهُ ثم غطاها بمسائل صنعهُ من خرقةٍ كتان وكان حاذقًا في هذه الصنعة ويداوي المريض كطبيب ماهر ثم اخذ قليلًا من الدواء المقوي من احزانيته وسكب نقطًا منهُ على شفتي الكاهن

فمسك المريض حينئذٍ بيد طبيبه دلالة على الممنونية والحظوى وما كاد تلفظ بكلام الشكران اذ قال لهُ اشكر معروفك · ايها الفاضل · · ·

ثم رأى فرغوسن موافقًا ان يترك الكاهن لينام ويأخذ راحةً تامة لجسده فجرَّ حواليهِ ستار الخيمة ورجع الى مركزه لادارة القبة الهوائية

وقد حفت موازنة القبــة مع وجود الصيف الحديد ثقل ثلاثين رطلًا وبالحالة هذه لم يكن فعل القصبة لازمًا ليستقرّ المساوون في علوّ مناسب وعند نزوع الفجر هبت ريح لطيفة فدفعتهم نحو غربي شمال العرب

فذهب فرغوسن برهةً لينظر الى الكاهن فرآهُ معميًا عليهِ

فقال ديك حفظ لنا المولى هذا الصيف الجليل الذي بعثهُ اليسا. قال يا فرعوس هل لنا امل بشفائهِ

قال فرعوس الامل بهِ تعالى واظن انهُ يبرأ بالمداراة وطيبة هذا الهواء الرائق

فقال يوسف وهو مضطرب الفؤاد أواه كم كابد هذا المتعس من مرّ العذاب ولكن أتعلمان يا خليليَّ انهُ اكثر شجاعة مما اذ تجرأ على الاقدام الى هذه البلاد وحدهُ دون رفيق

قال الصياد: لا شك في ذلك

فما اراد العلامة في ذلك النهار ان يقطع رقاد المريض بل تركهُ تائهًا في معاور عشيانهِ العميق لكنهُ كان يتأوه احيانًا ويتدمر من اوجاعهِ وهذا ما اقلق بال فرعوس بشأنهِ

وعند المساء مكثت القبة ثابتة في الجو وسط الظلام واستمرت مدى الليل كلهُ واراد فرعوس ان يحرسهم جميعا واعتاض عن الرقاد بالسهاد

وفي الغد عند الصباح كانت القبة قد اتجهت قليلا نحو الغرب واستبان النهار رائق الجوّ خاليًا من كل غاشية ونادى المريض اصحابهُ بصوت خشن فسرَّ لذلك الرفاق الثلاثة ورفعوا عنهُ ستار الخيمة فاستنشق ذلك النسيم الرحيم نسيم الصبا بهجة قلب وروح لا مزيد عليهِ

فسألهُ فرعوس قائلًا. كيف حالك اليوم

قال الكاهن ربما احسن من البارحة ولكن انتم من انتم يا اصحابي لاذكركم في صلاتي الاخيرة فاني ما شاهدتكم الى الان الَّا كمن في حلم وما كاد اعرف ما جرى لي ولكم عند ما سعيتم في تخليصي من التهلكة

فقال العلامة نحن مسافرون انكليزيون قد قدمنا على ان نجوز بلاد

اوريقية بالقبة الهوائية وفي مرورنا تشرفنا بانقاذك من ايدي معذبيك

قال المرسل . ان للعلم ابطالاً

قال الصياد : وللدين شهداء

قال العلامة . وهل انت مرسل

قال : اني كاهن من رسالة الآباء العازارية وقد هداكم المولى لتأتوا اليَّ وتنشلوني من العذاب فليتمجد اسمهُ تعالى اما حياتي فقد قدمتها ضحية ولكن ارجوكم ان تخبروني عن احوال اوربا وخصوصاً عن احوال البلاد الافرنسيــة اذ انتم قادمون من اوربا وانا لم اسمع قط خبراً عن تلك البــلاد منذ خمس سنوات

قال ديك وقد حطت الدهشة رسومها على محياه : انت اذاً مقيمٌ وحدك بين هؤلاء البرابرة منذ نحو ٥ سنوات يا للعجب

قال المرسل انما انفس ثمينة مات السيد مخلصاً ليفديها وما هم الّا اخوتنا لكنهم جهلاء متوحشون وليس ما يعلمهم ويمدنهم سوى الديانة وحدها

اما فرغوسن فاخذ يحدث المرسل عن احوال البلاد الافرنسيّــة بشرح مطول

واصاخ المرسل باذنيه سمعًا لمقال فرغوسن وكانت عيونهُ تسكب العبرات من الاماق ثم هيأ لهُ العلامة شيئاً من شراب الشــاي وسقاه اياه فشربهُ بسرور وابتهــاج وحينئذٍ تمكن من ان ينهض قليلاً من فراشهِ واستوى عليهِ وتبسم ثغره بلطافةٍ اذ شاهد نفسهُ محمولاً على اجنحة الرياح في جوّ رائق كثير الصفــاء

ثم قال لاصحابهِ : انكم في الحقيقة مسافرون ذوو شجاعة وبسالة وستنجحون في مسعاكــكم وتشاهدون الاقارب والخلان والاوطان

وللحـال أُمسك عن التلفظ بكلمة اخرى اذ خارت قواهُ واضطرَّ الى ان يبسط على الفراش وقد انحطت قواه انحطاطًا شديدًا حتى انهُ لما ارتمى بين يدي فرغوس مدة بعض ساعات كان كالميت لا يبدأ بحركة ولم يتماسك العلامة عن اظهار جاشهِ وكدره وقال في نفسهِ هل ترى يفارقنا سريعًا هذا المرسل المسكين الذي انتشلناه من ورطة هلاكهِ

ثم ضمد جراحهُ من جديد واستعمل كثيرًا من ذلك الماء السـاقي عدة ليبرد غليل احشائهِ الملتهبة وبذل غاية جهدهِ وذكائهِ في مداراتهِ وملاطفتهِ. فكانت تنتعش روح المريض رويدًا رويدًا بين يديه واخذت حواسـهُ اذا لم نقل حياته في الرجوع اليهِ

فاخبر المرسل المسافرين سيرة حياتهِ بوجيز العبارة وقد تلقى العلامة كلام الكاهن من فيهِ بصعوبة اذ حالتهُ اللعلعة والمتهتة لشدة ضعفه وعيائهِ وقد كان طلب اليهِ فرغوس ان يتكلم باللغة الافرنسية لكونها اسهل عليهِ اما هو فيفهم بسهولة ما يقال فيها

اما المرسل فـكـان قد وُلد في قرية ارادون من مقاطعة مُوربيهان في شمالي فرنسا وقد عطف منذ نعومة اظفاره الى اعتناق العيشة الكهنوتية فدخل رسالة الآباء العـازاريين المؤسسة من القديس المجيد منصور دي بول قاصدًا بذلك خوض المشاق في الاسفار مع كرهِ بذاتهِ وزهدهِ في الدنيا واباطيلهـا ولما بلغ من العمر زُهاء ٢٤ سنة هجر وطـنـهُ قادمًا الى سواحل افريقية ثم اوغل في البلاد حتى وصل الى القبائل الجـالة في مصبات النيل الأعلى بعد ان قاسى ما قاساهُ من المشقـات والاتعاب والجوع والعطش وهو مع ذلك صابرٌ على حالهِ مسرور القلب والخـاطر متضرّع الى ربهِ تعالى فجدَّ في ارشاد تلك الاقوام وهدايتها الى السبيل المستقيم غير انه لم ينجح ورُذلت ديانتـهُ

ودهمت عيرته باطلًا وعومل سوء المعاملة جزاء على احساناته وحميريته محسن عند قوم بربري من قبائل بيامبزّة وكابد في سجنه من الشتائم والاهانات والعذاب. لكنهُ ما برح يعلم ويعظ ويبتهل اليه سبحانه وتعالى واذا في ذات الايام تبارزت طائفة مع تلك الطائفة التي كان محبوسًا عندها فشتّتت شملهـا ومزقتها حزائق وادهمتها طرائق وانزلت بها البوائق كما هي من عادة تلك الاقوام الوحشية ولو لم يُحسب الكاهن الاسير قتيلًا لكان نالهُ التعس والويل.

واذ بحـا لم يشأ ان يرجع الى ورائه بل دخل في اواسط افريقية وهو يقصي مصلحتهُ في الرسالة والهداية وكانت ايامهُ زاهرةً حين أُعدَّ محبوسًا وذلك لمواظبته على تعليم الدين المسيحي واحتمال ما يلمّ فيه من المشقات والاهانات. ثم طاف حول تلك الاقاليم البربرية مدة ستين مستطيلتين متسحبًا بترس تلك القوة الالهية الفائقة الطبيعة التي كانت تدفعهُ اليها. وبعد سنة كان قد اقام عنـد قبيلة من قبائل بيام بيام المدعوة براوي وهي من البالغات في التوحش وكان في برهة بعض الايام قد مات كبيرهم فتظلموا الكاهن وقالوا انهُ هو السبب في موته المتطير وعزموا على ذبحه وكانوا يعذبونهُ منذ نحو اربعين ساعة وقد قرّ رأيهم على ان يقتلوهُ في الغد عند الظهر بحسب رأي العلامة ولما سمع طلقة الاسلحة السارية صاح بصوته وقال: اليّ اليّ وقد خيل لهُ انهُ تائه في مغارة الحلم واذا بصوت العلامة قد اتى وطأْس بالهُ وروعهُ

وبعد ما انتهى من قصته قال لا اتأسف على ذهاب روحي الى خالقها ومخلصها

فقال لهُ فرعوس لا تيـأس بعدُ من الحياة فانا بالقرب منك ونجيك بعونه تعالى من الموت كما نجاك من آفة العذاب

فقال الكاهن وهو صابر على مصابه. حسبي ما نلت من كرم المولى

فليتمجد اسمهُ تعالى لاني حظوت قبل موتي بمشاهدة اصحاب افاضل وسمعت لغة وطني

ثم عادت قواه الى ضعفها وقضى النهار بين الرجاء والخوف وكان ذلك مرتاع الفؤاد ويوسف يمسح من عينيهِ الدموع على انفراد

وكان مسير المنصورة غير سريع وكأنك بالريح قد ارادت مداراة حمية المعيس وملاطفتهُ

ولما امست قد لح يوسف في الافق الغربي ضياء عظيمًا فلو وُجدوا في عروض اربع لحسبوهُ فجرا شماليًا اذ تراءت السماء شاعلة نارًا فاخذ العلامة في الفحص عنهُ بتدقيق ثم قال انما هذا هو بُركان يقذف النيران

فقال الصياد · ولكن الا ترى ان الريح تدفعنا الى ما فوقه

قال العلامة · هب انها دفعتنا اليهِ فانما نجوزهُ في علوّ نأمن بهِ من غائلة نيرانهِ

وعب مرور ثلاث ساعات بلغت المنصورة حــلًا درجة ١٥°٢٤ طولًا و٤٢°٤ عرضًا وامامهُ فوهة البركان النارية تقذف سيول مواد مدوَّبة مختلفة الاجناس وتدفع منها قطع صخور الى علوّ شاهق ومن المجاري النارية ما كان يشبه الشلالات المزبدة بتساقطها من الفوهة الى اسفل · وقف المسافرون ذلك المشهد البهيّ لكنهُ كان ذا خطر عظيم لان الريح ما زالت تهبُّ بهم وتدفع المنصورة الى ذلك الجوّ المصطرم لهيبًا

ولما لم يمكنهم تجنب هذا العائق بل لزمهم ان يجوزوهُ فاضرم العلامة حرارة القصبة الى ان بلغت المنصورة علوّ ستة آلاف قدم وكانت بينهم وبين البركان مسافة نحو خمسمائة ذراع

وقد استطاع الكاهن المريض من فراشهِ ان يشرف على ذلك الجبل

الناري ويتأمل بوادره المرتدة المدفوعة منهُ بشدة كسهام ملتهبة

ثم قال . انهُ مشهد بهيٌّ فسبحان من كوَّن الكون وابدع في خلائقه الرفيعة والهائلة معاً

واما المواد النارية المدفقة من ذلك البركان فكانت تنزل متساقطة على سفح الجبل وتنبسط على الارض فراشاً من لهيب النار المتقدة والمتأججة . وفي الليل كنت ترى اسفل القمة مضيئاً من سطوع النيران المتصاعدة ومعها كانت تتصاعد الى القمة حرارة شديدة . فما تماسك وعوسن ان بادر بالترحال هرباً من وقوع الويل والاخطار

فقبل انتصاف الليل بساعتين من الزمان لم يعد يبين الجبل الناري الّا كنقطة حمراء في الافق وما زالت المنصورة سائرة بالامن والسلام في طبقة جوية اقل ارتفاعاً

## الفصل الحادي والعشرون

في موت الكاهن ودمية والقمر الذهبية واضطراب يوسف في جمع الاموال
وما حصل لهُ من الكآبة

وكانت ليلة بهية تطرب الخاطر فاضطجع الكاهن واهي القوى ونام غائباً عن حواسهِ

فقال يوسف : أواه على هذا الشاب الذي لم يبلغ بعدُ من العمر سوى ثلاثين سنة فان رقادهُ ربما هو الرقاد الاخير

قال العلامة : سينطفئ نور حياتهِ بين اذرعنا وقد ضاق تنفسهُ اكثر مما كان قبلاً وما لي حيلة لاَراحهُ

فقال يوسف بغضب وحنق : قبحهم الله اولئك الصعاليك المجرمين الذين انزلوا فيهِ التنكيل وترى كيف قد وجد هذا الكاهن المتنسك باعثاً ليشفق عليهم ويعذرهم ويسامحهم على زلتهم وآثامهم

قال العلامة : ها قد أُوتي من السماء بليلةٍ بهية عساها ليلتهُ الاخيرة ولكن لا يعود يذوق عذاباً شديداً ولا يكون موتهُ الّا رقاداً رائقاً

ثم تلجلج المائت ببعض كلمات فدنا منهُ العلامة ورأى ان نفسهُ ضاق جداً والتمس الهواء فسحب لهُ ستار الخيمة واستنشق حينئذٍ نسيم تلك الليلة الشفافة حيث النجوم والكواكب ترسل اليهِ نورها المرتجف والقمر يحتمهُ ببياض شعاعهِ

فقال بصوت ضعيف : اني متوجه راحل عنكم الآن يا اصحابي فاراكم الله على جميلكم اسالهُ تعالى ان يوفي عني احسانكم ويبلغكم مناكم

قال لهُ ديك : لا تقطع الرجاء بعدُ فان ما هذا الّا ضعف وقتي زائل وكيف يأتي الموت في مثل هذه الليلة البهجة

قال المرسل ان الموت نصب عيني ولا منهُ مناص فدعوني اتأملهُ فانهُ بداية الامور الابدية ونهاية الاهتمامات العالمية ارجوكم يا اخوتي ان تحملوني جاثيًا على ركبتيَّ

فانهضهُ ديك قليلًا وقد استولت الحمية على قلبه اذ رأى اعضاءهُ الخائرة الفاقدة القوى قد ترضرضت

ثم صاح قائلًا: الهي الهي كن لي راحمًا وشفوقًا

وقد اضاء وجههُ لامعًا كانهُ لابس انوار الحياة الجديدة وصاعد الى الاعالي بارتفاع عجيب عن الدنيا التي لم يذق فيها فرحًا ولا ملذة وذلك في تلك الليلة التي كانت تلقي عليهِ رونقها اللطيف

ثم منح البركة لرفقائهِ الذين لم يواسيهم سوى يوم واحد وكانت تلك البركة حركتهُ الاخيرة وانمحى بعد ذلك بين ادرع الصياد المغرورقة عيناهُ بالدموع السخينة

واشرف عليهِ العلامة وقال هذه دقيقتهُ الاخيرة يقضي فيها نحبهُ وللحال ركع الرفاق الثلاثة سجدًا ليصلي كلٌّ على حدةٍ بسكوت تام

وبعد برهة قال فرغوسن غدًا عند الصباح ندفنهُ في هذه الاراضي الافريقية التي سقاها بعرقهِ ودمهِ

وفي تلك الليلة اقام كلٌّ من الرفاق الثلاثة بحراسة الميت في الاوقات المعينة لهم ولم يتفوه احدٌ منهُ بكلمة بل اعتاضوا عن التكلم بذرف الدموع وصدعة الفؤاد

ولما اصبحت كان مهب الريح من الجنوب والمصورة سائرة سيرًا بطيئًا فوق صعصعٍ كائن على جبلٍ وصادفوا في طريقهم اهواه براكين مطفئة وخنادق مروعة والارض كلها خالية من نقطة ماء واحدة وقد اتضح لدى

المسافرين فحلق تلك الاراضي وحدها مما شاهدوا من الجلاميد المتفاقة بعضها فوق بعض والاراضي المحورة

ولما عزم العلامة على دفن الميت عند الظهر اراد النزول الى حــدق بين صخور ذات كنوٍ اصلي ليكون له ذلك الخندق عدلة ملاذٍ يأوي اليه قتنـهُ لئلا تصدمها الرياح عند نزولها الى الارض حيث ان تلك الناحية كانت خالية من اشجار يلتجئ عليها المرساة ولكن لم يعد يمكنهم النزول الَّا بفقد كميـة وافرة من القار لسبب القائهم اكياس الرمل عند انتشال الكاهن الى القبة كما كان انبأ به العلامة رفيقهُ ديك

ففتح حينئذٍ فرغوسن لولب القبة الخارجة واذا بالإدروجين قد اخذ في التنقص ونزلت المصورة في الخندق نزولًا بطيئًا

وعند ما مسَّ القــارب ارض الخندق اعلق العلَّامة اللولب . اما يوسف فقفز الى الخارج حالًا وما زال ماسكًا بيده الواحدة طرف المركبة وفي اليد الاخرى يلتقط من الارض حجارة ويضعها في المركبة حتى وازت ثقلهُ ثم جعل يجمع بيديه الاثنتين ويكوم حجارة اخرى الى ان بلغ وزن ما وضعهُ نحو ثمانين رطلًا ولساعتهِ استطاع العلَّامة ورفيقه ديك ان ينزلا الى الارض ومكثت المصورة في موازنة تامة وكانت قوَّتها الصاعدة غير قادرة على رفعها عن الارض في تلك الحالة

الَّا انهُ لم تلجئهم الضرورة الى وضع حجارة كثيرة لان ما جمعهُ يوسف من القطع الصخرية كان ثقيلًا جدًّا وحمل فرغوسن على ان ينتبه اليهِ ثم تطلع في الارض فكانت مفروشة بالقطع الصخرية الكثيرة والجلاميد العرميرية فقال في نفسه: هذا شيء جديد كشفناهُ

اما ديك ويوسف فابتعــدا قليلًا ليجدا محلًا يصلح لدفن الميت وفي ذلك

الخندق احسَّ المسافرون بحرارة زائدة لان شمس الظهر كانت ترميه باشعتها
الملتهبة على الخط المستقيم

ولما وجدا المحل المناسب رفعا اولاً تقر الصخور المفروشة وعرقا الارض وحفرا فيها ثقباً عميقاً لا تستطيع الوحوش الكاسرات ان تنشهُ وتنال جثة الميت لتعتدي بها

ثم وضعا فيه جثة الشهيد باحترام ووقار

وبعد ذلك طمَّا القبر بالتراب ووضعا فوقهُ حجارة صخرية على هيئة صريح

اما العلامة فكان خائضاً بحر الفكر ولم يصح سمعاً لصوت رفيقيهِ لكي يذهب معهما ويطلب محلا يلتطي فيهِ من حرارة الشمس الشديدة

فقال لهُ ديك وبمَ تفتكر يا عزيزي ساموئيل

قال انأمل يا ديك بمصادفة غريبة في الطبيعة وصدفة عجيبة في القدر أتعلم يا ديك في اي ارض دفن هذا المسكين البائس الذي كفر بالعالم وباطيلهِ وبذاتهِ ايضاً

قال الصياد ما قولك يا صاح

قال العلامة : ان هذا الكاهن الذي ندر الفقر يرقد الان في معدن ذهب

فصاح ديك ويوسف قائلين بحب . ويلاهُ كيف يرقد في معدن ذهب

قال العلامة نعم في معدن ذهب لان الحجارة التي ندوسها كانها بدون قيمة ولا ثمن انما هي معدن ذهب كلي النقاوة

قال يوسف تكراراً : ان ذا لمن المستحيل يا سيدي

• قال العلامة . اذا فحصت قليلاً فلا تلبث ان ترى بين الحجارة الخزفية والصخرية كثيراً من النقر الذهبية الخالصة

فبادر يوسف للحال كالبساط فاقد العقل وجعل يجمع تلك القطع المتشتتة وكان ذلك راعياً في ان يحدو حدوه واذا بالعلامة قال ليوسف • كن رائق البال يا صاح ولا تدع الطمع . .

قال يوسف تكلم ما تشاء يا سيدي

قال . ما هذا وكيف فيلسوف نظيرك . .

قال يوسف : لا توجد فلسفة تصدني عن جمع هذه الاموال

قال وعوس : مهلاً يا يوسف تأمل ماذا تنفعنا هذه الاموال اذ لسنا قادرين ان نحملها معنا

قال يوسف ولمَ لا نقدر ان نحملها

قال • لانها تثقل قنتنا وقد كنت لرعب في ان لا اطلعك على هذا الامر حشيةً من ان يجلب عليك الاسف والندم

قال يوسف • وكيف نرحل تاركين هذه الكنوز المذخورة لنا • نعم هي لنا أيليق ان لا نكترث بها

قال • احرص على ذاتك يا صديقي لئلاّ تصاب بحمى المال ألم تعلم من الميت الذي دعاهُ الان ان تحتقر اشياء العالم الباطلة

قال يوسف • بالحق قلت ولكن على جميع الاحوال هذا ذهب • وانت يا سيدي ذلك ألا تساعدني لاجمع قليلاً من الكرات والربوات الذهبية

فقال الصياد مبتسماً : وما الذي نفعل بها هل اتينا نطلب الغنى والثروة فما لنا ولها

قال العلاّمة ان الكرات والربوات ثقيلة ولا تودع في الجيوب بسهولة

فقال حينئذٍ يوسف : أفلا نستطيع ان نحمل من هذا المعدن بدلًا من ثقل الرمل

قال العلامة لا بأس فاني اسمح لك بذلك ولكن على شرط انك لا تعبس عند ما تلقي ربواتٍ من ذهبك خارجاً عن المركبة

قال يوسف : ويلاه كيف نلقي ربوات من الذهب ولكن هل كل هذا ذهب خالص

قال نعم يا ايها العزيز فان هذا المكان حوض كوّمت فيهِ الطبيعة كنوزها مذ احيال وهذا ما يغني بلاداً واصقاعاً بتمامها . فان الكنوز التي أُودعت بطن هذه المغارة القفرة تحاكي كنوز بلاد أُستراليا وكاليفورنيا

قال يوسف اهاً لجميع هذه الكنوز ستذهب هدراً لا ينتفع بها مرءٌ

قال انه من الممكن ان لا ينتفع بها انسان ولكن على كل حالٍ فاني اسلي عنك الهمّ والكدر المستحوذين على قلبك

قال يوسف وقد لاحت على وجههِ شعائر الندم : لعمري ان ذا امرٌ عسيرٌ

قال العلامة : مرادي ان ارسم لك اعلاماً واهية تدل الى مركز هذا المكان فاذا رجعت الى الاقطار الانكليزية اعلمت به رفاقك اذا خال لك ان الاموال العزيزة تولهم السعادة والحظوة

قال يوسف : دعني من هذا الحديث يا مولاي فاني ارى الحقّ في كلامك ومن الواجب عليّ الصبر والتحمل واما الان فاسمح لي ان املأ المركبة من هذا المعدن الثمين ومهما بقيَ عند نهاية السفر يكون ربحاً لنا

ثم اخذ ينقل الحجارة من الارض الى المركبة بسحنة الفؤاد وما لبث ان جمع نحواً من الف نقرة من النقر الصخرية المذخور فيها الذهب كي صوان ذي

صلاة عطية

وكان ينظر اليه العلامة متبسمًا وفي غضون ذلك تطلع على مركز مدفن الكاهن فوجد انهُ في درجة ٢٣° ٢٢ طولا و٥٥° ٤ عرضًا شماليًا ثم رمق رمقة احيرة لقبر ذلك الرجل الفرنسي وعاد الى مركبته

وقد رغب في ان يرسم صليبًا من خشب ولو غير متقن ليضعهُ على القبر وسط تلك القفار لكنهُ لم يجد شجرة واحدة نابتة في جوارهم فقال الى رفيقه الصياد ان الله عارفٌ بهذا المكان وكفى

وكان فكر فرغوس مشغلًا في امر مهم جدًا وهو انهُ كان اكرم بال جزيل من تلك الكنوز الثمينة لو أُوتي وقتئذ بشيءٍ من الماء تعويضًا لصندوق الماء الذي رماهُ عند تمسك العبد الاسود بالقبة ولكن ما الحيلة وهو مقيم في تلك المفاوز الماحلة والقفار القاحلة . فاشغل هذا الامر بالهُ وهيج بلبالهُ اذ انهُ مضطر بالضرورة القصوى الى اضرام نار القصبة بالماء. واذا ما عطشوا فليس عندهم ما يبرد غليلهم ولهذا عزم ان لا يفوت فرصة تمكنهُ من تجديد زاد الماء.

فلما اتى فرغوس الى المركبة وجد القطع الصخرية الكثيرة التي كان كومها يوسف الطميع فتطلع اليها ولم يقل شيئًا ثم جلس الصياد في مكانهِ وتبعهما يوسف وقد ارشق كنوز الحدق بعين الطمع والحرص. فاضرم فرغوس قصبة القبة فتسحن المحال الانبوب الذي على شكل الترعي واخذ الإدروجين في السريان وامتد الغاز اما القبة فلم تتحرك من مكانها

فنظر يوسف الى سيده بقلق واضطراب

فناداه العلامة باسمهِ

اما هو فكان صامتًا ولم يجب سيده

فقال لهُ العلامة اما تسمعني يا يوسف

فاومى يوسف بالاشارة دلالة على كونهِ سمع صوت فرعوس لكنهُ لم يشاء ان يفهم ما يقولهُ لهُ

قال فرعوس ارجوك ان تتكرم عليَّ من سخائك وتلقي جانبًا من هذا المعدن خارجًا عن المركبة

قال يوسف · ولكن اما اذنت لي يا سيدي · · ·

قال فرعوس · ما اذنت لك الّا ان تضع شيئًا مقابل الثقل

قال يوسف ومع ذلك · ·

قال فرعوس · أَتريد اذًا ان نستقر في هذه القفار الى ابد الآباد

فنظر يوسف حينئذ الى الصياد بعين اليأس والقنوط اما هذا فابتسم بسمة من ليس لهُ مقدرة على تنفيذ الارب

قال فرعوس · والى متى يا يوسف

قال وهو شرٌّ عنيد · ألا تشتعل قصبتك

قال فرعوس الاترى ان القصبة مشتعلة واما القبة فهي لن ترتفع اذا لم تلقِ شيئًا من الاحمال التي ثقلت بها المركبة

فحرك يوسف اذنه ثم اخذ نقرة صخرية وهي الاصغر والاخف ثقلًا وجعل يستعرها ويقلها من يدٍ الى يدٍ فكان وزنهـا نحو ثلاثة او اربعة ارطال انكليزية ورماها وهو ينظر اليها بشوق

اما المنصورة فاستقرت غير متحركة من مكانها

فقال يوسف واعجبًا من حالتنا لِمَ لا نزال عليها

قال فرعوس : لم نزل على ما نحن عليه فداوم شغلك يا يوسف

وكان ذلك ينظر الى يوسف ويضحك · ثم القى يوسف نحو عشرة ارطال ولم

تتحرك القفة فعلا الاصفرار وجههُ ولاحت عليهِ لوائح الكدر

قال وعوس الا تعلم يا يوسف ان وزن ثلاثتنا يبلغ نحو سبعين رطلًا ويف فيجب عليك ان تلقي ثقلًا يضاهي ثقلنا ليمكنا الارتفاع

فصرخ يوسف بقلب جريح: لا حولَ ولا قوةَ الَّا بالله وكيف التي سبعين رطلًا

قال وعوس هيا يا بُني هيا والق ايضًا شيئًا لنعلو عن الارض

فتنفس يوسف الصعداء واخذ يرمي الحجارة من القفة وفي خلال ذلك كان ينتظر برهة ويقول ها نحن نرتفع

اما صوت العلامة فكان يجيبهُ قائلًا لسنا في ارتفاع بل ما زلنا على حالتنا

ثم قال اخيرًا. ها القفة قد تحركت

قال العلامة ارم ِثم ارم ِ

قال يوسف اوكد لك يا سيدي ان القفة تطلع الى العالي

قال العلامة ارم ولا تمنعك عن الرمي

فاخذ يوسف نقرة اخيرة بيأس وكدر ودحرجها الى الارض فارتفعت المنصورة نحو مائة قدم وجاز المسافرون دون ذلك الجبل بمساعدة حرارة القصبة

قال العلامة اعلم يا يوسف وفقك الله انك لا تزال محافظًا على مال جزيل واذا توفقنا وتمكنا من حفظهِ الى النهاية كفاك لان تكون غنيًا الى آخر يوم من عمرك

فسكت يوسف ولم ينطق بكلمة بل تمدد مضطجعًا على فراشه المعدني فاستتلى وعوس كلامهُ وقال للصياد أَ طرت يا ذيك كيف فعلت قوة

هذا المعدن في نفس ذات شهامة عجيبة وقلب سليم رائق وكم من الشهوات والاهواء بل كم من الآثام لكان يهيجها معدن مثل هذا لو شاع خبر اكتشافهِ لعمري انَّ ذا مما يحسر الكبد ويجرح الفؤاد

وفي العشية كانت قد تقدمت المنصورة في الجهة الغربية نحو تسعين ميلًا وهي بعيدة حينئذٍ عن زنجبار بخط مستقيم الف واربعمائة ميل

———

## الفصل الثاني والعشرون

في دنوّ المسافرين من الصحراء وليالي خط الاستواء وتقلقل زاد الماء وما صمموا عليه من المقاصد والنوايا

فتعلقت المنصورة في شجرة قامت منفردة في ارض قفرة وقـد بـنست نصفًا وقضى المسـافرون ليلتهم بأمان وهدؤ وذاقوا فيها لذة النوم اذ انهم قد تشوقوا الى الرقاد لما اثرت في مؤادهم الاهتمامات التي ادركتهم في اليومين السالفين

وفي الغد عند الصباح عادت السماء الى صفائها وبزغت الشمس متلألئة فاورثت زيادة لحرارة ثم ارتفعت القبة في الهواء وبعد امتحانات عدة وجدوا مهبًّا جنوبيًّا دفعهم الى شمال الجهة الغربية

فقال العلامة . أمَّا لا نتقدم يا رفاقي الى ما قدام وعلى ظني اننا قد جزنا نصف الطريق في رحلتنا هذه برهة عشرة ايام ولكن اذا دامت الحال على هذا المنوال من السير البطيء لزمت ايام وشهور لنصل الى آخر المجال ومما يزيدنا شكاية على شكاية هو ان الماء عندنا سينفد عما قليل

قال دِيك : الامل ان نجد ماء قبل نفاد ما بقي منهُ لانهُ من المستحيل الّا نصادف نهرًا او جدولًا اوبحيرة في فسيح هذه الصحراء كلهِ

قال العلامة . هذه بغيتي وغاية مشتهاي

قال ديك : وهل لم تعوّق مسيرنا تلك الاحمال الباهظة التي ثقل بها يوسف مركبتنا

قال هذا قصدًا في شكاية يوسف من باب المزح اذ انهُ قد كاد يصاب بمس مصاب رفيقهِ عند اطلاعهِ على تلك النقر الذهبيـة ولكن لما كان قد كظم شدة حرصهِ ولم يتظاهر بما انطوى عليهِ حينئذٍ فؤادهُ اتسم بسمة انسان

ذي تبصر في الامور وكان يضحك لهوًا وهزءا من رغبة يوسف في حشد الاموال

ورماهُ يوسف بلحظة موثرة اما ورغوس فثابر على السكوت وافكارهُ موجهة باضطراب سري نحو معاور الصحراء ومسافتها الشاسعة فانهُ في تلك القفار كثيرًا ما تنقضي اسابيع جمة ولا تجد فيها القوافل بير ماء لترويَ منها غليل العطش ولهذا كان مشددًا حرصهُ في مراقبة الاراضي المحصة لعلَّ الماء فيها محتمعٌ

فهذه الاهتمامات معا حوى لهم من الحوادث السالفة عيرت منهم القلب والحال وقلت مسامرتهم واحاديثهم الى السكوت وخوض بحور الافكار والهواجس

اما يوسف الخادم الهادي البال فقد تحوَّل من هيئةٍ الى هيئةٍ منذ ما اطلع على تلك الذخيرة الثمينة والاموال الجزيلة فلازم الصمت واخذ يحدق نظرهُ بحرص الى تلك الحجارة المكومة في المركبة ويتأمل بها كثيرًا ويفتكر في نفسهِ قائلًا اليوم لا قيمة لها اما بعدُ فيبين عظم اثمانها

كان منظر تلك البقاع والفدافد هائلًا ومما يكبل المرء في سلاسل القلق والهلع ويرهبه في وهدة الهجس والبلبال اذ احدث الصحراء في الامتداد والتوسع وندُر الزرع في الارض ولم يعد يُرى للاكواخ من اثر بل بانت الرمال البيضاء والحجارة المحمرة كجمر النار وبعض الاجمات الشائكة ثم شاهدوا في تلك المفارة العقيمة سلسلة صخور ذات رؤوس حادَّة عرية من كل ترابٍ وهيئتها هيئة الصوان . فانتبه ورغوس الى ذلك الجدب وفكر فيهِ كثيرًا

ولم يتيسر لهم ان يروا اثرًا لقوافل تجرأت على خوض بحور تلك القفار

اذ لم يرَ عظم من عظام الناس او الحيوانات وكان لا بد من بلوغ بحرٍ عظيم من الرمال التي تنقلب بعضها على بعض كامواجٍ طامة

ففكروا في الرجوع الى الوراء غير ان ذا من المحال لقلة الماء الحاصل فاقتضت الحال ان يتقدموا الى قدام وكان يودّ العلامة لو انَّ عاصفة تهبّ وتدفعهم عن تلك الاصقاع ولكن اين الغيوم والسحب واين الريح العاصفة فانقضى النهار كلهُ ولم يجوزوا فيهِ اكثر من ثلاثين ميلا

فواهًا لو بعد زاد الماء ترى ما الذي لقد اصابهم بالحقيقة لم يبقَ عندهم من الماء سوى ثلاثة عشر لترًا ونصف ولذا وضع فرغوس ثلثة على افرادٍ لكي يرطبوا قلوبهم عند التهابها بنار العطش من جرا تلك الحرارة الشديدة البالغة الى ٩٠ درجة انكليزية وابقى الثلثين الاخرين لاضرام نار القصبة ولكن هذه الكمية لا تحصل سوى ٤٨٠ قدمًا مكعبًا من الغاز والحال كانت القصبة تعتق نحو تسعة اقدام مكعبة في برهة ساعة من الزمن وبالحالة هذه كان معهم ما يكفيهم مشيًا مدة اربعة وخمسين ساعة لا غير وقد حُسب هذا كلهُ بدقة

فقال العلامة لرفيقيهِ : ما بقي لنا غير اربعة وخمسين ساعة وحيث قد صممت النية على ان لا نمشي في الليل لعلنا نصادف جدولًا ام نبعًا ام مستنقع ماءٍ بقوته فيكون عدد الايام الذي يتيسر لنا فيها المسير ثلاثة ونصف وقد اضطررت الى ان اعلمكما بهذه الحالة المحجة التي نحن عليها لانهُ لم يبقَ عندنا الّا القليل من الماء ووضعت شيئًا منهُ لنرد عليل عطشنا فمن الواجب علينا من الان ان لا نبدده ولا نسقيكما الّا عند اللزوم

قال الصياد . افعل بنا ما تشاء يا فرغوس ولكن لم نضطر بعد الى قطع الرجاء أَلم تقل انهُ باقٍ لنا ثلاثة ايام ونصف

قال العلامة : نعم يا عزيزي

قال يا ترى ما النفع من الاسف والتحسر فما لنا اذاً ولهذا الفكر دعْ هذه المدة تمضي وبعدها نفتكر فيما يلزم عملهُ واما الان فعلينا ان نضاعف سهرنا وتنبّهنا

وبعد العشاء توزع الماء باقتصاد وشحٍّ واضيف اليهِ قليل من العرق لان كثرتهُ لا تفيد تبريداً بل التهاباً

وفي الليل قرَّت القبة على صفصف بل كأنهُ في انحصار عظيم وما كاد كان يبلغ علوّ سطحهِ عن مساواة سطح البحر نحو ثلثمائة قدم. فضاء نور الامل في قلب فرغوسن لهذه الحادثة وتذكر حماسة اهل الخرافية من وجود بحيرة في قلب افريقية ولكن هب ان تلك البحيرة موجودة في الحقيقة فكيف الوصول اليها من كون السماء رائقة ولا فيها تغيير البتة

فمرّ الليل الصافي مع ضياء سمائهِ المتلامع باشعة الكواكب والنجوم وردَفهُ النهار الوضاح باكثر صفاء ورواق وسطعت فيهِ اشعة الشمس بشدة الاحتراق ولما كانت الساعة الخامسة قال · هيوا على الرحيل ولكن استمرّت المصورة برهةً جامدة في ذلك الجوّ الرصاصي لا تمشي ولا تلوي

وقد كان في امكان العلامة فرغوسن ان يحايد تلك الحرارة الشديدة بارتفاعهِ الى طبقات عالية فلم يعيقهُ عن ذلك سوى قلة الماء لانهُ لو اراد الصعود الى العلاء لاقتضى الامر انفاق كمية وافية من الماء وهذا من المستحيل واكتفى بحفظ قبتهِ في علوّ مائة قدم عن الارض وهناك كانت تهب ريح ضعيفة تدفعها نحو الافق الغربي

ثم فطروا قليلاً من اللحم المملح وبعد الظهر كانت القبة قد سارت بعض الاميال

فقال العلامة وتنبّذ: انا لا نستطيع ان نمشي باكثر سرعةٍ من هذه

فلسنا نحن الآمرون بل مأمورون وطيع نصبر جميل

قال الصياد حبذا لو كانت لنا الآلة الدافعة في هذه الواقعة

قال العلامة : لا شكَّ في ذلك يا ديك ولكن على شرط ان هذه الآلة لا تتفق ماء لتفعل حركتها والّا فتكون الحالة واحدة فانهُ الى هذا اليوم لم يُخترع بعدُ شيء قابل الاستعمال . والقبات الطيارة هي الان كما كانت السفن قبل اختراع البخار وقد مكث الناس لاختراع آلاتهِ مدة ستة الاف سنة فلنا والحالة هذه وقت طويل للانتظار

فقال يوسف . تبًا لهذه الحرارة القادحة . قال هذا وهو يمسح عرقهُ الجاري من جبينهِ قاطرًا

قال فرغوسن . لو حوينا الماء لكان لنا فائدة من هذه الحرارة اذ انها تبسط الإدروجين الذي في القبة ولا يتطلب اللهب الذي على هيئة الدرغي لهبًا شديدًا . نعم لهُ لو لم تكن الماء على وشك الفروغ لما لزمنا ان نجد في توفيرها . قبح الله العبد الشقي الذي احسرنا ذلك صندوق الماء الثمين

قال ديك : وهل تندم على ما فعلت يا صموئيل

قال كلاَّ يا ديك حيث قد انقذنا المرسل المبتئس من ميتة شنيعة ولكن لو بقي عندنا صندوق الماء الذي رميناه لكفانا مسيرًا مدة ثلاثة عشر يومًا وفي هذه المدة لامكنا ان نجوز القفر كلهُ

قال يوسف : وهل لم نقطع نصف الطريق في رحلتنا الافريقية

قال فرغوسن اذا اعتبرنا ذلك بالنظر الى المسافة فنكون قد قطعنا نصف الطريق واما اذا اعتبرناهُ نظرًا الى المدة ومكث الريح في سكون فلا اعلم اين يكون نصف الطريق واظن ان الريح مائلة الى العدم

قال يوسف : دع عنا هذا الحديث ولا تتأسف على حالنا فقد نجونا في

مدة سعرنا من كل آفة ومهما جرى لنا فاني ماسك بحبـل الامل ولا تخيب ثقتي بل انا اقول لكما انا سنجد ماء عند الاقتضاء فليطمئن منكما البال وليذهب عنكما كل هجس وبلبال

لما الارض فكانت آخذت بالانحصاص من ميل الى ميل والعوج الذي للجبال كان ينتهي عند الرمال . فقام هناك الحشيش المتفرق مقام الاشجار الحميلة الكائنة في الجهة الشرقية ومن النباتات ما كان قريباً من العرق في نحو تلك الرمال وصخور كثيرة متساقطة من جبال بعيدة قد تحطمت في سقوطهـا وتبعثرت حصى مسنونة في تلك البادية وستذوب وتصير رملاً خشناً وبعدهُ تحولها حرارة الشمس الى حبّ ناعم للغاية

قال العلامة . هناك يا يوسف افريقية كما كنت تتصورها ولذا قلت لك انهُ يلزمك ان تشدد حبل صبرك وثباتك

قال يوسف : نعم سيدي ان ذا امرٌ طبيعي حرارة ورمال وهل يليق ان نطلب شيئاً آخر في مكان كهذا ثم قال ضاحكاً اعلم اني ما كنت اثق كثيرًا بغناك واحراشك لان في ذلك تناقض وهل يا ترى تحملنا العذاب والشقاء لنأتي من بلادنا ونجد هنا نضارة اراضينا وبساتيننا فهذه هي المرة الاولى التي فيها ارى ذاتي مقيماً في افريقية حقيقة ويسرني ان اذوق شيئاً من حلاوة مقرّها

وعند المسـاء قرر العلامة ان المنصورة لم تخطُ عشرين ميلاً في ذلك النهار الشديدة حرارتهُ ولما توارت الغزالة في طي الغسق خيم تلك المفازة ظلام مدلهم وسحن معًا

وكان الغد نهار الخميس وهو اول يوم من ايام شهر ايار اما الايام فكانت تلي بعضها بعضاً بسياقٍ واحد من شأنه ان يلقي المسـافرين في وهدة القنوط

واليأس وكل صباح يماثل الصباح الذي عبر . وما زالت الشمس عند الظهر ترميهم باشعتها القادحة والليل يزيد الحرارة ثقلاً والهواء قد اضحى تنفساً لا نسمة وخيل انهُ عما قليل سيزول ذلك النفس الطفيف من تلقاء ذاته

اما العلامة فرغوسن فاضمر في قلبهِ تلك شعائر الكدر التي دهمتهُ من جراء تلك الحالة المفجعة وما برح متمسكاً بسيما الطمانينة والرواق كانسان محنك قد تمرَّن على اقتحام الاخطار وخوض المنايا وكان باحثاً منظرته ويتطلع في مراكز الآفاق كلها علهُ يصادف ما يهديهِ الى منبع ماء فما شاهد الا اقطاع الآكام والاراضي النباتية وانبساط الرمال كبحرٍ طامٍ لا نهاية لهُ

ثم هاجمتهُ افكار المسئولية التي تحملها على عاتقهِ بسبب مرافقةِ ديك ويوسف اعزّ اصحابهِ الذين اقادهما بقوة الصحبة او الخدمة . فتلاعبت في ميدان دماغهِ جيوش الافكار واطرق برهةً وإن لم يظهر على نفسهِ ادنى ارتباك فسأل نفسهُ هل تصرف حسناً باقدامهِ على تلك الرحلة الجوية وهل لم يسلك طريقاً محرمة او لم يحاول في سفره مجاوزة حدود الاستحالة وهل لم يترك الباري سبحانهُ وتعالى لاجيال متأخرة معرفة تلك البلاد المجهولة

فصدمتهُ هذه الظنون وتحللت عقلهُ في وقت واحد كما يحدث للمرء في ساعة ييأس فيها من الخلاص . وإذ لم يستطع ان يُشتت جيوش الهموم الواثبة عليهِ قد كاد ان يخرج من حدود الرشد والصواب وبعد ان تقرر في عقلهِ ما وجب عليهِ اهمالهُ قبلاً احد يهتم بما يجب عليهِ فعلهُ ساعتئذٍ فقال في نفسهِ . هل يا ترى هوامر مستحيل الرجوع الى الوراء ام هل ليس في طبقات الجوّ العالية مجاري رياح قادرة ان تدفعهُ الى بلاد اقل محولاً وجدباً . فانهُ قد عرف الاصقاع التي مرّ بها لكنهُ جاهل الاماكن التي يتجه اليها ولما ضايقهُ ضميرهُ عزم على ان يشرح لرفيقيهِ واقعة الحال كما هي بمطلق الحرية . فبسر لهما الامر جليّاً

ودكرهما بما قد تم من العمل واوضح ما بقي عليهم منهُ واكد انهم بحصر المعنى قادرون على الادبار والرجوع الى الوراء وبعد ان فرغ من شرحهِ التمس منهما ان يعرضا لهُ رأيهما

فقال يوسف . ليس لي رأيٌ سوى رأي سيدي وما هو مزمع ان يكابدهُ من المشقة ساكابدهُ انا ايضاً باكثر جرأةٍ وبسالة منهُ والى حيثما سار اسير انا والى حيثما مضى مضيتُ معهُ

فقال العلامة : وانت يا ديك

قال ديك : اما انا يا حليلي صمونيل فلست بقاطع حبل الامال ولعمري قبل ان اقدم معك على السفر لم اعقل قط عن احطـارهِ ومخاوفهِ ولكني عزمت على ان لا اكترث بهذه الاحطار ولا اعتبرها طالما رأيتك قائماً فيَّا . فانا لك حتماً ونفساً واما رأيي في الحالة الحاضرة فهو ان نداوم رحيلنا وننتهي الى الغاية واظن ان احطار الرجوع الى الوراء تضاهي احطار التقدم الى ما قدام . فهيا اذاً على المسير وثق بصداقتنا نحن الاثنين

فتحرَّك قلب فرغوس من مثل ذلك الكلام وقال : عافاكما الله يا صاحبيَّ الاحقاء . فهذا الذي كنت أُوملهُ من حبكما وتعلقكما بصداقتي وقد اجدبني كلامكما شجاعةً وبسالةً فاشكر معروفكما وحبكما

ثم قبض ثلاثتهم بعضهم على يد بعضٍ دلالةً على تجديد مباني المحبـــة والوداد والامانة

فاستتلى فرغوس كلامهُ وقال : انصتا لمقالي يا رفيقيَّ . انهُ بموجب تقويمي لسنا بعيدين عن حون غوينه اكثر من ثلاثمائة ميل فلا يمكن ان تكون الصحراء بلا نهاية حيث ان ساحل غوينه كثير السكان ومعروف لحد مســـافة بعيدة من البحر المحيط . فاذا لزم الامر ذهبنا الى تلك الجهة ومن المستحيل ان

لا نصادف في طريقنا بئرًا او عوطةً لنجدد زاد الماء . ولكن ما نحن في احتياج اليه الان انما هو الريح التي بدونها نستقر ثابتين وجامدين في الفضاء .

فقال الصياد : صبرًا جميلًا يا خليليّ

صبر ذلك النهار المستطيل وهم ينتظرون حركة في الجوّ فلم يظهروا بعلامةٍ تلقي في قلوبهم شعاعًا من الامل بل توارت الشمس وراء الافق وهي ترمي رمل الصحراء باشعتها النارية

فانعتق فرغوس مائة وخمسة وثلاثين قدمًا مكعبًا من الغاز لاضرام نار القصبة مع انهم لم يسيروا سوى نحو خمسة عشر ميلًا وزوّدوا لهيب عطشهم بكمية من الماء تبلغ نحوًا من لترين

ثم حاز الليل سكون عظيم ولم يظهر للعلامة رقاد

## الفصل الثالث والعشرون

في مناقشة فلسفية وظهور السحابة في الافق وظهور قمة ثانية
ومشاهدة آثار قافلة وآثار ماء في الصحراء

فلما اصبح الصباح واشرق نور الشمس الوضاح ما زالت السماء رائقة نقية لا حراك في الفضاء فارتفعت المنصورة الى علو خمسمائة قدم وما لكاد انتقلت قليلًا الى الجهة العربية

فقال العلامة هوذا نحن في قلب المفازة وها هي بحور الرمال الطامة تحت اقدامنا. ويا للعجب كل العجب لما هذا النظام العريب في الطبيعة ولما يا ترى يبست الزرع هناك بالقرب من حدود الرمال وهنا هذا القحل والجدب مع ان الاراضي هي في خط عرض واحد ومرمية بالاشعة نفسها

قال ديك . ايها الخليل ان علة ذلك ليس من شأنها ان تقلقني وان ما يهمني انما هو الحال الذي نحن عليه فلا اهمية لخلافه

قال العلامة : دعنا نتفلسف قليلًا على ذلك فان التفلسف لا يجلب علينا اذية

قال ديك . هات نتفلسف ما تشاء فان الوقت طويل ونكاد نمشي في هذه الافلاء . وكأن الريح حاشية الهبوب او راقدة في سرير الراحة

قال يوسف . اما انا فاشركا انه لا يطول بنا الحال لاني ارى سحابة في الجهة الشرقية

قال العلامة : نعم وفي الصواب تكلم يوسف

قال ذلك . ولكن هل ترى تلك هذه السحابة وتأتينا بمطر وريح نافعين

قال العلامة: سنرى ذلك في وقته

قال يوسف: غير ان اليوم هو الجمعة فقلما اثق بايام الجمعة

قال العلامة: ان شاء المولى سيذهب عنك اليوم هذا الوهم الباطل

قال يوسف وهو يمسح العرق الوافر السائل من وجهه حمدا ولكن أُقرّ ما هذه الحرارة الشديدة . نعم ان الحرارة نافعة وخصوصاً في الشتاء ولكن في الصيف على المرء ان يتحرز منها على قدر استطاعته

فسأل الصياد فرغوس وقال هلاَّ تخاف ان تضر حرارة الشمس القادحة نفتنا

قال كلاَّ يا صديقي لان المادة الصمغية التي طلي بها القماش الحريري تحتمل حرارة عظيمة جداً فقد وصلت احياناً حرارة القصة الى مائة وثمانية وخمسين درجة انكليزية ولم يتأثر منها غطاء القبة الداخلية الصغيرة

اما يوسف فكان بصرهُ حاذاً ويرقب الاشياء باحسن تمييز من المطرات فقال وهو ينظر الى السماء . انها سحابة في الحقيقة يا حليليَّ

فكانت هذه السحابة متعمقة في السماء كثيفة متجمعة من غيوم صغيرة ولكن لم تتغير قط هيئتها ومن هذا استنتج العلامة ان ليس فيها ريح تحركها

وقد تراءت في الافق منذ الساعة الثامنة صباحاً ومع ذلك لم تتقدم قبالة الشمس الاَّ بعد الساعة الحادية عشرة ثم توارت وراء هذا الستار الكث وفي تلك الساعة انفصل من هذه السحابة الغيم الاسفل متبعداً عن خط الافق الذي تلألأ على اثر ذلك نوراً وبهاء

قال العلامة ان هذه السحابة منفردة فلا نثق بها انظر اليها يا ديك أليست هيئتها كما كانت صباحًا

قال ديك . لعمري لا تزل كما كانت وعليهِ لا ارجو منها ريحًا ولا غيثًا عسى انها تدحرجها لغيرنا

قال العلامة : هذا ما احشاهُ حالة كونها في علوٍ شاهق

قال ديك ايها الصديق صامونيل هلمَّ بنا نلاقي هذا الغيم الذي لا يريد ان ينشر علينا لواء سحائبه

قال العلامة . اظنُّ انا لا نجني من هذا العمل ثمرة البتة بل نزيد انفاقًا للغاز ومن ثمَّ للماء . ولكن نظرًا لحالتنا الحاضرة فلا يسوغ ان نهمل شيئًا عسى ان يكون فيه خيرٌ لنا فهلموا بنا نطلع

ثم اورى رماد لهيب القصبة فانتشرت الحرارة وللحال صعدت القبَّة بقوة الادروجن الممدَّد

ووصل الى السحابة في علو الف وخمسمائة قدم ودخل في ضباب متكاثف ودام حفظهُ برهةً في تلك الطبقة ولكن لم يجد فيها ادنى مهب ريح حتى وكانت خالية من الرطوبة وما لكاد ترطبت الاشياء التي لمستها . اما المنصورة فلما اقتحمت ذلك البخار جرت مشيًا باكثر سرعة من الاول ولكن بنوع زهيد جدًا وهذه كانت الفائدة الوحيدة من الصعود الى السحابة

وفيما كان العلامة يتأمل بكدر ما حاز من النفع الطفيف في ارتقائه الى الاعالي واذا بيوسف قد صاح متعجبًا وقال . واعجبا واعجبا

فقال لهُ سيدهُ : وما الذي تراه

قال يوسف . مولاي وسيدي ديك ما بالكما لا تنظران الى الامر العجيب الغريب

قال ديك : وما هو قل عاجلا

قال يوسف : اعلما انا لسنا وحدنا في هذا الخلاء . بل هنا لصوص سارقة قد قلدونا في صنعتنا

قال ديك لفرغوس : وهل يا ترى اصابه جنون

ثم شخص يوسف صامتاً متـأملا بالاندهاش والانذهال فنظر اليه فرغوس وقال : هل تكون الشمس قد فعلت في دماغه واختلَّ منهُ العقل

فقال ديك ليوسف أ لا تقول لي اخيرًا

فقال لهُ يوسف . انظر يا ديك

ودلهُ على مركز في المسافة الجوية

فصاح ديك مندهشًا وقال . لعمري هذا مما يوجب الانذهال . تطلع يا صامونيل تطلع

فقال العلامة بسكون نصرت يا رفيقيَ ما تنظر اليهِ

قال ديك : قبة مثل قبتنا ومسافرون مثلنا ايضًا

في الحقيقة كانت قبة هوائية تحوم في الهواء بحركتها ومسافريها وذلك بعيدًا عن المنصورة بنحو مائتي قدم وهي تتبع الطريق التي هم سالكوها

فقال العلامة لم يبقَ لنا الآن نقرا عليها السلام بالدلايل والاشـارات خذ يا ديك رايتنا وانشر الوانها بارائهم

فالظاهر ان المسافرين المقيمين في تلك المركبة فكروا كما فكر هؤلاء . في دقيقة واحدة لان الراية ذاتهـا اعادت الاشارات والحركات نفسها التي ابداها الصياد

فقال ديك : وما المعنى بذلك يا فرغوس

قال يوسف : انما هم سعادين يهزأون بنا

فقال العلامةضاحكاً : المعنى به انك تفعل هذه الاشارات لنفسـك يا ايها الخل الوفي وتأويل ذلك انا نحن انفسنا في تلك المركبة والخلاصة ليس تلك القبة الّا مصورتنا

قال يوسف : سيـدي من بعد اداء الاحترام الواجب لحضرتك اقول لك اني لاجد كلامك بعين الصدق بل اعده هزءاً منك

فقال لهُ العلامة قف على طرف المركبة يايوسف وحرك ذراعيك فتحقق صدق مقالي

ففعل يوسف ما امرهُ به سيده وشاهد حركاته قد أُعيدت تماماً

فقال العلامة : انما هذا لعمرُ وهو حادث بسيط من حوادث انعكاس النور ومسبب من تحجل الهواء الغير المتساوي الحاصل في طبقات الجوّ والسلام ختـام

قال يوسف . ولا اعجب عندي من ذلك

وكانهُ لم يشاء ان يصدق هذا المقال فراجع حركاته تكراراً بانواع مختلفة

قال ديك . ولا اغرب منـهُ فانه يدهش النظر وقد قرت منا الخواطر لمشاهدة مصورتنا وجهاً بازاء وجه . ألا تقران يا صديقيَّ وقفكما المولى انها ذات هيئة لطيفة وهيبة مبيقة

قال يوسف كيفما فسرت وشرحت فان الحادثة من اعجب العجاب

وما لبثت صورة القبـة ان اخذت في الاندثار رويداً رويداً ثم ارتفعت السحابة الى علو باسق وهجرت المصورة فلم تحـاول هذه ان تتبعها ومضت ساعة من الزمان واذا بالسحابة قد توارت عن العيان

واما الريح الطفيفـة فانتقصت قليلاً فقليلاً وكادت تدخل حيز العدم وعندها اقترب العلامة الى الارض ايضاً

وقد كان منظر القبة سلا عنهم الهم والفكرة في احوالهم ولكن لما توارى عن النظر رجعوا الى ما كانوا عليه من الافكار المحزنة وهم يكابدون حرارة عطشية حداً

وعند الساعة الرابعة بعد الظهر اشار يوسف الى وجود شيء نادر فوق نحو الرمال وما لبث ان عرفهُ جيداً وهو نختان نابتتان على مسافة غير بعيدة

فقال العلامة . اذا وجد نخلٌ فلا بدَّ من وجود نبع ماء ام بئر بالقرب منها ثم احد المطرة واكد تخمين يوسف

فصاح حينئذٍ قائلًا : ها الماء والحمد لله ها الماء فلا شكَّ انهُ واحد هناك وكيفما سرنا فسنصل اليه في نهاية الامر

فقال يوسف : ولحالة هذه أيحسن لديك ان نشرب شربة لسيما نبلغ الماء لان الريح قاطعة منا النفس

قال العلامة . فلنشرب اذاً يا صاح

فشربت ثلاثتهم ليترًا كاملًا ولم يتبقَ لهم بعدُ الّا ثلاث ليترات ونصف لا غير

ثم قال يوسف : يا ما الذّ الماء وانفعها لعمري لم اذق قط في حياتي لذةً في الشرب كاللذة الحالية

قال العلامة : هذا ما يجديه الامساك من المنافع

ولما كانت الساعة السادسة حامت المنصورة فوق النخلتين

فلما تأملوا بهما رأوهما شجرتين نحيفتين يابستين شبه شبح بلا لحم لانهما خاليتان من الاوراق ومائلتان الى الفناء اكثر منهما الى البقاء

اما فرغوس فخالج صدرهُ الاضطراب عند ما حدّق نظرهُ فيهما

ثم انصروا تحت اقدامهم حجارة بئر مركورة بلا ترتيب وقد ضربت

اشعة الشمس القادحة تلك الحجارة فكادت تحوّلها الى رمال ناعمة جداً ولم يروا للرطوبة من اثر . فانقبض قلب صموئيل من ذلك المنظر ولقد كان كشف لرفيقيه ما يضمره من الخوف لو لم يسمع تأوُّههما وهتافهما فانتبه ورأى عن بعد في الجهة الغربية خطاً طويلاً مرسوماً من عظام مبيضة وشاهد حول النبع كوماً من تلك العظام فعلم من ذلك ان قافلةً وصلت الى ذلك الحد من الصحراء والذين كانوا ضعفاء فيها سقطوا على الرمل قليلاً فقليلاً واما الاشداء فبعد ان كابدوا اقصى التعب وجرُّوا انفسهم الى تلك العين قضوا عندها نحبهم وذاقوا كأس حمام المرة

فنظر المسافرون بعضهم الى بعض وقد علا الاصفرار وجوههم

فقال ديك : لا ننزلنَّ الى هنا بل فلنهرب من هذا المشهد المهيل النكد فان البئر هذه لا تحوي نقطةً من الماء .

قال العلامة : كلاّ يا ديك يلزمنا ان نقف على الحقيقة لئلا تتشوش ضمائرنا فيما بعد ويدركنا الندم فسيان ان قضينا ليلتنا هنا او في محل آخر . وقد قام نبع ماء من زمن مديد في هذا المحل عسى ان يكون له اثر الى الان

فحطت المنصورة على الارض ووضع يوسف وديك كمية من الرمل موازنةً لوزنهما وترلاعن المركبة مبادرين الى البئر فدخلاها بدرج امسى رملاً ورأيا ان العين ناشفة من سنين عديدة وحفرا قليلاً في الرمل الناعم فلم يظفرا اثراً للرطوبة

ثم طلعا من الجب متوجعين بإكليل من العرق على جبينهما مكسوري القلب والخاطر والرمل اذ ذاك قد غطاهما وولت الشجاعة مدبرة وقام مقامها القنوط واليأس

فلما نظر اليهما العلامة عرف علة فائدتهما من النزول الى البئر وقد كان

عالمًا بذلك من قبل وشعر في ذاته بانه منذ الان وصاعدًا تقتضيه الحال ان توازي شجاعتهُ ومروّتهُ شجاعة ومروّة ثلاثة رجال

وكان يوسف قد اتى بقربة مقرّبة وملأها وهو عطشان بين العظام المشتتة على الحصيص

وبعد العشاء مُدَّ سماط السكوت التام ولم يتفوه احدٌ بالكلام بل سكتوا جميعًا بكره شديد مع انهم لم يقاسوا بعد شدائد العطش وبوانه ولكنهم قانطون بالنظر الى ما اقبل عليهم من المحن

## الفصل الرابع والعشرون

في العطش وتندم العلامة وانطفاء القصبة ومراقبة الصحراء الشاسعة وانفراد العلامة وسقطته وما نواه يوسف من القصد الثالث

فلم تبلغ المسافة التي حازوها في النهار كلهُ اكثر من عشرة اميال وحفروا للمسير في تلك المدة مائة واثنين وستين قدماً مكعباً من الغار

ولما كان السبت صباحاً تأهب المسافرون للرحيل وبعد برهة احدوا بالمسير

ثم قال : عندنا ما يكفينا مشياً مدة ست ساعات فاذا عبرت هذه المدة ولم نكتشف بئرًا ولا عيناً فالله يعلم ماذا يصيبنا

فقال يوسف : ان الريح طفيفة جدًا يا مولاي

وبعد ما نظر لوائح الخوف والكدر قد علت وجه سيده قال · أومل انها ستهب عما قليل

اما املهم في مهب الرياح فكان باطلًا اذ ان السماء رائقة صافية واشتدت الحرارة كثيرًا حتى ان الترمومتر الانكليزي تحت ظل الخيمة دلَّ على الدرجة المائة والثالثة عشرة

اما يوسف وديك فكانا مضطجعين الواحد بجانب الآخر وهما يحاولان الفرار من الفكرة في تلك الحالة الهائلة سواء بالرقاد ام بالخدر وقد استتاب لديهما الزمان طويلًا مملاً لقلة شغلهما . ولا شيء يجلب الضجر والارتباك طير البطالة اذ لا يستطيع المرء ان يزيل عنهُ ذكر افكاره وروابطه بشغل من الاشغال

وفي ذلك الوقت كان انشغالها متوقفاً على التفكر والتحير في تلك الواقعة المحجة الانكاد وليس ما يلهيهما عن تصورها نصب اعينهما

ثم علق العطش يديقهم مرَّ العذاب والشقاء والعرق الباقي لم يكن من

شأنه الآن يريد كبدهم التهاباً وفي الحق والصواب يدعونه اهل افريقية حليب التمورة. وما كاد كان باقياً نحو لترين من الماء السحن فكب ثلاثتهم يحدقون بصرهم بتلك القطرات الثمينة دون ان يجسر احدٌ منهم ان يبل بها طرف ثغره فيا لها من حالة هائلة ترتعد منها الفرائص وترتاع منها القلوب اذ لم يبقَ معهم من الماء الّا تلك الكمية الجزئية وهم مع ذلك لم يزالوا في قلب الصحراء

فغاص فرغوسن لجة الافكار ودهمتهُ الهواجس والقلق فلم يستطع ان يشحذ لها الاسنة للقتال فسأل نفسهُ قائلاً يا ترى هل تصرفتُ حسناً في اموري أما كان يوافق غرضي لو حفظتُ ذلك الماء الذي خليتهُ هدرًا الى غاز الإدروجن لكي الث مستقرًا في العلاء نعم اني سرت بعض السير ولكن ما هي المسافة التي جزتها فانها لا تستحق الذكر والاعتبار. فلو بقينا في الوراء بمسافة نحو ستين ميلًا فما الذي يكان ضرّنا حيث ان الماء فرغ الان في هذا المكان وان قامت الريح ألا يا ترى تهب هناك كهبها هنا ولربما يكون هنا باقل خفة اذا هبت من الشرق. الّا اني مشيت طمعًا في نوال الأرب ولكن ما انفقتهُ من الماء الكثير كان كافيًا لان استقرّ مدة تسعة ايام في هذه الصحراء. فما اطول تسعة ايام ومن يعلم ماذا كان قد طرأ في مدتها من الحوادث. عير انهُ ربما لو حفظت الماء لوجب عليَّ الارتفاع بالقاء شيء من الثقل وعند رولي كنت افقد غازًا جريلًا فغاز القبة هو دمٌ وحياة لها

فتصادمت هذه الافكار في عقله فيما انه يقبض على راسه بيديه متأملًا مدة ساعات برمتها

ولما كانت الساعة العاشرة صباحًا قال في ذاته لا بدَّ ان امتحن امرًا في آخر الامر لعلهُ خيرًا. فها اني اصعد الى العلاء لاستقصيَ طبقةً تحوي مهب

ريح تدفع قبتنا الى قدام ولا بدَّ لي من هذا الامتحان ولو اعقبتُ الماء التي هي غاية حيلتنا

وفيما كان رفيقاه راقدين اضرم نار القصبة واستدارت القبة لامتداد الادروجين وارتفعت بخط مستقيم بما عظم من السرعة فسعى العلامة في ان يجد مهبًّا من علو مائة قدم الى علو خمسة الاف قدم لكنَّ سعيهُ ذهب هدرًا ولم يستفد شيئًا وتبين لديه ان الريح عديمة الوجود حتى وفي اخر حدود الجوّ

ونفد الماء اخيرًا وامتنع حفظ النار وطُفيت القصبة لنفاد النار واصبحت آلة مدن لا فاعلية لها ثم تقلصت القبة الهوائية واخذت في النزول رويدًا رويدًا على الرمل في نفس المكان الذي طلعت منهُ

فانتصف النهار وهم في درجة ١٩°٣٥ طولًا و٥١°٦ عرضًا بعيدًا عن بحيرة شاد بنحو خمسمائة ميل وعن جهات افريقية العربية بنحو من اربعمائة ميل ونيف

فنزل ديك ويوسف الى الارض وذهب عنهما الخدر

ثم قال الصياد: وقفنا اذًا يا خليليَّ

فاجاب العلامة بصوت الهيبة - لا بدَّ من الوقوف

ففهم الرفيقان مآل كلامهِ وكان سطح الارض على مساواة سطح البحر لسبب انخفاضهِ هناك ولهذا وقفت القبة في موازنة تامة وعدمت الحركة على الاطلاق

وبعد ان وضعوا فيها رملًا موازيًا لثقلهم نزلوا الى البر وهم غائصون في معاور الفكر ولبثوا ساعاتٍ لا يتحادثون ولا يتفاوضون في امر . ثمَّ هيأ يوسف العشاء وكان لحمًا وكعكًا وغب ان اكلوا شيئًا يسيرًا شرب كلٌّ منهم جرعة من الماء السخن

ولما جنَّ الليل وبدد الدجى ضياء النهار لم يسهر احد لحراسة القبة ولكن لم يرقد ايضًا احد لشدة الحرارة واشتغال الفكر. ولما اصبح الصباح اخذ فرغوسن نصف لتر الماء البــاقي ووضعهُ جانبًا وقصدوا ان لا يمسوهُ الَّا وقت الحاجة القصوى

فما مضت برهة الَّا قال يوسف أُفٍّ اواه لقد ضاق صدري من الحرارة المتزايدة

ثم تطلع في الترمومتر وقال: لا عجب من ذلك فان الحرارة في درجة مائة واربعين

فقال الصياد: ان الرمل يلهب الاعضاء ويحمل البدن كأنه خارج من اتون ناري يا رباه ما هذه الحال فانا لا ارى اثرًا لسحابة في السماء لعمري ان ذا مما يزرع العقل ويبلي بداء الجنون

قال العلامــة: لا تقطعنَّ حبل الرجاء يا رفيقيَّ لان مثل هذه الحرارة يعقبها دائمًا رياح عاصفات في مثل هذه القطعة من الكرة ويكون قدومها سريعًا كالبرق اللامع وان كانت الان السماء في صفاء ورواق عظيم فمع ذلك يمكن حدوث تغيير مهم باقل من ساعة

فقال ديك: ولكن لا بد من ان يسبق ذلك دليل ام اشارة

فقال العلامة: اني ارى ميزان الهواء مائلًا الى انخفاض في الزيبق

قال ديك: اجاب الله دعاءك يا خليلي صموئيل لانا قد تسمرنا في هذه الارض كطير مكسور الجناح

قال فرغوسن: ولكن هنا فرق بيننا وبين الطيور يا ديك لان اجنحتـــنا لا زالت غير ممسوسة ولم يضر بها شيء وأُومل ان يتيسر لنا العمل بها بعدُ

فصاح يوسف قائلًا: آه ثم آه من ريح تذهب بنا وتبلغنا الى عين ام بئر

لحينئذٍ لا نعود نحتاج الى شيء .. فان زادنا كافٍ والماء ننتظر شهرًا بتمامهِ ولا نحتمل عداناً واما العطش فهو شرّ مصيبة وبلية

فلم يكن العطش وحدهُ عاملًا على تعذيبهم بل كان عقلهم مضطرًا لمراقبة الصحراء مراقبة دائمة لان الرمال كبحر عطمطم ليس فيها تلٌّ ولا عوجٌ ولا حصاة واحدة لتقف انظارهم عليها . فقد جرح فؤادهم انبساط تلك الفسحة المتساوية السطح واصابهم بالداء المعروف بداء القفار . ولعمري ان النظر الى زرقة تلك السماء غير المتغيرة والتأمل في اصفرار تلك الرمال الجرية المدى مما يفضي بالمرء الى الهلع والرعبة وكانت حرارة الجوّ الملتهب نامية متزائدة وكأنها بارتحاف لهيب الاتون المضطرم واذا ما تأمل العقل بذلك الرواق البليغ خاب منهُ كل امل من النجاة ولم يجد بُدًّا من الهلاك في هاتيك الطلول ولا مجال لدهمه ما من شأنهِ ان يفرح همهُ لان الاتساع المديد نوعٌ من الابدية

ولهذا لما فرغ الماء عند المسافرين الثلاثة وهم مقيمون في تلك الصحراء الحارة احدوا يشعرون بالتصورات الغريبة الخالية من الصواب وقد كدرت عيونهم واضطرب بصرهم

فلما رأيت اصحة الظلام وخيم العسق قد عزم العلامة على ان ينقض تلك الحالة المقلقة بسيرٍ سريع . فاراد ان يطوف تلك الصحراء مدة ساعات لا للاستقراء بل للمشي

فقال الى رفيقيهِ - هلما بي يا رفيقيَّ لنسير مدةً لان المسير يجدينا نفعًا جزيلًا

قال ديك : انك تطلب مني امرًا مستحيلًا لاني لا استطيع ان اخطو خطوة واحدة

قال يوسف : احبُّ عليَّ الرقاد يا مولاي

قال : ولكن سيحلب عليكما الرقاد او الراحة صرداً يارفيقيّ . فانقصا اداً هدا الحمود والارتخاء وتعاليا معي عشي . ما ناكما لاتسمعان

فلم يجبهُ رفيقاهُ على سؤالهِ ولدا دهب وحدهُ يمشي في تلك الليلة الشعاقة المتلألئة بالنجوم والكواكب المرصعة في القبة اللازوردية . ورأى حطواتهُ الاولى مصكة لهُ حدًّا اد انها حطوات انسان واهن لم يمارس المشي من رهة طويلة لكنهُ علم انهُ يجني نفعاً من هده الرياضة فسار نعض الاميال نحو الجهة العربية واخد عقلهُ يتشدد وادا نجأة اصابهُ داء الأوام ( هو دوار الرأس ) فظنَّ في نفسهِ انهُ على حافة الهاوية وان ركبتيهِ انثنتا والقت الصحراء في قلبهِ رجعة الرعب والهلع . فتوارت المنصورة عن عينيهِ في حلكة الظلام وثقلت على راسه احمال الخوف والفزع وهو المساعر المشهور في الشجاعة والجراءة فحاول الرجوع الى الوراء ولكن كان سعيه باطلًا ثم نادى فلم يجبهُ احد حتى ولا الصدى وسقط صوته في الفضاء كما يسقط حجر في هوة لاقياس لعمقه ثم ارتمى على الرمل مصطجعاً حائر القوى وليس له رفيق في وسط ذلك القفر الصامت المخيف

وعند انتصاف الليل عاد الى حواسهِ وهو بين يدي يوسف خادمهِ الامين لانهُ اي يوسف لما رأى ان قد طالت غيبة سيده احده القلق وهرول حالًا يتبع اثاره المطبوعة على الرمل لحلاء . ثم فوجده مغشياً عليهِ

ولما افاق قال لهُ : ما الذي اصابك يا مولاي

فقال لهُ العلامة : ليس ذلك شيئاً بل هو ضعف وقتي

قال يوسف : نعم ليس ذلك شيئاً ولكن انهض واستند عليَّ لنرجع الى منصورتنا

فاتكأ العلامة على ذراع يوسف وعاد في الطريق التي سلكها قبلًا

فقال يوسف . لِمَ خاطرت بنفسك يا تعسي بلا فطنة

ثم قال ضاحكاً ورعا كنت تشلحت من اللصوص ولكن ما لنا ولهذا الحديث فلنتكلم بجدّ

قال العلامة . قل يا يوسف ما بدا لك فاني مصغ لكلامك

قال يوسف : لا بد من ان نعمد لعمل لان حالتنا لا تدوم على هذا المنوال اكثر من بعض الايام واذا لم تمر الريح عاينا عهها هلكنا لا محالة

فلم يأتِ العلامة بجواب

فاستتلى يوسف كلامهُ قائلا يجب ان واحداً منا يبذل نفسهُ حبّاً برفيقيهِ ومن الصواب ان اكون انا ذلك الواحد

قال فرعوسن : وما المراد بقولك وما هو قصدك يا يوسف

قال يوسف . انما هو قصد سهل جداً فاني احد معي زاداً وامشي دائماً الى ان البلغ مكاناً في غصون ذلك اذا افتقدنا المولى بريح موافقة فسافروا ولا تنتظراني واما انا فاذا وصلت الى قرية اقضي مصلحتي بعض كلمات عربية احدها منك حظاً فاما اني اتيكما بالمساعدة اللازمة واما اني اترك جلدي هناك فما قولك دام فضلك

قال العلامة . ان قصدك حال من التعقل والفطنة لكنهُ جدير بشهامة قلبك يا يوسف فان ذا الامر مستحيل ولا نتركك تذهب عنا

قال يوسف : سيدي لا بدَّ من ان نمتحن امراً فان هذا لا يجلب عليك مضرة لاني اقول لك تكراراً انك لا تنتظرني عند هب الريح وفي حصر المعنى انا ارجو النجاح في مصلحتي

قال العلامة . كلاَّ ثم كلاَّ يا يوسف فلا نفترق اصلاً بعضا عن بعض

لا الافتراق يريدنا عمّا على همّ فانهُ قد كُتب ما حرى لنا وربما قد كتب ايضاً انه سيحدث حلافهُ في المستقبل. علينا اذاً ان ننتظر بصبرٍ جميل

فاصبر لصيفٍ بك يوماً نزلا لم يلبث النازلُ ان يرتحلا

قال يوسف فليكن كما قلت يا مولى. ولكن دعني اقول لك اني لا اصبر ما ناف عن يوم واحد ها قد بلغنا يوم الاحد او بالحري الاثنين لانها الساعة الواحدة من بعد انتصاف الليل فاذا مضى الاثنين ودخل يوم الثلاثاء ولم عش باشرت قصدي لا محالة

فما احاب العلامة الى مقال خادمه وبعد قليل بلغ المصورة وجلس في قاربها بالقرب من ديك الذي كان غائصاً في بحر السكوت المطلق ولو انه غير نائم حقيقةً

---

## الفصل الخامس والعشرون

في اشتداد الحرارة ووقوع احر نقطة من الماء وليالي اليأس ومحاولة ديك قتل نفسه وهبوب السموم

فلما اصبح الصباح في اليوم الثاني كانت اول نظرة العلامــة الى ريق الميزان ورأى انهُ ما كاد انخفض انخفاضاً طفيفاً

فقال في نفسه : ما من شيء جديد

فخرج من المركبة وتطلع في الجوّ ليفحص عن حالة الهواء فلم يجد سوى الحرارة نفسها والقساوة المألوفة في الجوّ وثبوت الحال على المنوال القديم من دون دليل ينبئ عن تغيير قريب الامد

فصاح حينئذ قائلاً · وهل اذاً يجب علينا قطع الامل على الاطلاق

اما يوسف فكان صامتاً غائصاً في عمق افكاره ومتأملاً عما صممهُ من القصد الثابت

اما ديك فاستفاق من النعاس مريضاً وقد تشددت قواه الحيوية بنوع خارق العادة فكلفهُ العطش بسلاسل نوائبه وصده انتفاخ لسانه وشفتيه من التفوه بالكلام

وقد ذكرنا فيما مضى ان نقطات من الماء كانت لا تزال محفوظة في آنية والرفاق الثلاثة لهم علم بها فحملوا يرددونها في افكارهم وقلوبهم مشتاقة اليها اشتياقاً عظيماً دون ان يجسر احد على الارتشاف بها

ثم ابتدأوا ينظرون بعضهم الى بعض واعينهم زائغة تائهة وقلوبهم مفعمة حرصاً وحشياً وكان ديك على الخصوص حاملاً كل الخمول لاستمساكه عما لا يطيق المرء الاستمساك عنهُ فقضى النهار كلهُ غائصاً في بحر الهذيان وهو

ذاهبٌ آيب ويضج باصوات البحة الخشنة ويعض قبضة كفه وكأنك به قد تأهب لفتح عرقه ومص دمه

ثم صاح قائلاً : ويلاه ويلاه من هذه البلاد بلاد العطش والجفاف فالاصح ان تُدعى بلاد اليأس والقنوط

قال هذا وسقط على الارض واهناً منحط القوى ولم يسمع لهُ سوى صفير تنفسه بين شفتيه الطامنتين

وعند المساء تُلي يوسف ايضاً بـداء الجنون فخيل لهُ ان الصحراء الشاسعة تحاكي بحيرة عظيمة فيها ماءٌ رائق صافٍ فجعل يرتمي مراراً على تلك الرمال الملتهبة ليرتشف منها وكان ينهض عاجلاً وشفتاه ملوثتين بالتراب

فحينئذ كان يقول لها بغضب وحنق . ويلاً وتعساً لكِ يا ايتها البحيرة المشؤومة فان ماءك مالحٌ للغاية

وفيما كان العلامة وديك متمددين لا يبديان حركة طرق يوسف فكرٌ ان يأتي ويروي غليل ظمائه بتلك النقطات المحفوظة من العلامة الى ساعة الضيق الاخيرة فوثب على المركبة زاحفاً على ركبتيه وكشف الانية الحاوية ما فضل من الماء واذ حدق فيها عينيه اخذها بيده وحملها على ثغره

في الساعة والحال سمع صوتاً قادحاً متقطعاً يصرخ ويقول . اسقني اسقني

فما كان هذا الّا صوت الصياد الذي رأى يوسف يشرب الماء فدبَّ متقلاً اليه وحتى امامهُ على ركبتيه باكياً فتحرَّك قلب يوسف شحاً وشفقةً وبكي هو ايضاً وناول ديك الانية فاوعبها الصياد في فيهِ الى اخر نقطة منها

ثم قال ليوسف : اشكر فضلك يا خليلي وعزيزي

اما يوسف فلم يسمعهُ اذ سقط على الرمل واهناً وغاب عن حواسهِ

فى يا ترى يعلم ما جرى في تلك الليلة الهائلة . . ولما اصبح الثلاثاء استيقظ الرفاق الثلاثة وكانت الشمس كرشة تصبُّ نارًا عليهم ورأوا اعضاءهم آخذة في الجف واليبس رويدًا رويدًا ولما اراد يوسف ان يقوم على قدميهِ لم يستطع حراكًا ولهذا اضحى لديه من المستحيل ان يتمم ما نواه من العمل

ثم حال بصيبهِ حولهُ فشاهد العلامة جالسًا في المركبة محطّ القوى مكتّف اليدين على صدره وهو يشخص في المسافة شخصة لله نظر الى نقطةٍ خياليةٍ . اما ديك فكان مطروحًا يهيل النصر وهو يحرّك رأسهُ ذات اليمين وذات الشمال كوحش صار محبس في القفص ثم وقف فجأة واحدق بسلاحهِ (القرابينة) الموضوعة في المركبة بالقرب منهُ

وبعدهُ نهض متشددًا بقوة خارقة للطبيعة وقال آه ثم آه . ثم اقبل وانكبّا كالبلو ومحنو واخذ القرابينة واحكم فوهتها على فيهِ

فوثب عليهِ يوسف وقال لهُ سيدي سيدي ما بالك

فقال الصياد شاهقًا دَعني واذهب عني

واخذ كلاهما يتصارعان ويتنازعان

فقال ديك . زُح زُحْ عني والّا لقتلتك

اما يوسف فلبث ناشبًا فيهِ بيديهِ وتصارعا برهةً ولم يلتفت اليهما العلامة وفي غضون القتال أُطلق الرصاص من السلاح بغتةً فدوى الصوت في الصحراء وعندها قام العلامة واجال بصرهُ حواليهِ

وفيما هو على هذه الحال اذا تشدد بصرهُ على العور ومدَّ يدهُ نحو الافق وصاح صارخًا: هناك هناك هناك

وقد خالج تلك الالفاظ حركة حماسة شديدة حتى افترق يوسف وديك

عن عصبهما وحملا يتطلعان الى عصبهما

فكانت الصحراء مصطربة كما يصطرب البحر ويتموج يومَ تقصف فيه العاصفة وقامت امواج مزبدة من الرمال تنتشر وتلتف بعضهـا على بعض وعامود سحابي آتٍ من جنوب الشرق مستديرًا متقلبًا ساريًا بسرعة عجيبـة والشمس اذ ذاك مستترة وراء سحابة كثيفة فارسل ظلها بساطةً حتى المصورة وحبات الرمل الناعمة تكرّ كرور الحزيئات المائعة ولم يزل ذلك الموج الرملي مقبلا اليهم

فاشرقت انوار الامل على قلب فرغوس وتلألأت على محياه

ثم صاح قائلًا - نعما نعما هوذا السموم قد اقبلت

فقال يوسف ولم يفهم معنى ذلك - نعما نعما السموم

فقال ديك بصوت الغضب واليأس دع السموم تهب فانها تذيقنا كأس المنون

فقال له فرغوسن - كلاَّ يا ديك فانها تأتينا بكأس الحياة

وجعل يرمي من المركبة ما كان فيها من الرمال

ففهم اخيرًا رفيقاهُ وشرعا يساعدانه في عمله ثم جلس في المركبة

فقال العلامة - والان يا يوسف اكرم عليَّ بالقاء نحو خمسين رطلًا من معدنك

فبادر يوسف الى اجراء امر سيده مع انهُ شاعر بشيء من الاسف ولذا بالقبة الهوائية علت عن الارض وارتفعت

فقال العلامة: قد حان اوان ارتفاعك يا قبة الخير

فاتت السموم بهبها السريع كالبرق اللامع وكادت عوبتها تسحق المصورة وتلاشيها وقد امطرت عليها الرمال كالبرد

فصاح العلامة الى يوسف وقال . ارمِ بعد من الثقل يا يوسف

فالقى يوسف قطعة كبيرة من المعدن الذهبي

وقال . هوذا رميت فليطرب منك الخاطر

فارتفعت حينئذٍ المنصورة فوق مورة الهواء ولما وصلت الى العلاء انحدرت ساحة على ذلك البحر المزبد بسرعة لا حدَّ لها

فلم يتكلم احدٌ من الرفاق الثلاثة بل كانوا شاخصين ومتأملين وقد بَدتهم ريح العاصفة

وبعد الساعة الثالثة خمد الاضطراب وسقط الرمل على الارض وكوَّم فيها الروابي وعادت السماء الى رونقها الاصلي

عندها وقفت المنصورة عن المسير فحامت بالقرب من غوطة هي كجزيرة خضراء عائمة على سطح ذلك البحر الرملي

فقال العلامة . هوذا الماء هوذا الماء ولا ريب في ذلك

وللحال فتح اللولب الأعلى فانسرب حابسٌ من الادروجين ونزلت القبة حتى لم تبعد عن الغوطة الّا نحو مائتي قدم

ولما المسافة التي جازها المسافرون في برهة اربع ساعات فبلغت مائتين واربعين ميلًا اي زهاء مسافة ١٠٠ ساعة

وبعد دنو القبة من الارض قد نزل ديك ويوسف قافزين عن المركبة فقال لهما العلامة كونا على حذر وخذا معكما المواريد

فوثب ديك على قرابينه وضبط يوسف بارودته وتقدما سريعًا حتى وصلا الى الاشجار ودخلا تحت تلك الخضرة الرطبة فاستبشرا من ذلك بماء غزير لكنهما لم يكترثا ببعض آثار حديثة عريضة رُسمت في تلك الارض الناعمة وفيما هما يمشيان اذا سمعا زئيرًا عن بعد نحو عشرين قدمًا

فقال يوسف · انما هذا زئير اسد

فقال ديك مغتاظاً : دَعهُ يزأر فاني اود معاركتهُ . ترى كم انا اقوياء عند القتال

فقال يوسف : ولكن حذار حذارِ وليرشدك التأني والحرص لان حياتنا نحن الثلاثة متعلقة بخيطٍ بعضها ببعضٍ فاذا دهمت حياة الواحد حصلت حياة الآخرين في خطر

فلم يصغِ ديك لكلام يوسف بل تقدم كأسدٍ ضارٍ وشرار الحماسة والجسارة تقدح من عينيهِ وسلاحهُ مدحور في يديه . في ظل مختفٍ كان سبع ذات ناصية سوداء مستكنّاً كامناً للقتال فما نصر بالصياد الأقفر ليثب عليهِ ولكن ما كاد استوى قائماً حتى بادرته رصاصة خرقت قلبهُ كالصاعقة وجدلتهُ على الارض ميتاً

فصاح يوسف قائلاً · عفاك الله عافاك ياسيدي

اما ديك فبادر الى البئر عدواً ونزل اليه على درج رطب ثم تمدد امام عين ماء بارد وغمس شفتيهِ فيه بلهوجةٍ ثم حذا حذوهُ رفيقهُ يوسف ولم يعد يُسمع لهما سوى لعق الماء ليرتويا من شدة ظمأهما

فبعد ان شرب يوسف تنفس وقال · حذارِ حذارِ ياديك لاتطمعنَّ في الشرب فان الطمع ضرٌّ مانع

اما ديك فلم يلتفت اليهِ بل ما زال يروي غليل عطشهِ وقد غطس في ذلك الماء اللذيذ راسهُ ويديه وكانهُ يحاول التمثل بتلك الخمرة

فقال يوسف . وسيدي فرغوس هلاَّ تفكر فيهِ

فما انتبه الصياد الأعد ذكر العلامة فرغوس وللحال ملأ آنيةً كان قد احضرها معهُ واراد الطلوع على درج البئر

فاندهش اندهاشاً عظيماً اذ وجد فاوهة البئر قد سدها جسمٌ عظيم هائل كثيف جداً ثم ارتدّ يوسف نظيره اذ كان تابعاً له

فقال حينئذٍ . ها قد سجنا في شرّ الحبوس

قال ديك . ويلاه ما المعنى بذلك وما هذا الامر . .

فما فرغ من كلامهِ الّا سمع زئيراً فعرف وقتئذٍ من هو ذلك العدو الباسل السادُّ مدخل البئر

فقال لهُ يوسف . انهُ سبعٌ

قال ديك . كلاَّ بل هي لبوةٌ نحس الله طالعها ولكن فلتصبر قليلاً فعليَّ بتدبيرها

ثم جعل يدخر سلاحهُ بسرعةٍ ونشاط

وما مضت برهة الّا اضرم النار فكان الحيوان قد توارى عن الابصار

فقال الى رفيقهِ : هيا بنا هيا

فقال يوسف كيف نطلع وبعد لم تقتلها رصاصتك لانها لو كانت ماتت لتدحرجت الى هنا وهي الآن واقفة جارحاً ومتأهبة لتثب على من يخرج منا اولًا فهو يكون فريستها ونصيبها

قال الصياد : وما الحالة اذاً وهل نلبث في هذه البئر محبوسين ورفيقـــا وغوس ينتظرنا بفروغ صبر

قال يوسف . فلتجذب الينا الحيوان خذ بارودتي واعطني سلاحك

قال ديك . وما مرادك ان تصنع

قال . سترى الآن

فاخذ يوسف بُردته وجعلها على رأس السلاح واطلعها الى فوق كطعمة للبوة فهجمت اللبوة فكان ديك يترقبها فضربها برصاصةٍ اصابت كتفها

فتدحرجت حينئذٍ على الدرج وهي دائرة وقلت يوسف ظنَّ هذا انها عررت في جسمهِ راسها لتفترسهُ واذا بضربةٍ ثانية اصابت اللبوة فكان اذ ذاك ورعوس قد ظهر على نافذة البئر وبارودته معهُ والدخان منها متصاعد ووحف يوسف من تحت اللبوة وجارمس فوق جسمها واعطى مولاه ورعوس آية الماء في دهشة عين احدها العلامة الى فيهِ واوقع بضمها وحينئذٍ اسدى المسافرون الثلاثة شكرًا جزيلاً من صميم الفؤاد الى عناية الرحمان التي حفظتهم من شر العوائل ونجتهم بنوع عجيب من كوارث الحدثان

## الفصل السادس والعشرون

في الليلة المبهجة وقصة حمس اروس واهعاص البارومتر
وطلوعه والتاهب للرحيل وثوران الزوبعة

فكانت ليلة مبهجة تطرب الخاطر اد قضوها في روضة اريضة تحت ظل اشجار ناضرة بعد ان تناولوا طعاماً لذيذاً قوّى ابدانهم ولم يهملوا شرب الشاي والعرق الممزوج بالماء

وكان قد طاف الصياد تلك الغوطة بجميع آفاقها واستقرأ سائر اجماتهــا وادغالها فلم يجد في ذلك الفردوس الارضي ذاتاً حيوية واذ اطمــأنَّ تماماً قد رقدوا جميعاً ملتحفــين باغطيتهم وذاقوا في نومهم لذة الراحة وولى عنهم مدبراً دكر الهموم والبلايا الغابرة

ولما كان الغد وهو السابع من شهر ايار اشرقت الشمس بانوارها الساطعة فلم تخترق كثيف الاشجار والآجام الملتفة المظللتهم بظلها وقصد المسافرون الاستراحة في تلك الروضــة منتظرين هبوب الريح الموافقة ولم يصدهم عن ذلك مانع اذ كان زادهم جزيلاً وافراً اما يوسف فنقل ادوات مطبخه الى تلك الجنــة وكان يشكل طبخ الاطعمة ويبذر الماء بلا توفير ولا اكتراث

فقال الصياد : يا للعجب من هذا الفرح العجيب بعد ذلك الضيق وهذه الافراح بعد تلك الهموم والاتراح وهذا الربيع بعــد ذلك المحول وهذا الغنى بعد ذلك الفقر فلله درّ من قال·

رأيت الدهر مختلفاً يدورُ فلا حزن يدوم ولا سرورُ

ولعمري لقد ماهزت افتقاد محيلتي في تلك الساعة الهائلة

قال وغوسن : لولا يوسف لما كنت الان نحدثـــا على اختلاف احوال الدهر وانقلابها واقبال الدنيا وادبارها

مدَّ ذيك يده الى يوسف وقال لهُ . خليلي وصديقي لا شلت يداك المحسنتان

فقال يوسف . لايحمل الامر مثل هذا الشكران عليك ان تَرد لي العوض اذا مست الحاجة الى ذلك غيرانهُ اخشى عليّ الّا احتاج الى مثل تلك العارية

قال ورعوس . يا لضعف طبيعتنا وما اسهل انحطاطنا لامر طفيف

قال يوسف : أَلعلك مشير الى القليل من الماء الذي نتلف بدونهِ فهذا دليل الى ان الماء لعنصرٌ كلي الضرورة لحياة الانسان

قال ورعوس لا ريب في ذلك والذين يُحرمون الاكل يحتملون عدمهُ اكثر من الذين يحرمون الشرب

قال يوسف . نعم هذا صحيح اذ انه عند الضرورة يأكل الانسان كل ما يصادفهُ حتى وشبيهُ ولوكان ذا الطعام مما لاتحملهُ المعدة بسهولة

قال الصياد . ان البرابرة لا يفوتهم هذا الامر ولا يصعب عليهم

قال يوسف . أَجل ولكن هم متوحشون و برابرة وقد تعودوا اكل اللحم النيء فهذا مما تشمأز منهُ طبيعتي غاية الاشمئزاز

قال العلامة في الحقيقة ان هذا مما تنفر منهُ الطبيعة نفورًا شديدًا ولهذا لما حمل الى اوربا السواح الذين دخلوا بطون افريقية الاخبار عن بعض اقوام برابرة كانوا يقتاتون لحم نيء باصبع فلم يؤخذ كلامهم على محمل الصدق وفي مثل هذه الظروف وقع لخمس بروس حادث غريب ومضحك جـدًا

فقال يوسف وقد تمدد براحة على الحصيرة العصة : احكِ لنا هذا الحادث فان لنا وقتًا للسمعهُ

قال وعوس . سمعًا وطاعة اعلمـا وفقكما المولى ان جمس بروس رحل اسكتلندي من اقليم استرليك وقد طاف بلاد الحبشة كلها حتى وصل الى بحيرة تيانا قصدًا في اكتشاف عيون النيل وذلك من سنة ١٧٦٨ الى سنة ١٧٧٢

ثم رجع الى بلاد الانكليز ولم يُشهر فيها رحلاته الّا سنة ١٧٩٠ فلم تتصدق اخباره عن اقوام تلك البلاد بل أُدخلت في طيّ الخرافات والخزعبلات وعلى الخصوص من حيث ان اخلاق الحبشة واطباعهم الغريبة تنافي الطباع الانكليزية وتختلف عنها اختلافًا عظيمًا ومن جملة ما رواه جمس بروس ان شعوب افريقية الشرقية يأكلون لحمًا غير ناضج

فهاجت هذه الرواية قومًا حربًا ولم يرتضِ احدٌ بان يصدقها ولما كان بروس على جانب من الشجاعة وحدة الطبع اغتاظ كثيرًا من شك الناس في كلامهِ وفي ذات يوم كان رجل من بلاد وطنهِ جالسًا في قاعة ادنبرج فاخذ بعيد على سماعهِ اي سماع بروس المقالات نفسها التي اعتاد على المزاح بها اهل تلك المحلات ضحكًا على روايات بروس وصرح امامهُ بصوت عالٍ ان آكل اللحم النيء هو من المستحيل ولا يمكن تصديقهُ فلم يجـاوبهُ بروس على كلامهِ بل خرج برهةً ورجع اليهِ بقطعة من اللحم الغير الناضج بعد ان عمّهـا بالملح والبهار على نسق الافريقيين ثم قال لهُ: سيدي لقد سببت لي اهانةً عظيمـة وشتمتني باظهارك لي شكًا بمارويتهُ وزعمك ان ذا من المحال فتأكيدًا لصدق كلامي اجبرتك على اكل هذه القطعة اللحمية الغير الناضجة واما انك تأكلها والّا . . . . .

فخاف الاسكتلندي حينئذٍ واذعن لامر بروس ولما تناول قطعة اللحم كشر عن اسنانهِ دلالةً على اشمئزازه ونفوره . اما بروس فما زال محافظًا على استكانتهِ ورواقهِ ثم قال . ولنفرض سيدي ان القصية التي نحن في صددها غير صادقة

من الان وصاعداً اقلهُ لا عدت تقول انها من الامور المستحيلة

فقال يوسف نعم الجواب جواب بروس فلو كان اصاب ذلك الرجل تخمة من تناوله اللحم النيء لكان قد نال جزاءهُ ولكن يا ترى اذا رجعنا الى بلادنا وشكَّ الناس في رحلتنا . . . .

قال فرعوس : فماذا تصنع حينئذٍ

قال يوسف . اني سأطعم الذين يشكون في رحلتنا قطع المصورة بلا ملح ولا بهار

فضحك الرفيقان من الماط يوسف المزاحية وهكذا مرَّ النهار باحاديث لطيفة ثم عاد اليهم الامل مع القوة ومع الامل الجرأة واخذ الماضي بالاضمحلال تجاه المستقبل بسرعة عجيبة

وقد عرت ليوسف السكنى في ذلك المأوى المطرب وودَّ لو انه لم يكن مضطرًا الى مجاورته اصلًا اذ اصبح لديه ذلك المكان كمملكة احلامه وطن نفسه انهُ مستقرٌ في نفس بيته . ثم طلب من سيدهِ ان يبينه عن مركزه وسطر في سجل سفرته انهُ في الدرجة ٤٣° ١٥ طولًا و٣٢° ٨ عرضاً . اما ديك فلم يجر سوى على امرٍ واحد وهو عدم تمكنهِ من الصيد في ذلك العالم وساءهُ خلو محيطهم من بعض الحيوانات الكاسرة

فقال العلامة : كأنك يا عزيزي ديك نسيت حالًا ذاك الاسد وتلك اللبوة

فقال ديك بصوت الازدراء . هذا شيء لا يذكر ولكن في الواقع لن وجود ذينك الوحشين اللذين اذقناهما كاس المنون مما يجعلنا نحسن نقرب بلادٍ اكثر خصباً وريعاناً

قال فرعوس : ان برهانك يا ديك غير سديد لان هذه الحيوانات تجوز غالبًا مسافات شاسعة لتصورها من الجوع والعطش والاجدر بنا ان نكون على

حرص وحذر في الليلة المقبلة ونضرم النيران لئلا تدهمنا داهية

قال يوسف : وهل نضرم النيران لتزيد حرارة على الحرارة الحاضرة ومع ذلك فلا بأس من اضرامها وفاقًا لمرادك ولكني عند قطعي واحراقي تلك الاشجار الهية الحريّة النفع فلا بد لي من الشعور بهمّ باطن وتأسف

قال العلامة : حاشا لنا ان نحرق الغاب باسره فلنحافظ عليه ما امكنا حتى اذا اتاه غيرنا يجد فيه ملجاء وسط الصحراء

قال يوسف . نعم القول ولكن هل تظن يا سيدي ان هذه الروضة عرفت من المسافرين

قال العلامة لا شك في ذلك لانها مثوى لقوافل المسافرين في اواسط افريقية فلو اتونا الان زائرين لما سررت الّا ما قلّ حسبما يُرى لي

قال يوسف . وهل يوجد بعد في هذه الاقطار من اقوام نيام نيام النائمين في التوحش

قال العلامة : لا ريب فيه اذ لن هذا الاسم يعم جميع الاقوام الخائنين في هذه الاقاليم وجميعهم ذات عوائد متماثلة

قال يوسف : اقرّ اقرّ ومع ذلك فان هذا امرٌ طبيعي لانهُ لو كان اهل البدو على ذوق اهل الحضر فاين يكون الفرق بين كليهما مثلًا ان هؤلاء الانام الافاضل اعني بهم البرابرة لا يقتضي لهم التوسل والترجي ليتلقفوا القطعة المحمية التي ابتلعها الاسكلندي المذكور آنفًا بل والاسكلندي نفسه

وبعد ان قال يوسف هذا ذهب يورث النار لحراستهم في الليل لكنهُ لم يشعل الّا قليلًا من الحطب وذهب ذلك الاحتياط هدرًا اذ لم يقع شيء يكدر صافي رقادهم ويقلقهم ادنى قلق

وفي الغد لم يتغير الهواء بل استمرّ على استكانته وهدوه وما برحت القبة

الهوائية عديمة الحركة ولم تتذبذب اصلاً لتدل على ادنى نسمة في الجوّ

فاحد الهمّ يشغل قلب فرغوس من جرى تلك الحال لانها اذا طالت على ذلك المنوال فيسعد زادهم وبما كانوا سائقًا محتاجين الى الماء اصبحوا حاليًا في غاية الاحتياج الى الطعام وذهبوا فريسة الجوع الكلي

لكنهُ نظر الى ميزان الهواء فرأى فيه انخفاضاً كثيرًا فتطمأن باله وهدأ روعهُ لان انخفاض الزيبق دليل واضح على تغيير قريب في الجوّ فعزم على ان يتأهب للرحيل ويصير منتهزًا الفرصة الاولى عند هبوب الريح . فلذا ملأ صندوق اذخار الغاز وصندوق ماء الشرب ثم احد يوازن القبة الهوائية فاضطر يوسف الى ان يبدل حاملاً عظيمًا من معدنه الغالي القيمة ولولا الطمع عاوده مع عودة الصحة والقوة فتذلل كثيرًا قبل ان اذعن لسيده . اما هذا اي فرغوس فبين لهُ انهُ لا يستطيع حملاً ثقل عظيم وجعلهُ يختار ما بين الماء والذهب فلم يعتم ان يوسف التى على الرمل كمية وافرة من حجارته العزيزة

ثم قال . هذه ذخيرة مذخورة لمن يأتي بعدنا من المسافرين فانهم يندهشون عند ما يجدون كنزًا في مثل هذا المكان

قال الصياد واذا اتى عالم في الصدفة وعثر على هذه الحجارة المعدنيـــة فماذا عساه يظن بها

قال العلامة : كن على يقين يا صديقي ان تعجبهُ يكون عظيمًا ولا بد من انه يشهر ذلك التعجب في صحف ومياومات عدة بكلام مطوّل جدًا وسيأتي يوم نسمع به عن مصادفة طبقة معدنية ذهبية في وسط رمال افريقية

قال ديك : ويكون يوسف سبب هذه الحادثة

فتبسم يوسف لهذا المقـــال وعزّى فؤادهُ على ما فقده من المال الوفير اذ تصوّر في باله انه يكون سبباً لانخداع احد العلماء وشحنه كتباً باوهامه الباطلة

ثم انتظر العلامة تعبيراً في الهواء مروع الصدر فيما بقي من النهار لكنه خاب املًا اذ اشتدت الحرارة ولولا ظلّ الاشجار لذاقوا حرًّا لا يُطاق ووصل الترمومتر في الشمس الى درجة ١٤٩ انكليزية فكان احمج الرمضاء يجري في الجو مجرى السيول وبلغت الحرارة اقصى درجة مما صادفهُ السواح في الصحراء

فعند ما جن الليل اقام يوسف سور الحصار كما في الامس ولما كان العلامة وكاذي ساهرين كلٌّ منهما في وقت حراستهِ لم يحدث قط شيء جديد

ولكن لما كانت الساعة الثالثة بعد نصف الليل ويوسف اذ ذاك سهرانًا في دوره انحصت الحرارة على العتة وتجلببت السماء بجلباب السحاب والغيوم واحلولك الظلام

فصاح يوسف في الحال الى رفيقيهِ ايقاظاً لهما من الرقاد وقال لهما. انهضا انهضا فقد اقبل الهواء

قال العلامة وهو ينظر الى السماء . حان اخيرًا الاوان عيرانّ هذه زوبعة فلنسرع الى المنصورة مبادرين

فكان لا بد من الاسراع الى المنصورة لانها كانت مائلة لشدة الزوبعة وحارّة المركبة على الرمال فلو كان قد التي شيء مما حوتهُ المركبة من الثقل لطارت القبة الى الجوّ وخيبت منهم كل امل في الظفر بها

اما يوسف النشيط فقد عدا عدو خيل السباق ووقف المركبة فيما كانت القبة منسطحة على الرمل ومباهزت الانحراق ثم جلس العلاّمة في موضعهِ واضرم القصبة ورمى ما زاد عنده من الثقل

فالتي السواح نظرة اخيرة الى الاشجار العوطة التي كانت تنثني من ثوران

الروبعة ردهموا متواربن في طلّ طلام الحوّ مع هبوب الريح الشرقية في علو مائتي قدم عن الارص

——

## الفصل السابع والعشرون

في راي احد علماء الفرنسيس والمرور بمملكة اداموا وجبال اتلنتيكا
وجبر سوة ومدينة يولا وجبل ناحلة وجبل مديف

وبعد ما رحلت القبة اخذت تسير مسيرًا سريعًا جدًّا وطالما قد تمنى السواح الابتعاد عن تلك الصحراء التي كادت تدفنهم في رمالها وتوليهم الويل والتعس

ولما كانت الساعة التاسعة وربع صباحًا شاهدوا حشيشًا يتمايل في تلك الرمال فاستدلوا بها على ان الارض قريبة منهم كما استدلّ على قرب الارض ذلك الرجل الشهير الذي اكتشف بلاد اميركا اعني به خرستف كولمبو وبصروا بنباتات خضراء تتردد ما بين الحصى المشيرة الى قرب الصخور والجبال وكانت قصيرة جدًّا كأنها تخشى الظهور بازاء الرمال المحيطة بها

ثم رمقوا في الافق اكامًا معوجة لكنهم لم يميزوا رسمها لما على قمتها من الغيم وعلى كل حال كان المطر السابق احدًا في الزوال والاضمحلال

فقرا العلامة السلام على تلك الارض الجديدة وقلبهُ اذ ذاك مفعم فرحًا وابتهاجًا وكاد يصيح كالبحري الرقيب في السفينة هوذا الارض هوذا ارض

ثم مضت ساعة وتراءت تلك الاماكن لاعين العلامة بمنظر وحشيّ لكنها لم تكن متساوية السطح وجرداء كالاولى بل كان افق السماء البعيد ينتقش بصورة بعض اشجار

فقال الصياد: قد وصلنا اذًا الى بلادٍ متمدنة

قال يوسف: ما هذا الكلام فانه بعيد عن الاصابة اذ لم نرَ حتى الان اهلًا لهذه البلاد

قال ورعوسن. لا يطول بنا المجال حتى نرى سكاناً ان بقي سيرنا على ما هو عليهِ

فقال يوسف: سيدي هلاَّ نزال في بلاد العبيد والسودان

قال ورعوس: بلى حتى نبلغ بلاد العرب

قال يوسف: أَ لعلهم العرب الرحَّل اصحاب الابال

قال ورعوس: كلاَّ ليس من الابال في هذه الحال الَّا ما قلَّ جدًّا واذا طلبتها وجدتها في الجهة الشمالية بدرجات

قال يوسف: قد ساءني هذا الخبر

قال ورعوس: ولماذا يا يوسف

قال يوسف: لو انقلبت الريح وصدتنا عن السير لكانت الابال تجديـــاً نفعاً جزيلاً

قال العلامة: وكيف نفعتنا

قال يوسف: سيدي قد طرقني فكرٌ وهو اننا نقطرها في المركـــبة فتجرنا ونحن فيها وما قولك يا سيدي

قال العلامة. قد طرق هذا الفكر غيرك قبل ان تاتي بهِ فان احد علماء الفرنسيس اصحاب العقل والذكاء (١) الف حكاية وذكر فيها مركـــبة مقادة بجمال ثم وثب عليها اسد وافترسها وانتزع معاً الحبل الصحيح الرابطها بالمركبة واخذ في جرِّ المركـــبة وهلمَّ جرًّا. الا يا ترى يا يوسف ان السمر على هذا النسق تخيّل من الطراز الاول ولا مناسبة لهُ مع نوع مسيرنا

فلما رأى يوسف ان رأيه اتى لنال غيره قبلهُ خجل واحتصع ولكنهُ اخذ يفتكر بحيوان يستطيع ان يفترس الاسد ولما لم يجـد من لهُ سطوة على سيد

(١) وهو العالم ميري

البهائم رجع ينظر الى البلاد ويتأمل هيئتها وشكلها وما تحويه من الغرائب فشاهد بحيرة ذات سعة وسطح وحولها آكام لا تستحق ان تُدعى جبالًا ورأى اودية كثيرة نضرة وفيها الاشجار المتنوعة الاجناس ملتفة بعضها ببعض وهناك الايبلاس وهو جنس من النخل ذات اوراق عظيمة يبلغ طولها نحو خمسة عشر قدمًا وساقها متسترٌ بالاشواك الحادة والروائح الزكية تفوح من ذلك النبات المشهور نقدة العرب وهي متصاعدة الى طبقة الجوّ السائرون فيها السواح نفتهم ولم تخلُ تلك الروضة البهية من شجر جوز السودان والنوباب والنور وحلاها

فقال العلامة : وما احلى هذه الروضة الانيقة

قال يوسف هوذا الحيوانات عما قليل نشاهد الناس

قال الصياد : كم هي جميلة تلك الفيلة هل ترى من الممتنع صيدها

قال فرغوسن : وما الحيلة لنقف يا خليلي ونحن مندفعون بهذا المهب السريع الشديد دع عنك هذا المرام وامهل قليلًا فسوف تجازى على صبرك واحتمالك

وفي الحقيقة ان منظر تلك البهائم كان من شأنه ان يهيج الحمية وقد احسّ ديك بوثب قلبه وتقلصت اصابعه وهي قابضة على السلاح

واما حيوانات ذلك الصقع فتضاهي ازهارها بهاء ورونقًا والثيران تترعّى في حشيش غليظ وتتوارى في خلالها لطولها وكثافتها والفيلة الرمادية اللون والسوداء والصفراء ذات القامة الباسقة تمرّ مرور ام زوبعة في وسط الغابات والاحراش وهي تحطم وتفترس وتجلب الخراب والدمار حيثما جارت . ومجاري المياه تجرُّ في انحدارها من اعلا الآكام المشجرة هابطة نحو الجهة الشمال وهناك جاريالماء تغتسل وتضج في اغتسالها وغيرها من البهائم ترى مضججة

على شواطي البحيرة

وكان ذلك المكان عجيباً غريباً لما يأوي من الحيوانات الكثيرة المتنوعة الاجناس والطيور العير المحصى عددها وذات الالوان المشكلة وهي تحوم متلألئةً فوق الساتات الباسقة والخضار الانيقة

فلما رأى العلاّمة مثل هذا الخصب وهذه النضارة الطبيعية علم ان هذه مملكة اداموفا

ثم قال ها نحن نسطو الان على الاكتشافات الحديثة فاني انهج منهج السواح الذين سبقوني واسير في الطريق التي لم يطيقوا تكميلها فهذا من حسن حظي وان شاء المولى سنلحق عن قريب اكتشاف القبطانين برتون واسبيك باكتشافات العلامة برث . فهناك تركنا الانكليزيين واتينا الى هنا لمصادقة الهمبرجي وعما قليل نصل الى آخر محطة وصل اليها هذا العالم المحسود

قال ديك يخال لي من المسافة التي حزناها انه يوجد بون عظيم بين الاماكن التي قصدها السواح المذكورون

قال العلامة . تعالَ نحسب هذه المسافة خذ الخارطة وانظر في اي طول هو راس البحيرة اوكاروه حيث وقف السائح اسبيك

قال ديك : انه واقع على التقريب في الدرجة السابعة والثلاثين طولاً

قال فرغوسن : وما هو مركز مدينة يولا التي سنصل اليها ان شاء الله في نهاية النهار وقد بلغها برث الشجاع

قال ديك : مركزها في الدرجة الثانية عشرة طولاً

قال فرغوسن : فاذاً الفرق هو خمس وعشرون درجة وكل درجة كناية عن ستين ميلاً فيكون اذاً الحاصل الف وخمسمائة ميل

قال يوسف: لعمري ان دا فسحة جميلة لمن يودّ التنزه ماشياً

قال العلامة: لابد لنا من قطع مثل هذه المسافة فعلًا فان ليونكستون ومُمات لا يزالان مقيمين في قلب افريقيــة ولا تعد بياسا التي اكتشفوها كثيرًا عن بحيرة تنغانيكا المكتشفة من برتون ولا يمضي هذا الجيل الّا وتُعرف جميع هذه الاماكن. ثم نظر العلامة الى البوصلة وقال: ولكن ارى الريح تدفعنا كثيرًا الى الجهة الغربية وكنت اودّ لو دفعتنا الى الشمال ولكن ما الحيلة

وبعــد ان سارت المنصورة مدة اثنتي عشرة ساعة وصلت الى حدود بلاد اليكريسيـــة اي السودان وسكان هذه البلاد الاولون من عرب الشول رعاة المواشي البادية. وفي الافق تراءت رؤوس جبال اتلنتيكا الشامخة التي لم تدسها بعد قدم رحل افرنجي ويقال ان علو تلك الذرى عن سطح البحر نحو سبعة الاف وثمانمائة قدم

ثم تراءى لاعين السواح نهر حقيقي عرف العلامــة انهُ نهر بنوه لوجود المامل العظيمة المحيقة بهِ وهو من اصاب نهر النيجر الكبيرة وقد دعاهُ الافريقيون منبع المياه

فقال العلامة لرفيقيهِ: سيأتي يوم يكون فيهِ هذا النهر سبيلًا طبيعيًا لمد سلك العلاقات الى داخل اليكريسيـــة وتوافي سفينة انكليزية تحت رئاسة احد قباطنيًا المشهورين في الحذق والمهارة فتنزلهُ وتصل بهِ الى مدينة يولا وعليهِ فانا قائمون في بلاد غير مجهولة

ثم شاهد السواح عبيدًا كثيرين يعتنون بحراسة الحقول وزراعة الحبوب ولما كانت تمرّ فوقهم المنصورة كشهب الكواكب ترى الاندهاش مستوليًا عليهم وبالقًا اقصاه واعربهُ ولما امسى رفعوا السواح بعيدًا عن مدينة يولا بارسعين

الف ميل وامامهم كانت تقوم في الافق البعيد قمتا جبل منديف الحادّتان

فامر العلامة بالقاء المراسي فتعلقت براس شجرة سامية العلوّ غير ان ريح شديدة الهبوب احدثت تلاطم القبة الهوائية حتى انها قد التفّت وتلوّت وحصلت مرارًا في خطر عظيم لان تتمزّق فما نام العلامة ليلتهُ كلها الّا وهو في سهاد وكاد احيانًا يقطع حبال المراسي ليفر هاربًا من الزوبعة ثم بعدهُ هدأت الريح قليلًا ولم يعد يخشى العلامة من تذبذب المصورة

وفي الغد كانت الريح اخف مهبًا لكنها دفعت السواح عن مدينة يولا وقد اشتاق العلامة لرؤياها لانها قد بُنيت حديثًا من العلاّن ولكن اذ لم يكن لهُ حيلة سوى الصبر سار مع هبوب الريح الى الجهة الشمالية مائلًا قليلًا الى الجهة الشرقية

فسأل ديك ان يحط برهةً في تلك البلاد الكثيرة الصيد ووافقهُ يوسف على ذلك اذ قال انهم في احتياج كلي الى اكل اللحم الطري اما العلامة فلم ينقد الى مبتغيهما لانه يخشى تلك الاقوام البرابرة ويرى القسة مرشوقةً بسهامهم

وكانت تمتد تحت المصورة قرى وضياع كثيرة ذات اكواخ طويلة ما بين المروج المقشة بزهور مصبحية

وما انعكست الريح تدفع القبة الى جهة شمال الشرق رغمًا عما بذلهُ فرغوسن من المجهود لتغييرها فاخذوا يتقدمون الى جبل منديف المتوارى بين السحب والغيوم ورؤوس هذا الجبل الشامخة تفصل حوض النيجر من حوض بحيرة شاد

ثم شاهدوا الجبل المعروف باسم باجله وفي جانبهِ اثنا عشر قرية متعلقة بهِ تخالها اطفالا اصطحبوا على حضن امهم وقد عظم هذا المنظر جمالًا لاشراف

السواح عليه من العلو وكانت الخنادق تتراءى لهم معطاة بالزروع المتنوعة الالوان

وبعد الساعة الثالثة بعد الظهر قالت المنصورة حمل مسيف وبما انه لم يتمكن العلامة من الحيد عنهُ قد احدٌ يهتم في محاذه فرفع حرارة القصة الى مائة وثمانين درجة واذا بالقبة علت عن الارض اكثر من ثمانية الاف قدم وهذه كانت اعلى طبقة وصل اليها السواح في رحلتهم الجوية . فعندها اعتراهم البرد واضطروا الى ان يلتحفوا باغطيتهم حشية من المضرة ولكن لم يستمروا برهةً هناك الّا احدوا بالنزول الى الارض بواسطة تخفيف حرارة القصبة وقد كادت تتزَّق القبة لشدة تمددها وانتفاخها واستطاع مع ذلك العلامة ان يحقق كون اصل ذلك الحمل حملًا نارياً امست وهاته المطفئة لجحاً قصيرة حدًا

وفي الساعة الخامسة لطت المنصورة من ريح الجنوب فنزلت في مخدر الحمل تزول الهوينــاء ثم وقفت في بقعةٍ خالية من كل شجر بوسط غابٍ وليس فيهــا ساكــن اصلًا ولما مست الارض مكنهــا يوسف لئلا تفلت هاربة وقفز ذلك من المركبة وبارودته في يده وعدا في ذاك الفضاء المحيي ثم عاد سريعاً بصيدة وافرة من البط وجنس من دجاج الغاب فهياها يوسف للطعام فاكلوا وشربوا بلذة وانشراح ورقدوا بسكون واطمئنان تامين

## الفصل الثامن والعشرون

في مدينة مصعبة ومحود احد المشائخ للقبة الهوائية والكلام عن السواح دعام
وكلارتون وودني وهوحل وما كان من الحمام الشاعله نارا
المرسلة من والي قرباق

ولما كان الغد وهو الحادي عشر من شهر ايار سارت المنصورة بهب الريح وكان السواح يثقون بها ثقة الوثيقة بالسفينة المتينة

ولم تكن ثقتهم بها خالية من الدعم اذ انهم كانوا قد ساروا مسافةً عظيمة ونجوا من كل ما من شأنه ان يورطهم في لجج الاخطار والمهالك كالرمص والزوابع والمنازل والمطالع ويسوغ القول ان العلاّمة كان يقيدها كيفما شاء وكأنهُ مجرَّد الاشارة . ومع انهُ لم يكن عارفاً ما هي البلدة التي تنتهي فيها رحلتهُ لم يخشَ بتةً سوء العاقبة غير انهُ كان مشدداً حرصهُ وحذرهُ من الوقوع بايدي الاقوام البرابرة المتعصبين الخائنين في تلك البلاد ويوعز الى رفيقيه ان يترقبا دواماً كل طارق

ثم اخذت الريح تدفعهم قليلاً نحو الشمال ولما صارت الساعة التاسعة بصروا عن بعدٍ بمدينة مصعبة الكبيرة المبنية على اكمةٍ مرتفعة بين جبلين شامخين في العلو وهي في مركز حصين جداً اذ لا يُستطاع الدخول اليها الا من طريق ضيقة وقعت بين غاب وغدير

وفيما كانت المنصورة مارة فوق المدينة شاهد السواح شيخاً محفوفاً بقوم خيالة وهو متسربل بثياب ذات الوان باهرة وامامهُ مبوقون وقوم سُرعان يزيحون الاغصان لئلا تعيق مسيره في الطريق

فنزل العلامة قليلاً ليتأمل هؤلاء الاقوام عن قرب ولكن كلما دنت منهم القبة الهوائية لاحت على وجوههم امارات الدهشة والهلع ولم تمضِ برهةً

الّا احدوا في العدو على قدر خفة حيلهم

اما الشيخ فلبث وحده منتصباً قائماً ولم يتحرك من مكانه ثم اخذ قرابيتهُ وادخرها وجعل ينتظر متغطرساً فدنا منهُ فرغوس الى نحو مائة وخمسين قدماً وقرأه السلام بالعربية

فعند ما سمع الشيخ هذا السلام السموي خرَّ ساجداً على الحضيض ولم يستطع العلامة ان يلهيهُ عن السجود

فقال العلّامة : انهُ لمن المستحيل ان لا يعتبرنا هؤلاء الاقوام بمنزلة خلائق فائقة الطبيعة حيث ان الافرنج الاولين الذين قدموا على هذه البلاد قد حسبوا من نسل فائق الطبيعة البشرية واذا ما حدّث الشيخ الساجد لنا قومهُ وحلاته عن هذه الصدفة الغريبة فلن يقصر عن تعظيها وزخرفتها وتجود لهُ القريحة العربية بتصوراتها المدهشة وهكذا يأتي يوم تحكى فيهِ الحكايات الغريبة عنا على اساليب شتى

قال الصياد : هذا مما لا يسر الخاطر لانا اذا رغبنا في تمدن هؤلاء الاقوام فالاجدر بنا ان نعتبر عندهم اناساً وهذا من شأنهِ ان يجعلهم يجالون حسناً ماهية قوة التمدن الاوربي

قال فرغوس - سلمت معك في هذه القضية ولكن ما هي حيلتنا في ذلك فانك تتعب باطلًا اذا اردت ان تشرح لعلماء هذه البلاد عن آلات القباب الطيارة فلا يدركون كلامك ويصرون على زعمهم ان ما رأوهُ فائق الطبيعة

فقال يوسف : سيدي قد اشرت الى الافرنج الاولين الذين قدموا على هذه البلاد فهل تتكرَّم علينا بذكر اسمائهم

قال فرغوس : اعلم يا صديقي اننا سائرون الان في الطريق التي سلكها

الصائط دنهام وقد اقتلهُ سلطان مندارا في مس مصيبة كان ماين مملكة البرنو ولحق بفرو الشيخ على قبيلة الفلاحين وحصر هناك محاصرة المدينة فلم تنفع بوارير الشيخ اصلًا بل تبدد هو وجوده بقتل الفلاحين فانتهز هؤلاء فرصة النصر ليستلوا سيف الانتقام وخرجوا يقتلون اعداءهم وينتهبونهم ويسلبون اموالهم وقد جردوا الصائط دنهام من اثوابه ولو لم يختبئ تحت بطن حصانهِ ويعدو به عدو خيل السباق لما رجع اصلًا الى مدينة كوكا عاصمة البرنو

قال يوسف: ومن ترى كان الصائط دنهام

قال فرعوس: كان انكليزيًا ذا شجاعة وبسالة وقد حلّ معهُ رفقة وطاف الافريقية من سنة ١٨٢٢ الى سنة ١٨٢٤ قاصدًا مملكة البرنو وذلك بمعية القبطان كلابرتون والعلامة أُودني وحلوا من طرابلس الغرب في شهر ادار ووصلوا الى موررزوق قاعدة فزان وساروا في الطريق التي سلكها فيما بعد المعلم برث عند ما قصد الرجوع الى اوربا ثم وصلوا الى كوكا بالقرب من بحيرة شاد في ١٦ شباط سنة ١٨٢٣. وقد اكتشف دنهام اشياء كثيرة في مملكتي البرنو ومندارا وعلى شطوط البحيرة الشمالية وفي غضون ذلك اي في اليوم الخامس عشر من شهر كانون الاول سنة ١٨٢٣ تقدم القبطان كلابرتون والعلامة أُودني الى داخل السودان حتى بلغا صقاتو وقضى أُودني نحبهُ في مدينة مُرمُر وهو عيان من التعب والصاكة

قال ديك. فقد اذت اذًا هذه البلاد الى العلم خراجًا جزيلًا بالضحايا النفيسة التي ضحت فيها

قال فرعوس. نعم يا خليلي فان هذه البلاد بلاد سوء والشؤم حالٌ فيها فها انا سائرون الان نحط مستقيم الى مملكة برغمي التي قطعها فوجل سنة ١٨٥٦

قصد الدخول في مملكة واداي وهناك اختفى ولم يُعرف له اثر وقد أُرسل ذلك الشاب البالغ من العمر ثلاثة وعشرين سنة فقط ليساعد العلاَّمة برث في اشغاله وقد تلاقيا معًا في الواحد من شهر كانون الاول سنة ١٨٥٤ ثم طفق فوجل يستقرئ عن تلك البلاد وفي سنة ١٨٥٦ ارسل كتبًا وذكر فيها رغبتهُ في الدخول الى مملكة واداي والبحث عنها حيث لم تدسها بعد قدم اوربية والظاهر انه بلغ وارة عاصمة واداي فمن الناس من قال عنهُ انه أُسر هناك ومنهم من قال انهُ قتل اذ حاول الصعود الى جبل مقدس. غير انه لايسوغ ان يسلم حالاً في موت المسافرين لان هذا يصد عن طلبهم فكثيرًا ما شاعت الاخبار الرسمية عن وفاة العلامة برث فسبقت لهُ هذه الاشاعات حقًا وغصبًا. فمن الممكن اذًا ان يكون فوجل أُسر عند سلطان واداي طمعًا في فديته. فعزم البارون دي نيمس على الذهاب الى واداي فماتتهُ المنيـة في القاهرة سنة ١٨٥٥ واما الان فتوجهت جوقة سواح من ليبسيك ومعهم العلامة دي هكلين وقصدوا وجود اثرلفوجل وعن قريب يتضح لنا ماكان نصيب ذلك الشاب الشجيع(١)

ثم توارت مصبية عن انصـارهم وظهرت لهم بلاد مدارا الحريئة الخصب والربعان ومنها غابات الأَقاقيـا والماش ذات الزهور الحمراء وساتات القطن والنيل. وهناك تجري مياه نهر شاري المردة وهو لايصب الَّا في بحيرة شاد على بعد ثمانين ميلًا من ذلك المكان

فاخذ العلامة يدل رفيقيه على ذلك النهر في الخارطات الجغرافية المرسومة من المعلم برث

---

(١) من بعد ان تمت رحلة العلامة فرغوسن وردت الرسائل من العيدية وهي موجهة من مدبر رئيس الجوقة الجديد ومنها اتضح الخبر المشؤم بفاجعة فوجل هذه الدنيا

وقال لها. رايتما يا حليلي ان ابحاث هذا العالم الحاذق هي في غاية الدقة والصط لانا نسير نحط مستقيم الى اقليم لغوم وربما الى قرباق عاصمته وهناك كان سياح احد الانكليزيين المدعو تول وهو بالغ من العمر نحو اثنتي وعشرين سنة فقد. وهذا كان قد لحق بالضابط دنهام في افريقية مند نصع اسابيع فما لبث ان صادف فيها المنية. فتعساً وويلاً لهذه البلاد المشؤمة فانه يحق يقال عنها انها مدفن الاوربح

فشاهد السواح بعض القوارب نازلة في مجرى نهر شاري وهي تبلغ من الطول نحو خمسين قدماً واذ كانت المنصورة عالية عن الارض نحو الف قدم لم تجذب اليها انتباه السودان. اما الريح فبعد ان كانت شديدة المهب اخذت تنقص وتخف شيئاً فشيئاً

فقال العلامة وهل ترى يصيبنا الرواق كما في سابق الزمان

قال يوسف لا بأس من ذلك اذ لا عدنا نخشى بعونه تعالى لاقلة الماء ولا محول الصحراء.

قال العلامة علينا ان نخشى اقواماً بربرة فاقوا قساوة وفظاظة

قال يوسف: هوذا شبه مدينة

قال العلامة: انما هي مدينة قرباق وارى ان النسيم يدفعنا اليها فاذا شئنا رسمنا هيئتها ووصولها

قال ديك: وهلاً نقترب من الارض

قال العلامة: هذا امرٌ سهل لانا نحن فوق المدينة دعني ارم قليلاً لولب القصبة فلا نلبث ان نأخذ بالنزول

فبعد مرور نصف ساعة وقفت المنصورة فوق المدينة بعلو مائتي قدم

قال العلامة: انا اقرب الى المدينة من انسان واقف على قمة كنيسة

القديس بولس ومتفرج منها على مدينة لندرة يمكنا اذاً التطلع على حاضرها

قال ديك: اني اسمع صوت مطارق فما عساها تكون

فجعل يوسف يحدج بصره ويشدد نظرهُ فراى ان تلك الضجة صادرة من الحياكين الكثيرين الذين يطرقون نسيجهم الممدود على ارواط طويلة وذلك في وسط الساحات

ورأوا عاصمة لعوم كانها على سطح منبسط ويحق لها اسم مدينة لان بيوتها متساوية الصفوف وطرقها عريضة وكان سوق العيد قائماً في ساحةٍ فسيحة وسط المدينة وهناك مشترون كثيرون لان العدات المداريات تُرغب كثيراً وتُباع بقيمة وافية

فعند ما نصروا بالمصورة اصابهم ما اصاب غيرهم قبلًا اذ انهم شرعوا اولًا بالصحيح ثم اتبع ذلك الصحيح سكوت الدهشة العظيمة وتُركت الاشغال ووقفت ورال صوت المطارق اما السواح فما برحوا واقفين لا يتحركون وهم يتأملون اولئك الاقوام الكثيرين ثم نزلوا ايضاً نحو ستين قدماً

فخرج حينئذٍ والي بلاد لعوم من مقرّه وهو حامل رايتهُ الخضراء ومعهُ اصحاب الموسيقى الذين كانوا يضربون في ابواق من قرون الجاموس ذات صوت أبح ثم احاق بهِ قومهُ وحاول العلّامة ان يسمعهم صوته فلم يطق ذلك

وكان لذلك الشعب جبهة عالية وشعر متجعد وانف أقنى وهم متصفون بالمعرفة ولا يخلون من الذكاء والفطنة ولكنهم مضطربون لظهور المصورة . ثم تحقق السواح ان جنود الوالي لغدوا في الاحتشاد والتأهب لمحاربة عدوّ لم يسبق لهُ مثيل اذ شاهدوا الخيالة يتسابقون في الخيل ويعدون الى انحاء شتى فنشر يوسف الرايات المشكلة الالوان فلم يحظَ بنتيجة البتة

ثم مضت فترة وطلب الشيخ الى قومهِ ان يصغوا لهُ ليخطب خطبة بالعربية

الممروحة بلغة البعيري فلم يفهم العلامة ولا كلمة واحدة لكنهُ علم بلغة الوماء العمومية ان الوالي يدعوهُ للذهاب دعاء صريحا . فودّ العلامة الذهاب ولكن لم توافقهُ الريح ولم يستطع الحراك من مكانهِ فاعتـــاط الوالي من هذا الرسوخ واحد دعماوهُ ورجالهُ يعزّون ويصيحون ليحملوا الوحش الحوي على الاطلاق

في الحقيقة كان هؤلاء الزعماء مما يوجب الاستغراب والاعجاب فانهم متدثرون على حسدهم بخمســـة او ستة قمصان ملونة وبطونهم بليغة كبرًا انتفاخًا وبعضها ترى كانها مصمعة ومحض حشو . فقال العلامة لرفيقهِ ان هذه الهيئة واسطة عدهم لمراضاة السلطان والدخول في حاطره ودوار البطن ممـــا يدل عندهم على الطمع . فكان هؤلاء الناس الضخام يتحركون ويومون بالايدي ويصرخون ويتحون وحصوصًا واحد منهم كان صخمًا جدًا فطن بهِ انهُ وزير اول في تلك الولاية لان الضخامة كما قيل لها اعتبار عظيم في تلك الديار

وكان العبيـــد السود ايضًا يصيحون مع ارباب الحكومة ويتحركـــون كالسعادين والحملة كنت ترى نحوًا من عشره الاف دراعًا مرتفعـــة ومتحركة باضطراب الحرب

فلما رأوا ان حركاتهم لم تجدِ نفعًا بل دهبت هدرًا وعدوهم راسخ لا يتأثر منها حملوا يتمسكون بوسائط افعل فاصطف الجنود المتسلحون بالقوس والنشاب قاصدين رشق القبة بالسهام الآان المصورة احدث حالًا بالارتفاع لئلاّ يصيبها ضرٌ من القسي فاحد الوالي حينئذٍ قرابينة ووجهها نحو القبة الهوائية فلما رأهُ ديك مستعدًا لاطلاقها وهو اد دالك يرصدهُ رماه برصاصةٍ فكسر السلاح بين يديهِ

فصد هذه الصربة العير المنتظرة اضطرب الكبار والصغـــار وتفرقوا طرائق وولوا الادبار هلعًا ووجلًا ودخل كلٌّ كوخه فمضى النهار باسره ولم يظهر احدٌ

مهم الستة بل اصبحت المدينة خاوية خالية كالصحراء

ثم جن الظلام ودخل الليل ولم تهب الريح مطلقاً فاضطر العلامة الى ان يلبث قائماً بلا حركة فوق الارض علو ثلاثمائة قدم ولم يرَ نوراً يضيء ظلام الاكواخ والبيوت بل كان السكوت المطلق مستولياً على المدينة كي بادية مقفرة فحسب العلامة من هذه النصبة فخاً يجب التحذر منهُ فضاعف انتباههُ وسهرهُ

وقد اصاب حتى الاصابة في حدسهِ وسهره لانه ما انتصف الليل الّا ظهرت المدينة كأنها شعلة متأججة ناراً واخذت الخطوط النارية تتصلب كالشبكة وكأنك بالمدينة قد لبست حلة النار وتشعت شعتها في الآفاق

فقال العلامة : هوذا امرٌ غريب فيهِ العجب العجاب

قال ديك : سامحني الله فكأني ارى الحريق يتصاعد الينا

وفي الحقيقة كانت تلك الحلة الملتهبة والمتأججة ناراً ترتفع نحو المنصورة والاصوات المصحبة مرتفعة معها والقرابينات تطلق في الجوّ فتأهب يوسف لان يلقي ثقلاً رغبة في الارتفاع وما مضت برهة الّا فهم فرغوسن واقعة الحال

فان هؤلاء الاقوام كانوا قد ارسلوا حماماً بعد ان علقوا في اذنابها مواداً مشتعلة فلما احست بالنار اخذت تطير هرباً منها وارتفعت في الجوّ وهي تخط تلك الشعاب النارية . فجعل ديك يطلق الرصاص على قدر مكنتهِ ولكن اعداؤهُ كثيرون لايحصون عدداً فكانت الحمام قد بلغت القبة واحاقت بها فشوهدت جوانب المنصورة كأنها في شبكة ملتهبة من جرا سطوع النور عليها

فما تمالك فرغوسن ان رمى قطعة معدنية ثقيلة وارتفع حالاً بسرعة فوق تلك الطيور الخطرة وقد حامت الحمام تحت اقدامهم نحو ساعتين من الزمان وهي

طائرة الى انحاء مختلفــة . ثم اخذت تخف وتنقص رويداً رويداً الى ان توارت عن البصر بالكلية وانطفت نارها

فقال العلامة : الان يمكنا الرقاد براحة

قال يوسف · ان هذا العسكر مدهش ويدل على حذق عند هؤلاء البرابرة

قال العلامة . ان كثيراً ما يستعملون الحمام لاحرق القش المغطاة به اكواخ القرى واما قريتنا فطارت وعلت عن حمامهم

قال ديك حقاً ليس للقباب الطيارة اعداء يتحكمون من نصرة اصحابها

قال العلامة : بلى يا صديقي

قال ديك : ومن عساهم يكونون

قال العلامة · انما هم اصحابها القليلو الفطنــة الذين يركبونها ولهذا احثكما يا خليليَّ على التيقظ والفطنة فان الفطنة لا بد منها في كل امر

## الفصل التاسع والعشرون

في الارتحال في الليل والكلام عن عرالشاري وبحيرة شاد ومدنها وفرس النهر واطلاق الرصاصة عليه عبثاً

ولما كانت الساعة الثالثة بعد نصف الليل ويوسف اذ ذاك قائم في حراسة رعه رأى المدينة آخذة في الابتعاد عنهُ وسارت المصورة في الجو واستيقظ حينئذٍ العلامة والصياد معاً

فتطلع وعوس في البوصلة وعرف ان الريح تدفعهُ الى شمال الجهة الشرقية فطاب منهُ الخاطر

فقال ان نجم سعدنا مقبل معنا وقد نجحنا في كل مسعى وسنكتشف اليوم بحيرة شاد نفسها

فسأل ديك قائلًا وهل هذه البحيرة فسيحة كثيرًا

قال وعوس انها عظيمة جدًا يا صديقي ديك واذا قيست في طولها وعرضها الانكليز بلغت مائة وعشرين ميلا

قال ديك انا نغير المنظر تسييرنا فوق بساط مائع

قال وعوس ماهيك بالمناظر والمشاهد الكثيرة التي تراءت لاعيننا في رحلتنا هذه فليس لنا باعث للتشكي وعلى الخصوص من حيث اننا تنزهنا عن المخاطر الجسيمة

قال ديك نعم يا سيدي صمويل ما خلا امساكنا من الماء في قلب الصحراء فلولاه لما عددنا واقعة واحدة مخطرة في رحلتنا كلها

قال وعوس . ان مصورتنا عافاها الله حافظت على متانتها ولم يطرأ عليها طارئ فها نحن الان في اليوم الثاني عشر من شهر ايار وقد رحلنا في اليوم الثامن عشر من شهر نيسان فكون قد مشينا خمسة وعشرين يومًا وان

شاء المولى سنصل بعد عشرة ايام

قال ديك  والى اين الوصول

قال فرغوسن  الى حيثما شاء ربك ولكن هذا لا يهمنا كثيراً

قال الصياد · اصبت فلندع العناية الربانية تأخذنا الى حيث شاءت معافين صحيحين كما نحن الان لعمري لا يبين علينا اننا جزنا البلاد الاكثر وباء من العالم

قال فرغوسن . ولكن كان في استطاعتنا ان نرتفع الى العلو لنحمو من وبائها وهذا ما عملناهُ

فصاح يوسف وقال · حيّ الله الاسفار الجوية فهـا اننا سرنا في هذه الرحلة مدة خمسة وعشرين يوماً ونحن في صحة تامة وراحة وانشراح  ولم يخلُ من الاطعمة الطيبة غير اننا جزنا راحةً زائدة للحـد ولذا احسُّ ان ساقيَّ اخذتا في التخدر لقلة الحركة وحبذا لو مشيت مسافة ثلاثين ميلاً لانتعش واتقوّى

قال العلامة · مهلاً ستفعل ذاك في ارقة لندرة · ثم اعلم ياصديقيَّ اننا سافرنا ثلاثة كما سافر دنهام وكلابرتون واوفرويك وكما سافر ايضاً برث وريشردسون وفوجل واما نحن فلنا حظ وسعد اعظم اذ لم يفترق منا احد ويهمني ان نبقى ثلاثتنا سوية فلو لا سمح الله بذلك حدث مرة ان واحداً منا يكون على الارض واضطرت المنصورة الى الارتفاع تخرصًا من خطر فجائي غير منتظر فمن يعلم ان كنا نتمكن من الاجتماع عليه ولهذا اقول لديك بحرية تامة اني لا اود كثيراً في ان ينطلق الى الصيد خوفاً من مثل تلك الرزية

قال ديك : ولكن اؤمل ان تسمح لي بذلك لانهُ ينفعنـا لتجديد زاد اللحم فضلاً عن انك قبل ان نسـافر قلت لي ان البلاد الافريقية بلاد صيد

وفيها من كل ما يروق للخاطر وها قد جزنا اكثر الطريق ولم اصطد شيئاً ذات اهمية

فقال العلامة: الظاهر يا صاح انك نسيت ما فعلت او بالاحرى لا يدعك اتضاعك ان تتذكر ما اتيت من الاعمال المستحقة الذكر الجميل أليست ذمتك مثقلة بزرافة وفيل واسدين فضلاً عما كنت تصطاده للطعام في كل فرصة ولم يكن قليلاً

قال ديك: وهل يُحسب هذا للصياد الافريقي الذي يرى حيوانات الخليقة كلها تمر امامهُ مرور الطير والعصفور في بلادنا

وهاك الآن سربة من الزرافي

قال يوسف: أتظن ان هذه زرافي فاني اراها صغيرة لا تزيد حجماً عن قبضة الكف

قال العلامة: ليس ذلك الّا لاننا نبعد عنها الف ميل وامّا اذا دنوت منها شاهدتها تعلوك ثلاث مرار

قال ديك: وما قولك عن هذه الغزلان وتلك النعائم التي تجري جري الرياح

قال يوسف: وكيف تقول انها نعائم فاني لا اميزها قطعاً عن الدجاج اذ لا فرق بينها اصلاً

قال ديك: ألا يمكنا الاقتراب يا سيدي صموئيل

قال العلامة: نعم يمكنا الاقتراب ولكن لانستطيع النزول الى الارض فوالحالة هذه لا أرى لك نفعاً باطلاق الرصاص على هذه الحيوانات فلو اردت قتل سبع ام نمر ام ضبعة لكان ذلك محتملاً فانها من الحيوانات المضرة واما الزرافة والغزال فليس لك نفع من ذبحها انما يغريك على ذلك حبك بالصيد

بل فرط تولعك فيه ومع هذا فما انا مدنوس الارض حتى لانعلوها الّا نعلو مائة قدم فاذا صادفت حيوانًا كاسرًا رميتهُ برصاصةٍ في قلبهِ فيقر ملك الخاطر

ثم اخذت المنصورة في النزول رويدًا رويدًا ووقفت في العلو الوماً اليـهِ لئلا تدهمها داهية لان اهل تلك البلاد كثيرون ومتوحشون ويخشى على المسافرين من خطرٍ فجائي

وما انفكّ السواح طائرين فوق مجرى نهر شاري وسواحل هذا النهر مغطاة بعيّ الاشجار المتّسعة الاجناس ونباتات كثيرة ذات الوانٍ متنوعة. والتماسيح منها ما تختبط على الرمل ومنها ما تغطس في المياه بنزقٍ وتتناثر فيها وتتناهر بعد قليل شط الجزائر الخضراء القاطعة جريان النهر

وهكذا مرَّ السواح بمقاطعة مـــاتاي بين الحصار والحضارة الطبيعية وعند الساعة التاسعة صباحًا وصلوا الى شط بحيرة شاد الجنوبي وهذه البحيرة تشبه نحو قاف لانحصارها في اليابسة وانفصالها عن البحر المحيط وطالما قد أُدخل ذكرها في سلك الخرافات والحكايات التي لا اصل لها ولم يكتشف عليها سوى دنهـــام وبرث في رحلاتهما الافريقية

فحاول العلامة ان ياخذ رسمها الحالي المختلف كثيرًا عن رسمها المأخوذ ســـنة ١٨٤٧ وفي الحقيقة لا يمكن تسطير هيئة تلك البحيرة فانها محتاطة ببطاح موحلة يشق عبرها وكاد برث يهلك فيها عند ما اراد ان يقطع احداها ولا تمضي ســـنة على سنةٍ حتى تصبح تلك البطاح المغطاة بالقصب ونبات البرديّ الطويل قسمًا من البحيرة نفسها وكثيرًا ما تعم المياه بعضًا من البلاد المبنية على ساحل البحيرة كما جرى في مدينة نغرنو سنة ١٨٥٦ وشاهدوا البرانق اي حامر الماء تغطس في المكان الذي قامت فيه قبلًا مساكن مملكة البرنو

وكانت الشمس ساكبة اشعتها المنيرة على تلك المياه الصافية الهادية اما

في الجهة الشمالية فيرى العصران مختلطين في افق واحد

وعب ورغوس في ان يحقق طبيعة الماء الذي طالما قيل عنهُ انهُ مالحٌ

وحيث ليس خطر في الدنو من سطحهِ دنوت المصورة فوقهُ كالطير وعلت عن البحيرة نحو خمسة اقدام فقط

ثم تناول يوسف انية ودلاَّها الى البحيرة فملأَتصمها ماء ثم داقهُ العلامة ورأى انهُ لا يصلح كثيرًا للشرب ولهُ طعم يشبه طعمة الطرون

فبينا كان ورغوس يسطر نتيجة احتباراتهِ ومتحاناتهِ قد دوت في الافاق طلقة الرصاص فان ديكًا كان قد شاهد بريقًا حسيًا فلم يطق اصطبارًا وكان الدبيق في رواق تام فلما احس بدويّ الرصاص ضرب في الماء وكأنهُ لم يضطرب من رصاصة الصياد

قال يوسف . كان الاوفق لو مسكناه بخطافٍ

قال ديك . وما هو خطافا

قال يوسف . انما هو احدى مراسينا فانها كثيرة الموافقة لهذا الحيوان

قال ديك في الحقيقة هذا رأيٌ .

قال ورغوس : هذا رأيٌ ارجوان لا تعدوهُ لانا لو مسكنا هذا الحيوان بمرساتنا لجرنا حيث لا يروق خاطرنا

قال يوسف ما ا ا ولهُ فانا علمنا الان كنه ماء البحيرة وكفى . ولكن هل يوكل هذا السمك يا سيدي

قال العلامة ان سمكك هو حيوان من جنس الفيلة وقد قيل ان لحمهُ لذيذ ويتاجر بهِ كثيرًا سكان سواحل هذه البحيرة

قال يوسف : آه لو اصاب صاحبي ديك في ضربتهِ

قال العلامة . لا يمكن جرح هذا الحيوان الا في بطنهِ وبين افخاذهِ فربما لم

تحرجهٔ قط رصاصة الصياد ولكن ادا وافقني المكان فاني احطُّ على جهة البحيرة الشمالية فهناك منزل الوحوش وعلى ديك ان يفعل ما يشأ خاطرهُ

قال يوسف. اودُّ ان يصطاد ديك شيئاً من هده البرايا لادوق لحمها فانهُ ليس من الصواب ان يدخل الانسان قلب افريقيــة ويعيش فيها مقتاتاً بلحم دجاج الغاب والحمال البرية كمي بلاد الانكلير

٭ - ٭ - ٭

## الفصل الثلثون

### في عاصمة الدرو وظهور البواشق ومبارحتها المنصورة وما اظهر يوسف من الغيرة الخالصة عند احتراق عطاء القمة

وعند وصول المنصورة الى بحيرة شاد صادفت مهبًا مائلًا الى الجهة الغربية وقد تجلببت السماء بغيم حجب حرارة النهار ولم تحلُ الريح من الهبوب فوق تلك السافة الفسيحة المائية وعند الساعة الواحدة قطعت المنصورة قسمًا من البحيرة بخطٍ منحرف وتقدمت الى فوق الارض بمسافة سبعة او ثمانية اميال

فساء العلامة اتجاهه نحو تلك الناحية ولكن لما شاهد مدينة كوكا الشهيرة وهي عاصمة مملكة الدرو قلب كدرهُ الى سرور فاخذ ينظر الى تلك المدينة المحاطة بجدرانٍ من تراب الصحار وبيوتها المبنية على شكل زهر اللعب وجوامعها القليلة الاتقان واشجار النخل والصمغ المكللة عطلتها من الاوراق البالغة عرضًا اكثر من مئة قدم والنابتة بين البيوت وفي الساحات العمومية . فقال يوسف : ان تلك المطال مناسبة جدًا لتلك المحال نظرًا لاشتداد حرارة الشمس فيها ولخص من ذلك نتائج تشير الى حسن العناية الالهية

وكوكا مؤلفة من مدينتين ممتازتين الواحدة عن الاخرى وتفرقها طريق واسعة جدًا يبلغ عرضها نحو خمسمائة وثمانين مترًا وتعرف عندهم بالدندال وكانت وقتئذٍ عاصة بالخيالة والمشاة

فمن الجهة الواحدة ترى المدينة غنية ذات دور مرتفعة ومن الجهة الثانية ترى الفقر حالًا فيها وبيوتها لا تمتاز عن الاكواخ الحقيرة وسكانها فقراء جدًا لان كوكا ليست بمدينة تجارية ولا صناعية

وقد شبهها ديك عنبية ادمبرج اذا امتدت في سهلة واسعة وانقسمت الى مدينتين متفرقتين الواحدة عن الاخرى

ولما كانت مهات الرياح في تلك الناحية متقلبة حداً قد هبت ريح فجائية دفعت المنصورة الى ما فوق بحيرة شاد بعد ان سارت اربعين ميلاً فما كاد تمكن السواح من مشاهدة تلك المناظر

فتراءى لهم حينئذٍ مشهد جديد وهو جزائر البحيرة الكثيرة التي يسكنها البيديوماه وهم قرصان مشهورون يخشى منهم في تلك النواحي كما يخاف من التوارج في الصحراء

فتأهب هولاء القرصان لاستقبال المنصورة بالقسي والحجارة. اما المنصورة فارتفعت عن تلك الجزائر وحامت فوقها كحجل عظيم

ففي تلك الساعة ارشق يوسف طرفه الى جهة الافق ثم قال الى ديك: سيدي ديك انت الذي تهجس بالصيد ليلاً ونهاراً هوذا ما يجب خاطرك ويقضي وطرك

قال ديك: وما هو يا يوسف

قال يوسف: اظن ان سيدي لايكون هذه الدفعة من الخائبين لك في ضرب الرصاص

قال ديك. احكِ اذاً وما هو

قال يوسف: أترى في تلك الناحية البعيدة فرقة الطيور الجسيمة المتجهة نحونا

فسك العلامة منظرته وقال ما عساها تكون هذه الطيور

قال ديك: بصرتها نصرتها فانها تبلغ اقلما يكون الاثني عشر

قال يوسف: اظنها بالغةً اربعة عشر

قال ديك: أسأل المولى ان تكون هذه الطيور من المؤذيات لئلا يجد وعوسن حجةً عليَّ ويمنعني عن ضربها بالرصاص

قال وغوسن . ليس لي اد داك كلام اقولهُ لك اما اتمنى ان هذه الطيور تبتعد عنا بالكلية

قال يوسف . وهل تخاف منها

قال العلامة : انها نواشق من الجنس الكبير واذا وثبت علينا . . . .

قال يوسف . فاننا ندافع عن انفسنا لان الرصاص والبارود عندنا كثير جدًا ولا اظن تلك النواشق مجحفة جدا

قال العلامة . ومن يعلم بذلك

فما مضت عشر دقائق الّا اقتربت الفرقة من المصورة عن بعد مسافة طلقة رصاص لكنها كانت تصيح وتمرّ بصوتٍ أجشّ ولا زالت تتقدم نحو المصورة كأنها معتاظة منها ولم يعترها ادنى وجل ولا هلع

قال يوسف . ما هذا الصراخ والصيح اري انهُ يسوءها تسلطنا على ملاكها وطيراننا طيرها

قال ديك : في الحقيقة ان هيئتها مرعبة جدًا واظن انها كانت ترمي الهول لو تسلحت بالقرابينة التي اخترعها نوردي مور

قال العلامة كن على يقين انها ليست باحتياج الى تلك القرابينة

فاخذت النواشق تطير وترسم في طيرانها دوائر متسعة جدًا ثم حامت بالقرب من المصورة وكانت تحط السماء بسرعة طيرانها وتندفع اندفاع قلل المدافع وترجع الى الوراء رجوعًا بغتيًا

فشمل قلب وغوسن القلق والاضطراب من هذه الطيور ولذا عزم على الارتفاع في الجو هربًا من جوارهم المملوحظرًا

اما النواشق فلم يخطر لخاطرها ان تترك القبة الهوائية بل اتبعت اثرها الى الاعالي

وادحر الصياد سلاحهُ وقال - أرى انها تودّ مناطرتنا

وفي لحقيقة كانت تقترب من السواحل فمنها ما دنا نحو خمسين قدماً وكأنها تستخف باسلحة الصياد

فقال ديك اني ارغب كثيراً في ان اصرمها بالرصاص

قال العلامة - كلا يا ديك لا تورثنَّ نار عصها وهيجانها بلا سبب فاسنُ تحملها بالرصاص على مناطرتنا والوثوب علينا

قال ديك - ولكني لا احطئ في صربي الرصاص

قال العلامة أتظن ذلك يا ديك فانك في خطاء مبين

قال ديك عندنا لكل منها اكثر من رصاصة

قال العلامة - واذا لا سمح الله وثبت على جهة القبة العلياء فكيف يبلغ اليها رصاصك فأحسب انك امام فرقة من الاسود في البادية او بقالة كلاب بحرية في قلب المحيط وان مثل ذلك الخطر يضاهي خطرنا في الجو

قال ديك - أتتكلم بجدّ

قال نعم يا ديك وبجدّ حادّ

قال ديك - والحالة هذه فلنتطرنَّ برهةً

قال العلامة انتظر برهةً وكن على اهبةٍ اذا وثبت علينا ولكن اياك ان تطلق رصاصةً قبل ان املك امري

ثم احتشدت الطيور بالقرب من المصورة وكانت اذ ذاك مسلوحة الحنجرة من شدة صراخها وعرفها العصفور في مرتفعٌ تتجوف وعليه علوات ذات لون بنفسجي ويبلغ طول جسمها اكثر من ثلاثة اقدام واجنحتها متلالئة من اسفل باشعة الشمس المضيئة ولها مشابهة عظيمة مع الكلاب البحرية

ولما شاهدها العلامة تحققهُ الى الاعالي قال اني اراها تتبعنا ومهما

ارتفعا الى شرفٍ فانها تعلونا كثيرًا

قال ديك . فما الحيلة اذًا وما العمل

فلبث العلامة صامتًا وما تعوَّه بلفظةٍ

فاردف الصياد كلامهُ وقال : صخ لي سمعًا ياسيدي صمونيل فان هذه الطيور تبلغ الاربعة عشر ونحن عدنا سبع عشر طلقة رصاص فاذا صرناها بها هلاَّ نظن انا نبيتها كاس الموت ولك ان تعتمد عليَّ بجانب منها

قال العلامة . لاريب عندي في حذقك ومهارتك واوكد لك ان الطيور التي تقع هدفًا لرصاصك تذهب فريسة الحِمام ولكن اقول لك تكرارًا انها اذا وثبت على دائرة القبة العليا فكيف يصيبها رصاصك وسلاحك والحال تبع هذا الغطاء الذي يحملنا فنهوى في لجة عميقة لجة الهلاك اذ انا بعيدون عن الارض مسافة ثلاثة الاف قدم

وفي تلك الفترة دنا احد هولاء النواشق الاكثر توحشًا ووثب على المصورة ومخالبهُ ومنقاره اذ ذاك مفتوحة متأهبًا لان يبعج القماش الحريري

فقال العلامة : النار النار يا ديك

فما فاه بهذا الكلام الَّا أُصيب الناشق برصاصة الصياد وسقط وهو يدور في الجو

وقد كان الصياد اخذ البارودة ذات الطلقتين ومسك يوسف البارودة الثانية

فلما دوى صوت الرصاص شمل قلب الطيور الرعدة والهلع وتنحت قليلًا ثم عادت بعد برهةٍ وامارات الغضب لائحة على اطوارها فرمى ديك في الحال الطير القريب برصاصة اصابت عنقهُ وضرب يوسف طيرًا ثانيًا فكسر لهُ جناحيهِ

ثم قال : لم يبقَ منها سوى احدى عشر طيرًا

ففي الساعة والحال غيرت الطيور فنها في مهاجمة السواح وارتفعت جميعها ماتعــاقٍ واحدٍ الى ما فوق المصورة فطر ديك الى فرغوس ورأى وجههُ قد علاهُ الاصفرار رغمًا عن حماستهِ وجرأتهِ وقلة اكتراثهِ بطروق الحدثان واستولى على ثلاثتهم سكوتٌ عميق مشوبٌ بالاضطراب والهلع ثم سمعوا صوت تمزيق اشبه بتمزيق القماش الحريري وفي الســاعة هبطت مركبة السواح وكادت تفلت من تحت اقدامهم وتطرحهم ما بين السماء والارض

فطر فرغوسن الى البارومتر ورآهُ يرتفع ارتفاعًا هائلًا فصاح صارخًا : القوا الثقل حالًا . القوهُ

ففي دهشة عين توارت الحجارة المعدنية الباقية في المركبة

قال . لا زلنا نسقط ونهوي . افرغا صناديق المــاء ايضًا . ألا تسمع يا يوسف . . . ها لنا واقعون في البحيرة

فادعن يوسف لامر سيدهِ ثم مال العلامة برأسهِ ورأى البحيرة كأنها آتية اليهِ وترتفع الى العلوّ وشاهد الاشياء قد تعظمت في عينيهِ ووصلت القبة الى مسافة مائتي قدم فوق سطح البحيرة

فصاح العلامة قائلًا : القيا الزاد ولا تتركا منهُ شيئًا

ورمى الرفيقان الزاد مع صندوقه

فخفت سرعة السقوط ولكن ما برحوا ساقطين دائمًا وهم فوق البحيرة

فصاح العلامة صيحة اخيرة : ما بالكما لا ترميان ارميا ارميا

فقال ديك : ما بقي عندنا شيء

فقال يوسف بعجلة : بلى

قال هذا ورسم على ذاتهِ اشارة الصليب وغاب متواريًا عن المركبة الجوية

فصاح العلامة مرتاعًا . يوسف يوسف

فلم يستطع يوسف على سماعهِ . ولما حفَّ ثقل المركبة انفكت عن الهبوط وارتفعت الى الاعالي نحو الف قدم وتعبأت الريح بغطاء القبة المحروقة فدفعتها الى جهات البحيرة الشمالية

فقال الصياد ايسًا واسفاه عليهِ فانهُ وقع في لجة الهلاك وعدماه

قال العلامة اما هلاكه فكائن لمحالتنا يا ديك

ثم ادرت عيون هذين البائسين دمعة سخينـــة لفراق خليلهما واشرفا على الارض ليجدا لهُ اثرًا فما وجدا لانهما ابتعدا كثيرًا

فقال ديك ما حيلتنا الآن وماذا ترى نستطيع ان نصنعهُ

قال العلامة · مرادي ان احط في الارض باول فرصة تمكني من ذلك

وبعد ان سارت المصورة مســـافة ستين ميلًا نزلت في موضع قفر في شمالي البحيرة وعُلقت المراسي في شجرة قليلة الارتفاع ثم حكمها الصياد تحكيمًا فدخل الليل وحاول الرفيقان الرقاد فلم يقدرا على ذلك

## الفصل الحادي والثلاثون

في طوف السواح واصلاح موازنة القبة الهوائية وحساب العلامة
وصيد الصياد والاستقراء في بحيرة شاد

ولما كان عد اليوم الثالث عشر من شهر ايار عرف السواح الجهة التي حلاًّ فيها فكانت شبيهة بجزيرة قائمة في وسط بطحة عظيمة وحول هده اليابسة قصب كبير كاشجار اوربا يمتد على مدى النظر

وكان مركز المصورة اميناً لايخشى عليها من خطر لان البطحة صعبة الممر وما لزمهم ان يتنبهوا الا الجهة البحيرة فان الما كان آخذًا بالانبساط خصوصاً في الجهة الشرقية ولا يُرى امامهُ ارض ولا جزيرة البتة

ولم يكن الرفيقان قد تجاسرا بعدُ على المحادثة عن حليفهم يوسف البائس وافتتح الصياد الحديث عنهُ واحد يبث تحسياته لرفيقهِ

فقال: على ظني ان يوسف لم يذق كأس الحمام فانهُ شهم شجاع نبيه وعارف في السباحة بل قليل المثال بهِ ولما عبر حليج ادمبرح لم يظهر عليـهِ ادنى ارتباك ولا شيء من الاضطراب ولابد من ان نعود نراهُ ولكن لا علم لي كيف ومتى يكون ذلك . امَّا نحن فعلينا ان نبذل الجد والجهد ولا نهمل واسطة لتمكنهُ من الاجتماع علينا

فقال العلامة بصوتٍ شجي احاب الله سؤالك يا ديك فاننا نفعل ما في وسعنا لنجدهُ فلنهتدِ اولًا على مركزنا ولكن قبل كل شيء يجب ان نقلع عن القبة هذا الغطاء الخارجي الذي ليس لهُ نفعٌ فان وزنهُ يبلغ مائة وثمانيـة ارطال فهذا لعمري ثقل جسيم نلقيهِ عنا

فابتدأ العلامة وديك بالعمل وفي اوّل الامر تحكدا صعوبة كلية لانهُ لزمهما ان يقلعا القماش الحريري الصلب قطعة فقطعة وان يجزءاهُ شقفاً صغيرة ليجرحاهُ من بين خيطان الشبكة التي عليهِ وقد نظرا الى خرق الباشق في الغطاء فكان كبيرًا جدًا

وقد استمرا في العمل نحو اربع ساعات ولكن لما تجردت القبة الداخلية من هذا الغطاء العظيم بانت غير ممسوسة وكانت وقتئذٍ المصورة قد خفت من حمل ثقلها فتعجب ديك كل العجب من هذا الفرق الباهظ

فسأل رفيقهُ العلامة قائلًا ـ هل يمكن لهذه القبة الصغيرة ان ترفعنا الى الجو

قال العلامة : كن على طمانينة وراحة بال من هذا القبيل لاني اصلح الموازنة واذا عاودنا يوسف احدناهُ معنا ورجعنا الى المسير في طريقنا حسب العادة

قال ديك : اظن يا سيدي صموئيل اننا لم نكن بعيدين عن جزيرةٍ وقت سقطتنا

قال العلامة ـ نعم وانا اذكر ذلك واظن ان هذه الجزيرة كسائر جزائر بحيرة شاد يسكنها نسل قرصان وقتلة ولا بدَّ انهم دروا بكبتنا واذا وقع يوسف بين ايديهم فماذا عسى يحل فيهِ ان لم يخالجهم اعتقاد باطل يصدهم عن قتلهِ

قال ديك : اقول لك انهُ ماهرٌ في جميع الحرف وانا واثق جدًّا بفطنتهِ ولباقتهِ

قال العلامة : وانا ايضًا واثقٌ بهما واما الان يا ديك فاذهب واصطد لنا ما يكفي زادنا لانهُ قد فرغ من عندنا كل شيء ولكن اياك ان تبعد كثيرًا

قال ديك : على رأسي فلا اطيل عليك الغيبة

فأخذ ذلك البارودة ذات الطلقتين وتقدم بين الحشيش المرتفع النابت في غابة ليست بعيدة ولما سمع العلامة بعد برهة تكرار دوي الرصاص تيقن ان صيده لا يخلو من ثمرة جيدة

وفي غضون ذلك اخذ العلامة ينظر الى ما بقي في المركبة وعزم على اصلاح موازنة القبة الصغيرة ورأى فيها نحو خمسة ارطال من اللحم المملح وقليلاً من الشاي والبن ونحو خمس ليترات من العرق وصندوق ماء فارغ

ولم يكن خافياً على العلامة ان خسارة الادروجين الذي انسرب من القبة الكبرى سبب لها نقصاً في قوتها الرافعة نحو تسعمائة ليبرة انكليزية. فاتخذ العلامة هذا الفرق اساً له ليصلح الموازنة فان وسع المصورة الصغيرة سبعة وسبعين الف قدم مكعبة وهي تحوي ثلاثة وثلاثين الفاً واربعمائة وثمانين قدم غازٍ مكعبة ولما آلة امداد الغاز فما زالت غير ممسوسة وصحيحة البنيان وهكذا الكرة والانبوب الذي على هيئة البرغي فانهُ لم يصبهما ضررٌ البتة

فلمت اذاً قوة القبة الرافعة نحو ثلاثة الاف ليبرة انكليزية فاذا جُمع ثقل السواح وزاد الماء والمركبة مع ضروريّاتهــا وأُضيف الى ذلك نحو مائتين وخمسة وعشرين ليترًا من الماء ومائة ليــبرة انكليزية من اللحم الرخص فيكون مجموع ذلك الفين وثمانمائة ليبرة وبالحالة هذه يمكنهُ ان يأخذ معهُ ثقلاً يبلغ وزنهُ مائة وسبعــين ليبرة فيستعملهُ عند الحاجة وهكذا كانت القبة في موازنة تامة مع الهواء المحيط

فتمم العلامة بالفعل هذا النظام واقام مقام وزن يوسف ثقلاً زائداً من الرمل وقد لبث منشغلاً الى ان ولى النهار بالادبار فعاد ديك الى رفيقهِ وقد صاد صيداً وافرًا من الاوز والبط البري ودجاج الغاب وغير ذلك فهيأها جميعها واحماها في النار بادخال قضيبٍ رفيع في كل قطعةٍ منها وتعليقها فوق حطب

اخصر مضرم بالنار وبعد ان تدحرجت بدرجة أعجبت خاطر ديك رفعها ووضعها في المركبة

وكان الصياد متأهباً لان يتمم المؤنة في الغد

ولما جن الليل على السائحين تعشيا لحماً مملحاً وكعكاً وشاياً وبعد ان اكلا جيداً من قبل التعب السابق استولى عليهما النعاس فناما وكان كلٌّ منهما سهراناً بالحراسة في دوره فكنت تراهما كأنهما يسألان الظلام متفحصين عن رفيقهما يوسف وكان يخال لهما احياناً انهما يسمعان صوتهُ ولكن واحسرتاه على هذا الصوت الذي تمنيا استماعهُ فانهُ لم يطرق آذانهما حقيقةً

ولما سطعت اشعة الشمس المنيرة ايقظ العلامة رفيقه ديك وقال لهُ. لقد اطلت الفكرى في ما ينبغي علينا فعلهُ لنجاة رفيقنا

قال ديك. قل يا سيدي فاني قابل برأيك قبل ان اعلمهُ

قال العلامة من الضرورة ان نطلع يوسف على اثرٍ من احوالنا

قال ديك لا بُدَّ من ذلك لانهُ اذا تصورانا تركناه فيستولي عليهِ اليأْس والقنوط

قال العلامة: لا تظن مثل ذلك الظن فان يوسف يعرفنا حق المعرفة ومن المحال ان يطرقهُ فكر كهذا. غير انهُ يقتضي ان يعرف مكاننا ومقرنا

قال ديك: وكيف العمل

قال العلامة انا مزمعون ان نجلس في المركبة ونرتفع الى العلا

قال ديك. وعسى ان الريح تدفعنا الى ما ابعد مما جيئنا حينئذٍ

قال العلامة. ان الريح لا تدفعنا الى حيث لا نشأ تأمل مهبها الحالي فانها تدفعنا الى فوق البحيرة وهذا ما رغبهُ الان ويوافقنا وسندل وسعنا في ان نستقر فوق هذا البساط المائي طول النهار فلا شكَّ في ان يوسف ينظر

اليا حيث ان عينيه متجهتان دائمًا الى العلو وربما يجد ايضًا وسيلة ليدلنا على مقرهِ

قال ديك· اذا كان مقيمًا وحدهُ فانهُ يدلنا لامحالة

قال العلامة: ولنعرض انهُ أُخذ أسيرًا فمن عادة هولاء الاقوام ان يحبسوا المأسورين في الاماكن الحجارية وعليهِ فانهُ يشاهدنا وبينهم غاية تفتيشنا

قال ديك· ولكن فلننظر الى سائر الاحوال ولنعرض انا ما وجدنا له اثرًا ولا وجد هو منا دليلًا فترى ماذا نصنع

قال العلامة انا نبذل جهدنا في ان نصل الى جهة البحيرة الشمالية ولنلبث منتظرين على قدر استطاعتنا وهناك ننتظر ونستقرئ السواحل والشواطئ فلا بُدَّ ان يوسف يجدُّ في الطلوع الى احداها ولا نترك تلك المحلات الا من بعد جهدٍ كلي نبذلهُ حبًّا بهِ

قال الصياد· هيا بنا اذًا على الرحيل

فسطر العلامة مركز اليابسة التي ازمع ان يرحل منها فكانت بموجب رسومهِ في شمالي بحيرة شاد بين مدينة لاري وقرية أنخيمي اللتين زارهما القائد دنهام وفي خلال ذلك اكمل الصياد مصيدتهُ ولم يصادف في طريقهِ شيئًا من الوحوش الضارية التي تكثر في تلك البطاح

ولما كانت الساعة السابعة صباحًا نُشلت المرساة من الشجرة بتعبٍ جزيل مع ان يوسف كان يرفعها دائمًا بلا اعياءٍ ثم انتشر الغاز وارتفعت المنصورة الجديدة الى علو مائتي قدم عن الارض ففي اوَّل الامر اضطربت قليلًا ودارت على ذاتها لكنها دُفعت من ثمَّ بهبوبٍ شديد وتقدمت الى فوق البحيرة وهي تسير مسافة عشرين ميلًا في الساعة

فابرح العلامة واقفًا فوق البحيرة بعلوّ مائتين الى خمسمائة قدم وذلك

يفزع احياناً قرابينته وكانا ياخذان بالوطوء فوق الحراز ويقتربان كثيراً من الارض بل يخاطران بنفسيهما ويستترنان ناعيهما في الآجام والادغال وفي كل لطوة او صخرة كان يمكن ان يختبئ بها رفيقهما ونزلا مراراً الى قرب القوارب الموجودة في البحيرة . فعند ما كان يبصر الصيادون بالقبة الهوائية كنت تراهم يبادرون الى القطس بالماء ويسبحون حتى يصلوا الى جزيرتهم وامارات الجزع والهلع لائحة على اطوارهم وهيأتهم

وبعد ان استقرأوا مدة ساعتين قال ديك : ما وجدنا شيئاً

قال العلامة : مهلاً يا ديك ولا تقطع الرجاء منذ الان فانا لسنا بعيدين عن مقرّ الحادثة

وعند الساعة الحادية عشرة تقدمت المنصورة تسعين ميـلاً ومن ثمّ صادفت مهباً دفعها الى الجهة الشرقية بمسافة ستين ميلاً وحامت وقتئذٍ فوق جزيرة متسعة كثيرة السكان حسبهـا العلامة جزيرة فرّام حيث توجد عاصمة البيديوماه وعند كل اجمة كان يرجو فرغوس ان يسمع صوت يوسف يناديه فقال في نفسه عساهُ حرّاً لم تأسره البرابرة فانا ننشله بلا تعب ولا اعيـاء وهب انهُ اسير فسنعمل لشأنه ما فعلناهُ بذلك المرسل العازاري وهكذا يعود اليـنا بالسـلامة

ولكن لم يسمعا صوتاً ولم يشاهدا له اثراً فكان ذلك مما يوجب اليأس والقنوط

وفي الساعة الثانية ونصف بعد الظهر وصلت المنصورة الى قبـالة قرية تنغاليا الكائنة على جانب شاد الشرقي وهي النقطة الاخيرة التي بلغ اليها القائد دنهام وقت دخوله في طون افريقية

فشمل قلب فرغوس القلق والاضطراب من جرى تداوم اتجاه الريح لانهُ

رأى انها دافعته الى الجهة الشرقية حيث مركز افريقيــة والقفار والبوادي التي لا نهاية لها ولا مناص منها

فقال وقتئذٍ لرفيقه ديك . لا بُدَّ من الوقوف هنا والنزول الى الارض وينبغي لنا الرجوع الى البحيرة حبًّا بصالح رفيقنا يوسف وقبل كل شيء . فنجد منها مخالفًا للمهبّ الحالي

فلبث مدة ساعة وهو ينتقل من طبقةٍ الى طبقةٍ في الجوّ وما انفككت المنصورة معرّجة الى الارض ولكن بعلوّ الف قدم صدفت ريحًا شديدة دفعتها الى شمالي الغرب

ولما عاد العلامة ورأى شاطئ البحيرة الشمالي أخذ يطيّب نفسهِ ان يوسف ليس بموجود اصلًا في جزيرة من جزائر البحيرة والّا لقد كان اظهر ذاته لرفيقيهِ باي واسطةٍ كانت ثم قال عسى ان الافريقيين دفعوا بهِ الى البر

ولم يخطر قط ببال الرفيقيين ان يوسف ذهب فريسة الغرق لانهُ ماهرٌ في فن السباحة ولكن ما طرقهما تصوُّر هائل وهو ان التماسيح كثيرة الوجود في تلك النواحي وقد اعترى هذا الفكر حال كليهما ولكن لم يتجاسر احدهما ان يكاشف بهِ الآخر بل انهُ دهمهما علناً حتى ان العلامة ما تماسك ان قال بدون ديباجة لا تلبث التماسيح الّا على شواطئ الجزائر او البحيرة وليوسف فطنة كافية تحميهِ وهي ايضاً قليلة الخطر لان اهل ذلك البلد يسبحون في الماء ولا يخافون من وثباتها

فما فاه ديك بجواب بل آثر السكوت على المباحثة بهذا الامر المكدر

وعند الساعة الخامسة مساء اشار العلامة الى قرب مدينــة لاري ولما وصلا اليها شاهدا سكانها مشتغلين في حصاد الاقطان امام اكواخهم المبنيــة من القصب المجدول وسط حظائر طينية ومنتظمة وكان مجموع تلك الاكواخ

النالعة نحو الخمسين واقعاً في ارض منخفضة في وادٍ متسع قائم بين جبـــال واطية . ودفعت الريح لشدتها منصورة السوّاح اكثر مما كان يرغب فيه العلامة ولكن لم تدم على ذلك الحال بل انقلبت مرةً ثانية وارجعتهُ الى مركز سفرهِ اي الموضع الذي قضى فيهِ ليلتهُ السالفة ثم تعلقت المرساة في دردم من القصب القائم هناك بكثرة عظيمة اذ لم تُصادف شجرة تلتصق باغصانها

ثم كابد العلامة صعوبة كلية لتهدئة المنصورة من شدة الريح لكنها خمدت بدخول الليل وسهر الرفيقان كلاهما وهما مكبلان بقيود القنوط

## الفصل الثاني والثلاثون

في الروعة الشديدة وما اشمل به الرفيقان من الفكرة المكدّرة وهبوب الريح المصادة والموافقة والرجوع الى الجنوب

وعند الساعة الثالثة صباحاً هبت ريحة شديدة شبه العاصفة وكادت المصورة تهوي الى الارض من ثقلها بايدي تلك الريح والقصب الذي حولها يتمايل ويتهدد القبة بالتمزيق

فقال العلامة · هيا بنا على الرحيل يا ايها الخليل لان حالتنا لا توافقنا

فقال ديك ويوسف هل نتركهُ

قال العلامة · معاذ الله تعالى ان اتركهُ او انساه ولو دعتني العاصفة الى مئة ميل في الشمال فاني اعود اليه ولكن هنا خطر على جميعنا

فصاح الصياد بصوت الكآبة وانزعاج الفؤاد وقال: كيف نرحل بدونهِ

قال العلامة · أتظن يا ديك ان فؤادي ليس بمجروح مثل فؤادك على واقهِ ولكن هلاَّ تصطرنا الضرورة القصوى الى الرحيل من هنا

فقال الصياد: هاأنذا بين يديك فلنرحلنَّ اذًا

ولكن حال دون ارتحالهما صعوبة جزيلة لان المرساة كانت مشتبكة اشتباكاً شديداً ولم يستطع الصياد على اقتلاعها فكانت الريح تدفع القبة وتقلبها على وجهٍ مخالف واضحى حال ديك في خطر مبين لانهُ خاف ان تفلت المرساة بومضة عين وترحل القبة الى المواطن الجوية قبل ان يبلغ اليها

فلم يرغب العلامة في ان يعرض رفيقهُ لهذا الخطر بل ادخل الصياد الى المركبة وصمم على قطع حبل المرساة وبعد ما قطعها قفزت المصورة قفزة هائلة الى العلاء وسمت عن الارض نحو ثلاثمائة قدم وسارت نحو الشمال على الخط المستقيم

فانقاد فرعوسن لتلك الروعة وكتف دراعيه على صدره وهو في المركة عارقًا في بحرٍ من الافكار الحزينة

وبعد سكوتهٍ برهةً التفت الى رفيقهِ ديك وقال · اننا لربما جرسا المولى لانه لم يُعطَ للانسان ان يرحل بمثل هذا الرحيل

قال هذا وتنفس الصعداء من قلب جريح

قال الصياد · لقد هيأنا بعضنا البعض من برهة بعض الايام تخلصنا من الاخطار والويلات الكثيرة في رحلتنا الافريقية · هل ترى نقض الان المقال

فصاح العلامة قائلًا: واسفاهُ على يوسف النيس ذلك الشهم الكريم المجبول باللطف والمروءة ذي الطبع السليم الريان من ماء المكارم والفتوة· فانهُ بعد ما أُحدِ عقلهُ بالثروة والغنى من الكنوز الثمينة ما تماسك ان صحابها جميعها صهودا هو الان بعيدٌ ما والريح تدفعنا بسرعةٍ لا صدَّ لها وتقصينا عنهُ

قال ديك · ولكن فلنعرض سيدي فرغوسن ان يوسف التجأ الى احدى القبائل الكائنة في بحيرة شاد اما تراه يتمكن من الرجوع الى بلاده كما عاد دنهام وبرث الى الاوطان

قال العلامة · ولكن يا صاحبي ديك ألا تعلم ان يوسف يجهل لغة هؤلاء الاقوام ولا يعرف كلمة واحدة منها وهو وحدهُ لا رفيق لهُ ولا حيلة · واعلم ان السواح الذين تكلمت عنهم كانوا قبل ان يتقدموا في البلاد يرسلون الهدايا العظام الى رؤساء الاقوام ومعهم ايضًا فرقة من الجنود الشاكين بالسلاح المستعدين لهذه الرحلات ومع كل ذلك كان لابدَّ لهم من احتمال العذابات والمشقات باسواء حال · فماذا ترى اذًا يحل برفيقنا المسكين فان هذا

الفكر يقاتلني ويؤلمني وفي حياتي قط لم اتكبد حزنًا اشدَّ مرارةً

قال ديك: ولكن سنرجع اليهِ سيدي صموئيل

قال العلامة · انا سنرجع ولو الجأتنا الاحوال الى ترك المنصورة او العودة الى بحيرة شاد راحلين بل الى فتح المخابرات مع سلطان البرنو. فاني لا اظن ان العرب عندهم سوء ذكر نحو الاوربيين الاولين

فاجاب الصياد بعزم وحماسة القلب : وساتبعك الى حيث سرتَ فلك ان تعتمد عليَّ واذا لزم الامر أيضا نتمم سفرتنا وكما ان يوسف اطهر حلوصه نحونا واوقع نفسه في المهلكة حبًا بنا فاننا نضحي دوانا لاجلهِ

فاحيا هذا الكلام روح الشجاعة والشهامة في قلب السائحين وشعروا انهما متشددان بالفكر نفسه ثم عمل العلامة ان يلتي مهمًا محالفًا يقربه من بحيرة شاد وبذل جهده في ذلك غير انهُ قد تعسر عليهِ حتى النزول الى تلك الاراضي لكون الزوبعة ما زالت شديدة الهبوب

وهكذا مرَّت المنصورة باقليم تيبوس وحازت قفرًا ذات اشواك يُعرف ببلد الجريد وهو على تخوم بلاد السودان ثم دخلت بادية الرمال المخططة بآثار القوافل فشاهدوا الروضة التي في تخوم البادية مكسية بالخضار وفيها آبار كثيرة تحتاط بها الاشجار الجميلة وهي اعظم روضة في البلاد الاوريقيـة. لكنهم لم يستطيعوا الوقوف فيهـا ولـكن لم يحلُ القفر من قوم عربان وبعض الخيم والابال المادة رؤوسها فوق الرمال شبه رؤوس الافاعي . فمرَّت المنصورة فوقهـا كسهم حار وهكذا طافت مسافة ستين ميلًا ببرهة ثلاث ساعات وفي تلك المدة كلها ما استطاع فرغوس ان يقمع القمة الهوائية في مسيرها

فقـال حينئذٍ: ما هذه الحالة التي نحن فيها فانا لا نستطيع الوقوف ولا النزول اذ ليس شجرة ولا صخرة يلقى عليها مرساتنـا فهل يا ترى ارمعنا ان

تجوبر الصحراء من اقصائها الى اقصائها في الحقيقة ان المولى سبحانه وتعالى يعارضنا في نيل منانا

وفيما كان يتفوه بهذا الكلام وامارات الغيظ واليأس مستولية على محياه اذا لاح له من الشمال ان رأى رمال البادية ثائرة في وسط غبار كثيف وهي تدور محركة من الجهات المتضادة المشتبكة في الجو

وكان في وسط تلك الزوبعة قافلة بكاملها مبتلعة من ثوب تلك الرمال الطيارة وقد تبددت شذر مذر ادلعبت بها ايدي الرياح فكنت تسمع حينئذٍ أطيط الابال وحنينها وتأوه الناس وصراخ يأسهم وانقطاع قلبهم وتارة كان يطير عنهم ثوب مشكل الالوان ويحوم مع الرمال وفوق هذا جميعه كان عصف الزوبعة يشبه قصيف الرعد بالهدير والعجيج

وبعد ذلك احدث الرمال في التكدس بعضها فوق بعض وتألفت منها اكام وربوات بحيث كانت السهلة الممتدة كالبساط قامت علوة فوق القافلة جثة رمس لها

فتأمل الرفيقان هذا المشهد المرعب ووجههما مكلل بالاصفرار وما عاد في مكنتهما ان يبصرا القبة الهوائية الدائرة في وسط مجاري الرياح المتضادة حتى لم يعد يمنعها انتشار الغبار وامتداده واذ وقعت في شباك تلك الموارة الهوائية اخذت ترتجف وتسرع في مسيرها وتتدبدب تذبذباً هائلاً وجعلت الالات الموضوعة في المركبة تتلاطم بعضها بعضاً حتى كادت تتحطم ومالت الانابيب حتى اوشكت الانقطاع وصارت صناديق الماء تتناقل من مكانها بضجة وحركة شديدة وتعسر على السائحين ان يسمع الواحد صوت الآخر مع انهما غير مفترقين بعضهما عن بعض مسافة قدمين وكان كلٌّ منهما متمسكاً بالحبال ومحاولاً ان يمكث ثابتاً رغماً عن هياج الزوبعة

وكان شعر الصياد معتزًا وهو ينظر الى الرياح صامتًا ساكتًا . واما العلامة فحول هيئتـهُ الى الخسارة والحواة حسب عادته عند ما الت به الاخطـار ولم تلح على وجههِ لمارات الاضطراب الشديد مل كان في رواق تام ولم يضطرب ايضاً عند ما وقفت المنصورة محاذاةً في الطبقـات الجوية بعد ان دارت على ذاتهـا دورة اخيرة ثم علت ريح الشمال وطفرت بجميع الرياح وعكست مسير المنصورة وذلك بسرعة زائدة كما جرى في الصباح

فصاح ديك قائلاً : والى اين نحنُ ذاهبون

فقال العلامة . دع العناية الالهيـة تفعل بنا ما تشاء واني قد احطتُ بعدم اتكالي عليها وهي عارفة بما يوافقنا اكثر منا وها نحن راجعون الى الاماكن التي آيسنا من العودة اليها

واما الطريق التي سارت فيها المنصورة فاختلفت قليلاً عن الطريق التي اتوا بها صباحاً ولذا شاهد السائحان في خلال الساعة التاسعـة فسيح البادية عوضاً عن مشاهدة سواحل بحيرة تشاد

فاشار ديك الى العلامة بهذا الامر

فقال العلامة . هذا لا يهمنا كثيرًا ويكفينا ان نرجع الى الجنوب فاننا نصادف هناك مدائن الدربو ودّية وكوكا ونحط فيها لا محالة

فقال ديك حيث انت راضٍ بما نحن عليهِ ومنشرح الخاطر فانا على ما انت عليهِ ولكن ارجو المولى ان لا يدعنا نطوف الصحراء فيحلّ بنا ما حلَّ باولئك الاعراب التعيسي الحظ وفي الحقيقة ان ذلك المنظر اثر فيَّ وارعب مني الفؤاد

قال العلامة ان هذا الامر كثير الحدوث فان اخطار التطواف في القفار يضاهي اخطار السفر في البحار لان البادية تتناول جميع اخطار البحر حتى والابتلاع

نفسهُ وزد على ذلك ان البادية فيها اتعابٌ ومشقات لا يُطاق احتمالها والتجلد لها

قال كادي : ارى الريح مائلة الى الهدوء والاستكانة فاني اشاهد عثرة الرمال تخف كثافةً وتموجها يقلُّ والافق يأخذ في الانجلاء من عشاوته

قال العلامة : حسنًا تفعل الريح بهدنها فعلينا ان نفحص الافق لئلا تفوتنا نقطة واحدة لا ننظر اليها

قال ديك : دع هذا الامر عليَّ فاني انبئك حالًا عند ما اصادف اول شجرة

قال هذا واخذ المنظرة وجلس في مقدم المركبة

---

## الفصل الثالث والثلاثون

في قصة يوسف وما كان من عادة الامريقيين له ووصوله الى ارياف البحرة
وسعره راحلاً ومكابدته المشقة والتعب والجوع ومرور المصورة وارتحالها
ويأسه وصراخه الاخير

فماذا يا ترى قد اصاب يوسف في عصون تفتيش العلامة عليه وتكبده التعب الباطل حناً به

فاعلم وفقك الله ان يوسف في سقوطه في البحيرة اول ما بدا منه كان انه نظر الى العلاء ورأى المنصورة قد سمت عن البحيرة وعلت بسرعة الى الجو ثم غابت عن عينيه باتجاهها الى جهة الشمال فايقن حينئذٍ ان سيده وصاحبه ذلك فارا بالنجاة

ثم قال في نفسه : انهُ ضرب من السعادة والحظ ما طرقني من الفكر لان ارمي بنفسي في البحيرة فداء لرفيقيَّ لانه لما كان طرق هذا الفكر صاحبي ذلك الصياد فلو حيل سهمه لما كان تماسك قط عن تتميمه بالفعل . ولامرُ صوابي هو ان يبذل انسان نفسهُ رغبة في نجاة اثنين اذ يتفضل الاثنان على الواحد في كل حساب

ولما اطمأنَّ خاطره من هذا القبيل اخذ يهتمَّ بامر نفسه فانه كان مقيماً وسط بحيرة عظيمة جداً وحولها اقوام يجهلهم بالكلية وربما هم من البرابرة المتوحشين لكنهُ قال في ذاته . ان ارتعابي من هذا والفكر به قبل اوانه لا يجديني نفعاً بل من الواجب عليَّ ان اضاعف حرصي وتحذري لاتخلص من حالتي والَّا كنت انا الخاسر

وكان قد لح جزيرة في الافق قبل ان تحمل الطيور الجوارح على القبة وقد زعم يوسف ان تلك المواشق تصرفت تصرفاً لائق لشراستها المألوفة . فعزم اذاً

على الدهاب الى تلك الجزيرة واستعان بجميع معارفهِ في فن السباحة بعد ان جرّد نفسهُ من الثياب التي تربكهُ. وكانت مسافة ستة اميال في البحر لا تروعهُ ولهذا لما كان سابحًا على الماء ما افتكر قط بشيء سوى بان يسبح بنشاط ولن يتجه خطًا مستقيمًا الى ما قصدهُ من المحطة

وبعد ان مضت نحو ساعة ونصف نقصت كثيرًا المسافة الفاصلة ما بينهُ والجزيرة ولكن في اقترابهِ من الارض دهمهُ تصوّرٌ هائل من شأنهِ ان يحملهُ على الهرب وهو ان التماسيح كثيرًا ما تألف سواحل الجزيرة ولم يكن يخفى عليهِ ما تنطوي عليهِ تلك الحيوانات من النهامة وشدة الحرص في تلقف لحمان بني آدم

فاضطرب يوسف من هذا الفكر رغمًا عما كان متصفًا بهِ من الخلة المانعة بهِ الى الظن ان كل شيء في هذه الدنيا يجري مجراهُ الطبيعي وخاف ان يلد للتماسيح اللحم الابيض. فلذا لم يتقدم الى الساحل الاّ بحرص كلي وعينهُ محدقة بكلما حواليهِ ولما وصل الى قرب ريف مظلل بالشجر الاخضر هبَّ نسيم فاحت منهُ رائحة المسك الخارقة

فقال: هذا ما كنت احشاهُ فان التمساح غير بعيد مني. فغطس في الماء ولكن لم يغطس غطسًا عميقًا ولذا ما تحاشى صدمة جسم عظيم ذات خراشف مسنة فخدشت جسمه في مرّه فحسب يوسف انهُ ذهب فريستهُ وجعل يسبح بسرعة من ناهز اليأس ثم طلع الى سطح الماء وتنفس قليلًا ثم عاد فغاب في الماء وهكذا قضى برهة كان فيها ضيقة وغمًا شديدًا رغمًا عما كان عليهِ من الجلد العريري. ففي كل دقيقة كان يخال لهُ انهُ يسمع حركة ذلك التمساح وراءهُ فاغرًا فاصعيهِ ليبتلعهُ بلعة واحدة وفيما كان محتفظًا على ذاتهِ من كل جانب وهو يسبح بلطافة واذا مُسك من ذراعهِ ثم من وسطهِ

فتصور حينئذٍ ان قد حاق بهِ التعس والويل وفكر فكرة اخيرة بمولاه واحد يصارع ويسارع كقاطع الرجاء وهو مع ذلك مشعرٌ بان قوّة تجره الى سطح الماء وليس الى القعر كما هي عادة التماسيح عند ما اصطادت صيداً

فلما طفا وفتح عينيهِ نظر ذاتهُ بين عبدين ذات لون الأبنوس ماسكين بهِ وهما يصيحان بصوت غريب

فما تماسك ان قال يا للعجب فاني نجوت من شباك التماسيح ووقعت في شباك السودان · فلعمري هذه احسن من تلك ولكن كيف يا ترى يتجاسر هؤلاء على السباحة في مثل هذه المحلات

فكان يجهل يوسف ان سكان جزائر شاد يسبحون في المياه الحالة فيها التماسيح بلا خوف ولا قلق لان تماسيح تلك البحيرة شهيرة بقلة توحشها وعدم حرصها في اذية الناس

فكان يوسف قد نجا من خطر لكنهُ وقع في غيره فترك للتقادير ان تعمل فيهِ ما تشاء وحيث لم يستطع الخلاف انقاد الى الاسودين اللذين اتيا بهِ الى الساحل ولم يُطهر على ذاتهِ وجلًا

واخذ يردد في افكاره قائلًا · لا شك في ان هؤلاء العبيد نظروا الى المصورة عند ما حامت فوق البحيرة شبه وحش جوّي فقد شهدوا من بعيد لسقطتي فلا يبعد ان يجعلوا انساناً نزل من السماء ويتحفوه باكرام خصوصي فلندع الحوادث تجري مجراها

نَمْ للخطوب اذا احداثها طرقت واصبر فقد فاز اقوام بما صبروا
فكل ضيقٍ سيأتي بعدهُ سعةٌ وكل صبرٍ وشيكاً بعدهُ ظفرُ

وفيما كان يتحدث بهذه الافكار اذا وصل الى ساحةٍ وفيها قوم سود من كل جنس وعمرٍ وهي قبيلة من قبائل البيديوماه ولم يستحِ من حمة ثوبهِ

فانهُ كان على زيّ سكان ذلك القطر

ولكن قبل ان ينتبه الى حالتهِ وموقعهِ رأى العبيد قد اخذوا في تجليه وتعظيمهِ فطمأَن روعه من هذا الامر وان اتت لبالهِ حادثة كاذه عند ما ظهر القمر

ثم قال في نفسهِ: ارى اني مزمع ان اصبح ثانية الهاً واباً للقمر. فلا بأس من هذه الحرفة لانها احسن من غيرها عند ما تكون احارية واما الذي يهمي فهو ان ارتح زماناً حتى اذا اتت المنصورة مرّت فوقي انتهز الفرصة من حالتي هذه لاصعد صعوداً عجيباً واجعل عابديَّ يتأملون بهذا المشهد الغريب

ثم ازدحم القوم حولهُ واحدوا يسجدون لهُ ويضحون ويمسونه وأنس الجميع بهِ ولم يتهاملوا ان صنعوا لهُ وليمة فاخرة مؤلفة من الحليب الحامض وكان ذلك الحليب ممزوجاً بماررٍ مسحوق في العسل. فلما كان من دأب يوسف ان يقبل تكلما يأتيهِ تناول الطعام معهم واكل كثيراً وهكذا أرى عابديه كيف ان الالهة يتلقون الاطعمة في العرض الغير الاعتيادية

ولما امسى المساء اتاه سحراء الجزيرة وضطوا يده باحترام كلي وجاءوا بهِ مخدعاً اشبه كوخاً محتاطاً بالطلاسم السحرية وقبل ان يدخلهُ يوسف شاهد عظاماً مكوّمة حول ذلك المعبد فنظر اليها نظرة قلقة ثم جاوهُ بهِ وتركوهُ فأخذ حينئذٍ يجوب بيداء الافكار في واقعتهِ وفيما صمم عليهِ من النية

ففي جانب عظيم من الليل ما برح يوسف يسمع غناء وترتيلاً واصواتاً شبه اصوات الطبل وقرقعة حديد تحلو في اذان الافريقيين ولما كان الرقص قائماً على قدمٍ وساق حول الكوخ المقدس كان القوم يعزفون باصواتهم الصحمة وجميع هذا تجيلاً لقلم يوسف الفائق

وكان يوسف ناظرًا الى هذه الغوغاء من خلال جدران الكوخ المبنية من الطين والقصب . فلو جرت هذه الحادثة في وقت غير ذلك الوقت ربما لكان فرح فرحًا عظيمًا في تلك الطقوس الغريبة ولكن قد حيل في باله امرٌ اوقعهُ في ملال لانهُ وان نظر الى الاشياء بعين رائقة بل مجردة فمع ذلك قد ساءهُ وجودهُ في تلك البلاد الوحشية وبين اقوام برابرة

وزد على ذلك انه قلَّ السواح الذين تجاسروا فقدموا الى تلك الآفاق ثم عادوا فرجعوا الى الاوطان وعليه لم يثق كثيرًا بعادتهم وتكريمهم لهُ لان عظمات هذا العالم والمجادهُ كانت عدهُ اباطيل ولهُ دواعٍ كثيرة لاحتقارها وعدم الاكتراث بها ثم سأل نفسهُ بنفسهِ قائلًا: عسى ان عادتهم تفضي اخيرًا باكل المعبود

فمع ارتباكهِ بهذه الافكار التي من شأنها ان تلقيه في وهاد التأسف والكدر على عليه التعب ورقد في سبات لذيذ ولطال معهُ هذا الرقاد حتى الصباح لو لم تيقظهُ رطوبة غير منتظرة

ثم امست تلك الرطوبة ماء وازداد ذلك في كوخ يوسف حتى وصل الى اواسطهِ

فقال: ما هذه الحال أعذاب على عذاب هل يا ترى انا غارق في غمر المياه فلعمري ما كنت في انتظار هذه الحيلة الغريبة وعلى كلٍ لا امكث محبوسًا حتى تبلغ المياه الى رقابي

وبعد ان تفوه بتلك المقال ضرب الحائط بكتفهِ فوجد نفسهُ في قلب البحيرة ولم يعد يرى اثرًا للجزيرة بل انها غطست في الماء بالليل وقام مقامها سعة البحيرة

فقال يوسف: بئس البلاد لاصحاب الاملاك لانهم يُعدمون رزقهم في

بهمةٍ وحيرة ثم شدد قواه وضاعف نشاطهُ للسباحة من حديد

فقد نجا يوسف من ايدي البرابرة بحادثةٍ من الحوادث التي كثيرًا ما تجري في بحيرة شاد فان جزائر كثيرة تتهوَّر في هذه البحيرة مع انها تشاهد قبلًا صلبة طير الصخور وكثيرًا ما يأْتي الاقوام المجاورون لها بعوث المساكين الذين يلجأُون الى الفرار

اما يوسف فلم يكن عارفًا بهذا الامر لكنهُ اخذهُ سبيلًا الى تخلصهِ واذ لم قاربًا تائهًا في البحيرة قد اقترب منهُ فرآه شبه جذع شجرة نُخِر حفرًا خشنًا وكان فيهِ مقدافان فطلع اليهِ ورأَى مجرى ماء سريعًا فانتهز الفرصة واخذ في المسير

ثم قال فلسطرِ قبلًا الى اين نذهب ولارجو من كوكب الصباح ان يأْتي بعوني لانهُ من حسن عادته ان يهدي الناس الى طريق الشمال

ورأى ان مجرى الماء يبلغهُ ريف البحيرة الشمالي فسار مسرورًا ولما كانت الساعة الثانية بعد انتصاف الليل صعد الى علوة مغطاة بقصب شائكٍ لكنهُ بصر هناك بشجرةٍ وخيل لهُ انهُ يرقد على اغصانها كمن فراش فتسلقها يوسف واخذ هناك في انتظار الفجر ولو امتنع عليه الرقاد

واذ وافى الصباح سريعًا حسب عادتهِ في تلك بلاد خط الاستواء التي يوسف لحظةً على الشجرة التي التجأَ اليها فارعهُ منظرها رعبًا شديدًا لان الحيات والحرباء تعطي اغصان الشجرة من اعلاها الى اسفلها وكان ورقها اذ ذاك متواريًا تحت لفائفها واذا ما شاهد احدٌ تلك الشجرة قال عنها انها تنبت دبابات ولما بزغت اشعة الشمس اخذت تدب وترجف وتلتف فشعر يوسف برعب خالطهُ النفور ورمى نفسهِ الى الارض بين فحيح الحيات

ثم قال: هذا شيء غريب يصعب تصديقهُ

فكان يخشى عليه ان يوحل في رسالاته الاخيرة ذكر تلك الغرابة الطاهرة في سواحل بحيرة شاد حيث تكثر الدابات والهوام كثرة لا مثيل لها فمعد ما رأى يوسف ما رآه عزم على ان يشدد حرصهُ في المستقبل واخذ يسير الى الجهة الشمالية الشرقية وكان يعتني كثيرًا في تجنب الاكواخ والبيوت والخيام وبالاجمال كل محل قابل لسكنى الناس

وكم من مرة قد رفع يوسف لحاظهُ الى العلاء وهو يرجو مشاهدة المصورة غير انهُ ذهب تفتيشهُ عليها هدرًا ولم يرَ لها اثرًا فمع ذلك لم تنقص ثقتهُ بسيدهِ اما حالتهُ فكانت تقتضي صبرًا جميلًا وشجاعةً عظيمة للتجلد عليها اذ انه كان مصوكًا بالتعب متضررًا من الجوع لكونهِ لم يعتمد سوى بالعروق ولب بعض الشجيرات او باثمار من حسن النخل فهذه كلها ليس من شأْنها ان تقوي المعدة وتقيت المرء. ومع هذا كلهُ فانه تقدم نحو عشرين ميلًا الى الناحية الغربية وكان جسمهُ محدشًا بالاشواك في امكنة كثيرة وذلك لطلوعهِ الى سواحل البحيرة وارجلهُ كانت محصبة بالدماء فاصبح من ثم مسيرهُ عسرًا ومولمًا فاحتمل هذا العذاب صبرًا ولما امسى المساء عزم على ان يقضي ليلتهُ في سواحل البحيرة

فهناك اقتضاهُ الحال ان يقاسي لدغ الهوام التي لا تحصى عددًا وهي من اجناس كثيرة كالذباب والبرغش والبعوض والنمل الذي يبلغ طولهُ نحو نصف ابهام وهي تغطي الارض كالبساط الممدود. فما مضى عليهِ نحو ساعتين الّا تاثر الثوب الخفيف المكسي جسمهُ ولم يبقَ منهُ اثر فان الهوام قرضتهُ كلهُ فكانت ليلة هائلة لم يستطع فيها يوسف رقادًا ولا راحةً البتة

وفي غضون ذلك كانت الخنازير والجواميس الوحشية وغيرها من الحيوانات تصيح باصوات الغضب في الاجام او تحت مياه البحيرة وكانت تدوي اصواتها

في ظلام الليل فلم يتحرَّك يوسف من مكانه بل كاد من جرا ذلك عذاباً اليماً كاد ان يذهب صبره ويُفضي به الى اليأس

ثم وافى النهار بعد انتظار طويل فنهض حينئذٍ يوسف بسرعة ولما نظر حواليه عرف نفسهُ اذ رأى ان صدمة سمكة كبيرة وحشية قد صادفتهُ ليلاً ومن مجرَّد النظر اليها تقشعر النفس وتحمل على التكره. فاحس يوسف بتقلب امعاءه ولكن قد تقوى من كرهه وعدا راكضاً الى البحيرة وارتمى في مياهها فرطب الماء قليلاً ما كان يكابده من الحكاك ثم عاد الى البر ومضغ بعض اوراق الشجر وسار في طريقه بجلد لم يدركهُ واصبح كأنهُ لا يدري ما يفعلهُ بل شعر بقوَّة تعلوه قطع الرجاء

ومع ذلك احد يصوّره للجوع وصاحت عصافير بطنه لان بطنهُ لا يمكنهُ الاصطبار مثلهُ فاضطر الى ان يربط حسمهُ بحزام ساتي ولما عطشهُ فكان يرويه في كل دقيقة واذ اتى لباله ذكر ما احتملهُ في البادية من قلة الماء حسب نفسهُ سعيداً لخلوه من هذه الحاجة الفائقة الجميع الاماً

ثم قال في ذاته اين يا ترى هي المنصورة فان الريح تهب من الشمال وينبغي علينا ان نرجع فوق البحيرة ولا بدَّ ان يكون سيدي صموئيل ركب القبة بموازنة جديدة ولكن كفاهُ النهار البارح شغلاً فلا يعد ابداً اليوم الذي فيه المنصورة. . . ولكن ما لي ولها الان علي ان اتصرَّف كأني لست بزمع ان لولاها ابداً واذا وصلت الى مدينة كبيرة من مداين البحيرة فاني أكون بمقام السواح الذين ذكرهم لي سيدي فلما ادا لا امحو مثلهم فان كثيرين رجعوا الى الاوطان وشاهدوا الخلان فالشجاعة الشجاعة اذاً ولا اليأس ابداً

فبينا هو يتفوَّه بهذا المقال سائراً في طريقه وصل الى غاب وشاهد فيه قوماً متوحشين متألبين بعضهم على بعض اما هم فلم يدروا به لكونهم عاملين على

سقي سلهم بعصير نبات مسمّ وهي مشعلة عطية يهمّ بهـا قبايل تلك البلاد
بعيد حافل

فاحتبأ يوسف بين الاحام وهو لا يتنفس لئــلا يُحسّ به وفيما هو رافع
بصرهُ الى العلاء لمح المصورة بداتها سارية فوق راسه بعلو نحو مائة قدم ومتجهة
نحو البحيرة فودّ لو استطاع ان يُسمع صوته او يُعلم رفيقيه بوجوده في تلك الحال
ولكن انَّى لهُ من نيل هذا المرام

وفي تلك الساعة ادرت عينهُ دمعة سخية ولكن لا دمعة اليأس
والقنوط بل دمعــة السرور ومعرفة الجميل الذي بدا من سيده نحوه فانه
كان يستقرئ عنهُ ولا يريد ان يذهب بدونهِ فاقتضى حينئذٍ ان ينتظر رحيل
السودان حتى ينطلق راكضاً الى ارياف البحيرة

واما المصورة فتوارت عن النصر في طي الافاق فعزم يوسف على انتظارها
هناك لانهُ قال في نفسهِ لا بدّ من رجوعها فوجدت حقيقةً واذ اتجهت نحو
الشرق فركض يوسف وراءها واومى بيديه وصرخ وصاح باعلى صوته ولكن
عبثاً لان ريحًا شديدة دفعت القبة الهوائية بسرعة عظيمة نزعت منهُ كل امل
ورجاء

في اول وهلة خارت فيه قوى الشهامة والرجاء وظن انهُ قد تاه في بيداء
الهلاك وحسب ان سيده رحل رحلةً اخيرة وما عاد يرجع اليــه فذهب عقلهُ
واضاع كل فكرةٍ وبقي برهة لا حراك لهُ حسًا وعقلًا

ثم شرع في المسير كانسان فاقد العقل ورجلاهُ مخضبتان بالدماء وجسمهُ
مخدَّش ولبث ماشياً كل النهار ومدة من الليل وتارةً كان يسحب على اقدامهِ
وطوراً كان يتوكأ على ايديه وكان يرى الساعة التي فيها تخور قواه ويأتيهِ الاجل
لا محالة

فبينما هو يتقدم الى الامام اذا وصل الى قرب صخرة وكان قد حسبه الليل ثم سقط بلا معرفة في طين لزج وشعر كأنه يتساقط رويداً رويداً في تلك ارض الحماء وما مضت بعض الدقائق حتى رأى نصف جسمه منغمساً في الطين

فقال حينئذ · هوذا الموت هوذا قد اقبل ولكن يا لها من ميتة شنيعة فاضطرب واختبط واراد الخلاص فلم يفز به بل ما زال يتعمق في الطين وكان في حركته كانهُ يحفر الهوَّة لنفسهِ ولم يرَ بالقرب منهُ قصبة ام قطعة خشبية ليستند عليها فايقن ان قد دنت ساعتهُ الاخيرة واطبق جفونه ثم صاح قائلاً · سيدي سيدي ما بالك لا تأتي اليَّ تعالَ تعالَ فتاه ذلك الصراخ المنفرد صراخ اليأس والقنوط في بوادي الظلام المدلهم

## الفصل الرابع والثلاثون

في ما كان من العربان المجتمعين وملاحقتهم لاحد المهرولين وقتل الصياد عربياً برصاصة وانتشال يوسف من الارض بصناعة وحرفة

فمند ما فوّض العلامة امر المراقبة الى ذلك الصياد ما املك هذا عن التفرس في الافق بحرص وانتباه لا مثيل لهما

وبعد برهة التفت الى العلامة وقال له: ارى هنالك طائفة من الناس والبهائم مجتمعين ولكن لا يتميز شيء منها بل اني اشاهدهم في حركة عظيمة لان امامهم غباراً كثيفاً من الرمال يرتفع من الارض

فقال صموئيل يمكن ان يكون هذا ريحاً مخالفة ام فوارة ارمعت ان تدفعنا الى الشمال

ونهض ذلك ليفحص الافق جديداً

ثم قال لرفيقه اظن انها طائفة من الغزلان او من بقر البرية

قال العلامة ان ذا من المحتمل ولكن اعلم يا ذلك ان هذه الفرقة المجتمعة تبعد عنا نحو تسعة او عشرة اميال فانا اذا تطلعت بالنظارة الصغيرة لا امير فيها شيئاً

فقال ذلك. على كلٍّ ها اني مراقبها على جميع الاحوال لاني ارى فيها شيئاً غير اعتيادي يُشغل بالي وعلى ما اظن ان هذا الازدحام انما ازدحام خيالة يجارون في ميدان السباق هوداً قد اصاب تخميني فانهم بالحقيقة خيالة.

تطلع يا ورغوس تطلع

فتأمل العلامة بانتباه الى تلك الفرقة المزاحم بعضها بعضاً

ثم قال على ما ارى قد اصبت في ظنك فانها فرقة من عربان ام تيبوسية والباين انهم يركضون الى الجهة التي نحن سائرون اليها غير ان عدوهم لا

يوازي سرعة قبتنا ولا يمضي نصف ساعة الّا ونقف على الحقيقة ونعلم ما يجب علينا من العمل

ثم اخذ الصياد منظرته وجعل يحدق نصره فتراءَت لهُ الخيالة المزدحمون باكثر وضوح وشاهد ايضاً نعضاً منهم يسرعون على جانب

ثم قال لفرغوس: في الحقيقة ان هذا هو سباق خيل فكأنهم يتعقبون شيئاً واود كثيراً ان اشعر بما هو موضوع مطاردتهم

فقال العلامة: صبراً ياديك فعن قريب نصل اليهم بل نتجاوزهم اذا داوموا الجري في هذه الطريق نفسها واعلم ان قبتنا تسير الان بسرعة عشرين ميلاً في الساعة ولا يوجد خيل يمكنها ان تجري بهذه السرعة

ورجع ديك الى المراقبة من جديد ولم تمض بعض الدقائق الّا قال : انهم عرباً يركضون ركضاً شديداً وقد ميزتهم حق التمييز وهم يبلغون الخمسين وهودا برانسهم تعوم على جناح الريح فانهـا رياضة للخيالة ورئيسهم يسبقهم عن بعد مائة قدم وهم يجرون وراءهُ متتبعين اثارهُ

قال العلامة من ما كانوا فاني لا اخشى اذيتهم واذا اقتضت الحال ارتفعنا الى المعالي

قال ديك: اصبر قليلاً يا فرغوس اصبر

ثم استتلى ديك كلامهُ بعد فحص جديد وقال انهُ لامر غريب حيَّر فكري لاني ارى شيئاً ما تمكنت من معرفتهِ ولا تمييزه جيداً والناس من كد الخيالة وعدم مساواة جريهم انهم مطاردون احداً لا لاحقون برئيسهم كما ظننت

قال العلامة: وهل تؤكد ذلك يا ديك

قال ديك: لا شك في هذا لاني اشاهد الخيالة كانها راكضة وراء صيدٍ

ولكنها ليست مصيدة حيوان بل انسان والذي يتقدمهم هو منهزم منهم وليس هو رئيسهم وقد خالجهُ الاضطراب

قال فرعوسن: أ لعلهُ مهزم

قال ديك: اي نعم سيدي

قال العلامة لانحولنَّ اذًا نظرنا عنهم ولننظرَ ما يحدث

فسارت القنة مسافة ثلاثة او اربعة اميـــال فوق هؤلاء الخيالة الخارين بسرعة شديدة

وبعد ان قطعوا هذه المسافة صاح ديك بصوت مرتجف وقال سيدي صموئيل سيدي فرعوس

قال العلامة: ما بالك اخكِ

قال ديك: هل هو حلم ام خيال هل هذا ممكن

قال العلامة. وما معنى قولك

قال ديك: تنصر عليَّ

قال هذا ومسح زجاجة المطرة وجعل يحدق نظره من حديد

فقال العلامة: قل اذًا ما هذا

قال ديك: هو هو نفسهِ يا صموئيل

فصاح العلامة قائلًا: هو هو بذاتهِ (فقد اعنى بلفظة هو هو عن مراده ولم يحتاج الامر الى ايضاح)

ثم قال ديك: انهُ راكب فرسًا ومنهزمًا من امام اعدائهِ . . . وهو بعيد عنهم نحو مائة قدم

قال العلامة وقد علا وجههُ الاصفرار عافاك الله يا يوسف

قال ديك: لا يمكنهُ ان يرانا في انهزامهِ وجريه

قال العلامة · لا بد يأديك من ان يرانا

قال هذا وفحص حرارة القصبة

قال ديك · وكيف ذلك

قال العلامة · لا تمضي خمس دقائق الّا ونقترب من الارض حتى لا نعلوها الّا ٥٠ قدماً وبعد خمسة عشر دقيقة نصبح فوق رأسهِ

قال ديك : ألا يلزم ان تنبههُ بطلقة بارودة

قال العلامة كلا فانهُ لا يستطيع الرجوع الى الوراء والّا ذهب فريسة اعدائهِ

قال وما العمل

قال الصبر يا صاح الصبر

قال ديك : الصبر وهؤلاء العربان ما العمل فيهم

قال العلامة · اننا نلحقهم ونسبقهم ولسنا بعيدين اكثر من ميلين فقط فليبقَ حصان يوسف جارياً مجراهُ ولا نخشى العربان

قال ديك : الهي الهي

فقال العلامة · وما الذي جرى

قال ديك صاح بصوت مأيوس عند ما شاهد يوسف مصروعاً على الحصيص لان حصانهُ قد اعياه التعب فسقط على الارض خائر القوى

فقال العلامة انهُ نصرنا وفي نهوضهِ اشار الينا بحركة يدٍ

قال ديك · ولكن قد اوشك العربان ان يلحقوه فما الذي ينتظره · لله الحمد فانه شهم باسل عافاه الله عافاه

فكان يوسف بعد سقوطهِ نهض حالًا اذ وثب عليهِ خيال ثم قفز كالفهد وحاد يسيراً عن طريقه ثم انقض على فرسهِ كالباشق ومسكهُ من عنقهِ

وحمقهُ باصابعهِ الحديدية وبديهِ العصيبة وحدله على الارض طريحاً واخذ في اهرامهِ بسرعة الطير

فصاحت العربان بصوت عظيم دوى في الآفاق ولكنهم لم يشاهدوا قط المنصورة التي كانت تبعد عنهم نحو خمسمائة قدم وهي تعلو عن الارض ثلاثين قدماً فقط الا ان واحداً منهم قارب يوسف وحاول ان يضربهُ برمحهِ ولما كان ذلك الصياد شاخصاً اياهُ اوقفهُ برصاصةٍ واحدة وصرعهُ على الارض

فلم يلتفت يوسف اصلاً لصوت الرصاص بل داوم المسير واما الخيالة فوقف بعضهم ومنهم من خرَّ على وجههِ في الارض عند مشاهدة المنصورة ومنهم من داوم معاقبة يوسف

فقال ديك ولكن ما الذي يعملهُ يوسف فانه لا يقف

قال العلامة: بل انه يتصرف تصرفاً اوفق من الوقوف فاني فهمت غايتهُ وهي انه لا ينفك من المسير الى جهة مسير القبة الهوائية ويثق بفطنتنا وتدبيرنا وسنسلهُ من ايدي هؤلاء العربان وها نحن بعيدون منهُ نحو مائتي قدم فقط لله درهُ من شهم فريد

قال ديك ما الذي يجب فعلهُ

قال العلامة: دع بارودتك جانباً

فترك الصياد بارودته وقال. هوذا فعلت

قال العلامة. أتستطيع ان تحمل بين ذراعيك ثقلاً يوازن مائة وخمسين ليرة انكليزية

قال: واكثر من ذلك

قال العلامة. لا لزوم لاكثر بل هذا كافٍ

فرفع العلامة اكياس الرمل وناولها لديك ليحملها بين ذراعيهِ

ثم قال الث واقفاً في مؤخر المركبة وكن متأهباً لان ترمي هذا الرمل كلهُ دفعة واحدة ولكن بحياتك لاتفعل ذلك قبل امري

قال ديك ثق بي وكن مطمأن البال

قال العلامة . والّا خسرنا يوسف وذهب فريسة الهلاك

قال الصياد : لاتخف يا فرعوسن والق عليَّ هذا الهم

فوصلت المنصورة فوق رؤوس الحبالة الذين ما انفكوا من تتبع اثر يوسف

واما العلامة فوقف في مقدم المركبة وهو ماسك السلم منشوراً ومستعدٌ لان يلقيهُ في الدقيقة الموافقة وكان يوسف بعيداً من اعدائهِ نحو خمسين قدماً اما المنصورة فتقدمتهم

ثم قال فرعوسن لديك : انتبه يا صاح

قال ديك . ها انا حاضر وعلى اهبة

ثم صاح العلامة بصوتهِ الرنان : عليك عليك يا يوسف

قال هذا ورمى السلم فوصلت الدرجة الاخيرة الى الارض واثارت غبرة من الرمال

فبعد ما نادى العلامة يوسف لم يقف هذا في محله بل التفت قليلاً فوصل السلم بالقرب منهُ وفيما كان يتماسك بهِ صاح العلامة الى ديك قائلاً . الق الرمل يا ديك

فقال ديك : قد فعلت

فلما خفت المنصورة من ثقل يفوق ثقل يوسف ارتفعت في العلاء حالًا وبلغت علو مائة وخمسين قدماً فوق الارض

وبعد مـــا ارتفعت المنصورة وتذبذبت كثيراً في صعودها كان يوسف

متمسكاً شديد التمسك بحبل السلم ثم اشار الى العربان اشارة عربية وداعاً لهم وتسلق السلم بخفة الهلوان ووصل الى رفيقيهِ فاقتسلاه بين الاحضان فصعت العربان وتننذ باصوات الدهشة والغضب لان المتهم طـار من بين ايديهم وابتعدت عنهم المصورة بعداً شاسعاً

هتف يوسف . سيدي صاحبي ديك

قال هذا ووقع مغشياً عليهِ من شدة الاضطراب والاعياء فيما كان ذلك كأنهُ في بحر الهذيان يصيح قائلاً :

قد خلص قد فاز بالنجاة

اما العلامة فرجع الى رواقهِ القديم وقال . اواه ما هذه الحالة حالة يوسف فان يوسف كان متجرداً عن اثوابهِ وليس على جسمهِ الّا رسمٌ من الكسوة وأما ذراعاهُ فكانتـا مخضبتين بالدم وجسمهُ مثخناً بالجراح فكل هذا دلَّ على ما تكبدهُ من العذاب والشقاء فنهض العلامة حالاً وضمد جراحهُ وانامهُ داخل الخيمة

وبعد برهة استفاق من غشيانهِ وطلب كأساً من العرق فما اراد العلامة ان يرفض طلبهُ لان يوسف لم يكن يُطلب كسائر الناس وبعد ان شرب اخذ بايدي رفيقيهِ وقال لهما انهُ مستعدٌ لان يقص قصتهُ

فلم يسمح لهُ رفيقاهُ بالتكلم في تلك الساعة وعليهِ عاد فرقد رقاداً ثقيلاً كان في غاية الاحتياج اليهِ

فسارت حينئذٍ المصورة خطاً منحرفاً الى جهة الغرب وعند ما اشتدت الريح وصلت الى حدّ القفر الشائك فوق النخلات التي قد احنتها او اقتلعتهـا الزوبعة وبعد ان سارت مائتي ميل منذ انتشال يوسف قد جازت مسـاء الدرجة العاشرة من الطول

## الفصل الخامس والثلاثون

في طريق العرب وسقطة يوسف وعاده وتتمة قصته ووصول السواح الى محلة وقلق الصياد وانحاء المصورة نحو الشمال

ثم سكنت الريح من مهبها الشديد وقرّت المصورة على رأس حميرة عطية

فسهر كل من العلامة وكادي في حراسة القبة . اما يوسف فانتهز الفرصة وعرق في سبات مريح مدة اربعة وعشرين ساعة بغير انقطاع

فقال العلامة هذا الدواء النافع ليوسف اعني به الرقاد فان الطبيعة تأتيه بالشفاء من تلقاء نفسها

ولما كان النهار عادت الريح شديدة متقلبة فكانت تهب تارةً نحو الشرق وتارة نحو الجنوب غير انها هبت اخيرًا آخذةً المصورة الى الجهة الغربية

فتطلع فرغوس الى الرسوم الجغرافية ورأى انه قائمٌ في مملكة دامرعو واراضي تلك البلاد معوجة السطح لكنها ذات خصبٍ وريعان وبيوتها مبنية بقصب تتخلله اغصان شجرة يقال لها اسكانية وترى فيها المطحنات مرتفعة فوق اخشاب متصلة وذلك حشية من هجوم الجرذان عليها

وما مضت برهة الّا وصل السواح الى مدينة زندر المشهورة بمحل العقاب المتسع القائم فيها فترى في وسطهِ شجرة الموت وكل من مرّ بينها يمسكهُ الجلاَّد الحالس دوامًا عندها ويشنقهُ على تلك الشجرة في الساعة والحال

ثم تطلع الصياد الى البوصلة وقال لفرغوس هوذا رجعنا الى طريقنا الشمالية

قال العلامة . لا بأس منها اذا قادتنا الى تمبكتو فان رحلتنا لا تماثلها رحلة توفيقًا ونجاحًا

فقال يوسف وقد مدَّ رأسهُ من خلال ستار الخيمة وامارات السرور على محياه · ولا تاثلها رحلة تتويق صحة اصحابها

قال ديك : هودا صاحبنا الشهم الفريد ومخلصنا الوحيد · كيف حالك يا يوسف

قال يوسف : بالف خير كحاري عادتي وطبيعتي فاني لم ارَ ابداً هسي منشرح الصدر اكثر مني في هذه الساعة وكيف لا ينشط من قد تحمم مثلي في بحيرة شاد ثم مشى برهةً لانشراح صدره فما قولك يا سيدي

فقال له العلامة · لله درك من شهم فريد ولكن كم سببت لنا من القلق والغم والرعب والهم

قال يوسف : اتظنّ اني كنت على طمأنينة قلب من قبلكم · كلاَّ بل عكسكما ان تتحيرا عا سببتما لي من الفزع الشديد

فقال العلامة · اذا قلبت المسألة على هذا النسق فلا نتفق على رأي

قال الصياد · ارى انهُ لم يتغير اصلاً من بعد سقطتهِ

فقال العلامة · ان حبك يا يوسف كان حبَّا خالصاً لنا وهو الذي نجانا من الهلاك لانا كنا ساقطين في البحيرة بسرعة كلية وعلى الخط المستقيم فلو عطست المصورة في الماء من تراه كان نشلها ونشلنا

قال يوسف : ولكن اذا كان انقلابي الذي تارلت الى ان تدعوهُ حبَّا قد . . خلصكم أَلم يخلصني انا ايضاً اذ انَّنا الثلاثة لا نزال على احسن حال واجود صحة وبالنتيجة فليس لاحد ان يعزي التقصير لنفسه ام لخلافهِ

قال الصياد : سبحان من كوَّن طبعك يايوسف فانك لا تسلم معنا بشيء

فقال يوسف : احسن واسطة للاتفاق انما هي ان ننسى هذه المادة ولا نتكلم عنها لقد جرى ما جرى ان كان قبيحًا ام مليحًا فلا عودة اليهِ

فقال العلامة ضاحكاً . يا لك من عنيد فعلى القليل لا تتماسك ان تحكي لنا قصتك

قال يوسف : اذا كان لابدَّ من ذلك فعلى الرأس والعين ولكن ارغب قبل ان احبر قصتي في ان اشوي هذا البط المدهن فاني ارى ان الصياد لم يدع رمايه يذهب باطلًا

فقال لهُ الصياد : ان الامر كما قلت

قال يوسف : عن قريب نرى كيف يسلك الصيد الافريقي مع معدةٍ اوربية

وفي الحال شوى يوسف البط على لهيب القصبة واخذ كلٌّ حصةً اما يوسف فكانت حصتهُ وافرة لانه لم يذق طعاماً منذ بضع ايام وبعد ان شرب الشاي والعرق اخذ يقص ما جرى لهُ من الحوادث والوقائع غير انهُ كان يظهر في كلامهِ نوع من الهيجان والاضطراب لكن لم يفتك ملاحظاً الحوادث بتلسعه الاعتيادي ولما كان يرى العلامة ان يوسف قد اهتم في خلاص سيده اكثر مما في نجاة نفسهِ كان يمسكهُ بيده علامة المعروف والشكران وعند ما جرى الحديث الى التكلم عن غرق جزيرة السيديوماه فسَّر لهُ فرغوسن كيف ان هذه الحادثة كثيرة الوقوع في بحيرة شاد

ثم وصل يوسف اخيراً بسياق حديثهِ الى الساعة التي فيها غطس في البطحة وصرخ صراخ اليأس الاخير

فقال : سيدي لقد ظننت اني دخلت لجة الهلاك ولما اتجهت افكاري نحوك اخذت اصارع واخبط خبطاً شديداً وقد عزمت عزماً ثابتاً بان لا اترك نفسي عرضة للابتلاع بدون مجاهدة ومعاندة . واذا ابصرت شيئاً على بعد قدمين وما هذا الشيء الّا طرف حبل مقطوع حديثاً فبذلت جهدي وكدي حتى

وصلت الى ذلك الجبل فمسكتهُ ورأيتهُ لا يتحرّ معي فانسحبت عليهِ واذا انا على ارض صلبة وشاهدت مرساة في طرف الجبل . فبالصواب ادعو تلك المرساة ( عن ادلك يا سيدي ) مرساة الخلاص فاني عرفتها من مراسي المنصورة ولهذا تبعت اتجاه الحبل الذي دلني الى اتجاه المنصورة وبعد ان كابدت شديد العذاب بحوت من السخة فتشددت قواي وتضاعفت شجاعتي فسرت مدة من الليل وانا مبتعد عن البحيرة ثم وصلت اخيرًا الى طرف غاب عظيم فشاهدت هناك حوشًا ترعى فيهِ خيل وهي لا تتفكر بشي ففي الحياة اوقات يحس بها كل انسان زكوب جياد الخيل ويجري كالخيالة فما احدت قط رهة للتفكر بل وثبت على جواد وشرعت اجري سريعًا الى الجهة الشمالية . فليس لي ان ادكر البلاد التي لم اشاهدها ولا القرى التي تحت المرور بها بل اقول اني حرت الحقول المزروعة وقطعت الاحام والسياحات وسقت حصاني وصرتهُ واوعت جهدي بالاستعجال ووصلت الى حدود الاراضي المفلوحة واتصدت البادية امامي فقات . ولا احلى منها لاني ارى ما امامي واراه من بعيد . وكنت اومل دائمًا ان المنصورة تنتظرني بحساب املي ولم ارَ شيئًا حتى وصلت اخيرًا في رهة ثلاث ساعات الى محطة عرب ووقعت وقعة الطير في احبولة الصياد واناكنت المصيد

اعلم يا سيدي ذلك ان الصياد لا يعرف قيمة الصيد حتى اصطيد هو بالذات ومع ذلك اذا استطاع فليحترس من مثل ذلك الصيد . هذا وكان العربان تجدّ في اثري حتى اعيي حصاني واقترب مني احد العربان فاقتصت على فرسهِ وصارعتهُ واخفتهُ غيراني لم افعل ذلك بعضًا لهُ وعليهِ اومل انهُ لا يريد لي سوءًا من قبل ذلك وحينئذٍ شاهدتكما وانتما تعرفان ما جرى بعد هذا فقد جرت المنصورة تابعة اثري ونشلتني كالطائر من الارض . ألم يحق لي ان

اثق بكما وبمعروفكما ولباقتكما. امّا الان فاسألك يا سيدي هل ما جرى ليس شيئاً طبيعياً بسيطاً جدًا وكثير الوقوع وها انني مستعدٌ لان اعيد العمل اذا امكنني ان انفعكما بامر من الامور ولكن كما قلت لك سابقاً لا تستحق المسألة ان تتكلم عنها

قال العلامة : عافاك الله يا يوسف فانك ذات شمائل وطبائع حسنى ما لها من مثيل ولم نخطئ. نحن اصلاً باتكالنا على ذكاءك وفطنتك

قال يوسف : على الانسان ان يتبع جري الحوادث فينجوا من المهالك وعندي ان الطريق الاقرب لراحة البال هو اقتبال الامور كما تُقبِل الينا

وفيما كان يحكي يوسف قصتهُ قطعت المنصورة مسافة بعيدة في تلك البلاد ثم اشار ديك الى وجود اكواخ في الجهة الافقية تظهر كانها مدينة فنظر العلامة الى رسومها وعرف انها قرية تجلة في مملكة دامرغو ثم قال سحد هناك الطريق التي سلكها برث وفيها انفصل عن رفيقيه ريشردسون واوررويك . فكان ريشردسون متأهبًا للمسير في طريق زندر واوورويك مستعدًا للانطلاق الى ماراذي وكلا لا يحيا كما لم يرجع الى اوربا من هولاء السواح الثلاثة سوى برث وحدهُ

فنظر الصياد الى رسم اتجاه المنصورة وقال . فاذًا نحن متجهون نحو الشمال على الخط المستقيم

قال العلامة : نعم نحن متجهون الى الشمال قوامًا

قال الصياد : أليس من شان ذلك ان يسبب لك شيئاً من القلق

قال العلامة . ولماذا

قال الصياد لان هذه الطريق توصلك الى طرابلس فتضطر من جرى ذلك ان تطوف الصحراء الفسيحة

قال العلامة · اومل انا لا ندهب الى بعد كهذا ولا بهده الطريق المشومة

قال الصياد : وهل من بيتك ان تحل بمكان

قال العلامة : قل يا ديك هل ترغب في زيارة تموكتو

قال الصياد : تموكتو

قال يوسف : اي نعم لا يسوغ لاحد ان يسافر في امصار افريقية وتفوته زيارة تموكتو

قال العلامة : فتكون الخامس او السادس بين رحال اوربا الذين زاروا هده المدينة العجيبة في عوامصها

قال الصياد : فلنذهب اذاً الى تموكتو

قال العلامة · ولحالة هده دعنا نصل الى بين الدرجة السابعة عشرة والثامنة عشرة من العرض وهناك نتوقع ريحًا موافقة تقذف بنا نحو الغرب

اجاب الصياد · نعم الرأي انما هل بقي علينا مسافة طويلة في جهات الشمال

قال العلامة : علينا مسافة مائة وخمسين ميلًا على الاقل

عندها اجاب ديك : ولحالة هده اودّ ان انام قليلًا

قال له يوسف · نم يا سيدي وانت يا معلمي اقتفِ اثر ديك فانك محتاج للراحة لاني اسهرتك سهرًا زائدًا

واضطجع الصياد في المظلة لما وعوس فقلما كان يوثر فيه التعب ولذا لبث راصدًا

وفي برهة ثلاث ساعات كانت المنصورة تجوب بسرعةٍ لا مزيد عليها ارضًا مخصبة تعلوها سلاسل جبال شامخة قحلة وتتخللها بعض اوطاد علوها اربعة الاف قدم وتتابعت الاعلام والطرافة والوعل بخفة وسرعة عجيبة في وسط

عابات من السنط وبات المستحية والهليلج وشجر البحيل ثم تلي الفلوات العامرة ارض كساها ديباج النبات مطرزًا بالانوار والالوان وهو بلاد الكلواص وهؤلاء يلقون على وجوههم براقع من قطن نطير التوارج جيرانهم الدين من يجاورهم لا يأمن على نفسه من الهلكة لشدة شراسة اخلاقهم وغلو توحشهم . في الساعة العاشرة مساء بعد ما قطعت المنصورة تلك المسافة الطويلة وقدرها مائتان وخمسون ميلًا وقفت فوق مدينة كبيرة فكان يرى منها على ضوء القمر قسمٌ بين عامر وعامر وبعض رؤوس مآذن مرتفعة هنا وهناك تضربها اشعة النور فتظهر بيضاء فالعلامة قد اطلع من حساب علو الكواكب انهُ قائم تحت خط عرض اغاد

وكانت هذه المدينة قديمًا مركزًا لتجارة وسيعة حدًا الّا انها قد بدأت تتقهقر وتخرب قبل ان زارها المعلم برث

اما المنصورة فكانت غير منظورة عن بعد فاستوت على الارض على مسافة ميلين من اغاد في حقل وسيع مزروع درة بيضاء وقضوا الليل بسكون وراحة وفي الساعة الثالثة بينما كانت ريح خفيفة تدفع القبة نحو الغرب بحبوب ابلج الصباح

فاسرع فرعوسن في اغتنام هذا الطالع السعيد فارتفع سريعًا وولّى هاربًا

---

# الفصل السادس والثلاثون

في سرعة سير المصورة وفي الاعمال الصادرة عن حكمة وفي الاثقال وفي الامطار المتراكمة وفي غاو والنهر الاسود والسواح كلابرتي وحوفروا وعراي وموسو برك وليك ورابي كالية وكلابرتون وحون وريشار لندر

فقضي اليوم السابع عشر من ايار بهدوٍ وسكون وبدون عارض مكدر وعادت تظهر المفازة وكانت ريح معتدلة تحمل المصورة ما بين الجنوب والغرب بدون ان تميل يمنةً او يسرةً بل كان ظلها يرسم على الرمل خطاً مستقيماً لم يشوّهه ادنى انحراف او اعوجاج

وكان العلامة قبل سفره قد جدد مؤونتها ماء اذ كان يخشى انهُ يمتنع عليهما النزول الى الارض في تلك البقاع المستهدفة لغارات التوارج الكثيرة وكان هناك السهل المرتفع الف وثمانماية قدم عن شاطىء البحر يتحفض نحو الجنوب واذ قطعوا الطريق المؤدية من اغاد الى مرزوق الممهدة باقدام الجمال بلغوا مساء الى الدرجة السادسة عشرة من العرض والرابعة ونصف من الطول بعد ان يكونون قد قطعوا مسافة مائة وثمانين ميلاً من ارض مستوية مملة

في ذلك النهار اتم يوسف اعداد الطعام اخر ما كان عنده من الصيد وأتى للعشاء بشيء من لحم دجاج ارضي مشوي مما يهيج شاهية الاكل لجودته ولذته. اما الريح فكانت تصلح للسفر فعمد العلامة على ان يداوم السير في ليل كان البدر فيه تيماً ساطعاً. فارتفعت المصورة الى علو خمسمائة قدم وسارت ليلاً قاطعةً مسافة نحو ستين ميلاً بهدوٍ وسكينة لا يقلق فيها طفل خفيف النوم

اما في يوم الاحد صباحاً فقد انقلبت الريح فكانت تحمل المصورة الى

ما بين الشمال والغرب وكنت ترى بعض الغربان تطير في الهواء وسربة من الشوح تطير بعيدة عنها بعداً عظيماً

فلما نظر يوسف الى هذه الطيور الكاسرة خطر لهُ على بال ان يهيئ معلمهُ على ما رآه من الراي المصيب في اتخاد مركبتين هوائيتين الواحدة ضمن الاخرى

فقال . كيف ترى كان حالنا لوكنا في ملف واحد . لعمري ان هذه المركبة الثانية هي بمنزلة قارب في البحر تونقي الركب من الغرق عند انكسار السفينــة

اجابهُ معلمهُ : اصبت يا صاح غير انني لا اركن الى قاربي كل الاركان لانهُ لا يساوي المركب

قال ديك . وما معنى قولك هذا

قال : معناي ان المنصورة الجديدة لا تسوى القديمة اما لان قماشهــا قد بُري واما لان صمغها قد داب على حرارة الانبوبة فانني تحققت تاماً في العــار ليس كثير الى الان انما معتبر وقد اخذت القبــة بالميل الى الهبوط وقد اضطررت لتثبيتها الى ان ازيد الادروجن تمدداً

قال ديك لا حول ولا قوة الّا بالله فانني لا ارى علاجاً لهذا الخلل

قال العلامة : بالحقيقة لا علاج لهذا الداء . ياصاحي ديك ومن ثم يجب بنا ان نسرع في المسير ونتحاشى من وقفات الليل

قال يوسف : أنحن بعيدون من الساحل حتى الان

قال العلامة : اي ساحلٍ يا ولدي وهل نعلم الى اين تحملنــا التقادير فكل ما يمكنني ان اقول لك هو ان تمبوكتو تبعد عنا مســافة اربعمائة ميل نحو الغرب

قال . وكم من الزمان يلزمنا للوصول اليها

قال . ان ساعدتنا الريح وصلنا الى تلك المدينة يوم الثلاثاء مساء

فعندها اشار يوسف الى سرعة بهائم ولباس مسرعة في الصيافي وقال : اذاً نصل اليها قبل هذه السرب

ثم انحنى فرعوسن وديك ونظرا خليطاً كبيرًا من كل نوع فكان هناك اكثر من مائة وخمسين جملًا يؤخر الواحد ثمانة وخمسة وعشرين ونصكا من تموكتو الى تافيلة حاملًا قنطارًا على ظهره وكلٌّ من الجمال تحت دليه حراب يلتي فيه بعرهُ لكي يشعلوهُ في البرية اذ ليس للجمالة وقود خلافه في الفلوات

اما جمال التوارج فهي من النافة الاولى وتصبر على الظماء من ثلاثة ايام الى سبعة وتسير يومين بدون اكل وهي اسرع من الخيل عدوًا وتطيع بحذاقة صوت الحيز الذي هو قائد القافلة ويُعرف في البلاد باسم مهاري . فبينما كان العلامة فرعوس يقص هذه القصص كان رفيقاهُ يحدقان بنظرهما الى ذاك الجمهور الغفير من رجال ونساء واولاد يسيرون بعناء على كثائب رمل رخو تعرق فيه اقدامهم ولا يتخللهُ الّا قليل من العوسج والاحشاب الجافة والعليق النابت في بعض محاله وكانت الريح تذري الرمال وتمحو اثار خطواتهم حالًا بعد تخططها

فسأل يوسف : كيف تتوصل العربان الى معرفة الطرقات ويتمكنون من وجود الاثار المتفرقة في تلك الفلوات الفسيحة

اجاب فرغوسن : ان العربان قد ربيت الطبيعة عقولهم بذكاء غريزي يهديهم في سبيلهم . فالجمال التي يتوقف عن المسير فيها الاوربأوي تحيرًا وارتباكًا تطوفها العربان بهدًى وطمانينة فيتحدون لهم علائم في الطريق

وتكسبهم ارشاداً في المسير وتكون هذه العلائم لشياء طبيعة كحجر او صمة عشب او احتلاف لون الرمل وهلمَّ جرًّا

وفي الليل يجعلون الكوكب القطبي دليلهم في الطرقات . ويقطعون مسافة اقل من ميلين في الساعة ويستريحون في الهاجرة . فانظر الان ما يلزمهم من الزمن لقطع الصحراء وهي مفازة طولها اكثر من تسعمائة ميل . اما المنصورة فقد كانت توارت عن ابصار العربان وقد اولتهم الدهشة من سرعة مسيرهــا وودُّوا لو ماثلوها جريًا . فعند المساء بلغت الدرجة الثانيــة وعشرين ثانية من الطول وقطعت في الليل مسافة اكثر من درجة

واليوم الاثنين قد انقلب الفلك انقلاباً تاماً فاحدث الامطار تنهمل وبلاً فزادت القبة والقــارب ثقلاً ارعج السواح وعن مثل هذه الامطار الشديدة قد نشأت البحيرات ومستنقعات المياه العشبية سطح تلك البلاد وفيهــا من النبات الشجرة الصاجة والبوباب والتمر الهندي

فهذه حالة بلاد صُنراي وقراها المعممة بأسطحة مقلوبة تماثل القبعــات الارمنية فقلَّ ما فيها من الجبال الّا انه توجد فيهــا تلال بينها غدران وبرك مياه تحطها طيور الدجاج الارضي والعرعرة وهي طائرة على سطحها وترى هــا وهنالك سيول سريعة الجري تقطع الطريق فيلتزم المســافرون ان يجوزوها متمسكين بحبل مركــب من افنان الاشجار القائمة على جانبي السيول وممدود من جهةٍ الى اخرى وغابات مراتع للتماسيح والاوعال والخراطيط

قال العلامة . اوشكنا ان نرى نهر النيجر اي الاسود فان البلدان تتغير هيئتها بقرب الانهار . لان الانهر طرقات جارية كما قيل وحارّة وراءها الخصب ومما بعد تأتي بالتمدن والفلاح هكذا قد نزر النهر الاسود على جانبي صحراء الــالع الفين وخمسمائة ميل اكبر مدن افريقية واعظمها اهمية وعمرانا

فاحدث يوسف حركة التعجب وقال - ان هذا يذكرني قصة من كان يتعجب من حسن العناية الالهية ويثني عليها جميل الثناء لانها اهتمت واجرت الانهار في وسط المدن الكبيرة او بالقرب منها مع ان الانهار جرت مجراها قبل انشاء المدن

وكانت المصورة في الظهيرة تسير فوق قرية عاو وهي الان مجموع اكواخ حقيرة مع انها كانت في القديم مدينة معتبرة بل قاعدة البلاد

قال العلامة - ها قد عبرت النهر الاسود لدى عودتي من تموكتو. هوذا النهر الشهير في الاعصار القديمة نشهرة نهر النيل الذي اعزي لقدماء منشاءَهُ الى الالهة وقد اشغل بطلب نهر النيل افكار الجغرافيين في كل زمان وتكلف الباحثون عنهُ مشقات كبيرة وتعرضوا لاخطار وفيرة كما تكلف الباحثون عن النيل

وكان النهر الاسود يجري بين ضفتين منفرجتين وتنحدر مياههُ نحو الجنوب انحدارًا شديدًا اما السواح فكادوا لا يميزون عرجاته العجيبة

قال فرغوسن اني اريد ان احاطكم عن هذا النهر ولو كان الان بعيدًا منا جدًّا فانهُ يجوب بلدانًا شتى ويسمى تارةً نهر الدواليب وتارةً نهر المايو وطورًا نهر قُوًّا وفي بعض محال يدعى باسماء أُخر وكاد يوازي النيل بطول مجراهُ . وكل هذه الاسماء معناها النهر في لغات البلدان التي يجتاز بها

قال كادي - لعلَّ المعلم رث سار هذا المسير

قال ديك : كلاَّ بل لما بارح بحيرة شاد مرَّ باكثر مدن الغربو واتى فعبر النهر الاسود في صاي وهي على مسافة اربع درجات تحت عاو ثم ولج اواسط تلك البلدان التي لم يكن تجسسها احدٌ وكان النهر يحدق بها بعوجاته وبعد ما قاسى اتعابًا جديدة مدة ثمانية اشهر وصل الى تموكتو. اما نحن فاننا نبلغ

اليها باقل من ثلاثة ايام ان ساعدتنا الارياح

فقال يوسف . هل عُرفت ينابيع النهر الاسود

اجابهُ العلامة : منذ زمن مديد قد رغب رجال كثيرون في الاكتشاف على النهر الاسود والبحيرات الصائبة فيهِ ويمكنني ان اذكر لك احصهم من سنة ١٧٤٩ الى سنة ١٧٥٨ عرف ادمسون النهر وبلاد عورا . ومن سنة ١٧٨٥ الى سنة ١٧٨٨ جاب عولساري وجوبوا بلاد ستيغمبي وصعدا حتى بلاد المغاربة الذين قتلوا صوبية وبريسون وآدم وريلاي وكوشله وكثيرين غيرهم ممن ساؤا حظاً وهلكوا في تلك الامصار ولحق بهم مونغوبرك الشهير خليل ولترسكوت وابن وطنهِ الاسكوسي . فهذا بعثت بهِ الشركة الافريقية من لندرة سنة ١٧٩٥ الى تلك الاطراف فبلغ الى عمبارا وظهر النهر الاسود وقطع مسافة خمسمائة ميل برفقة احد تجار العبيد وعرف نهر غمبيا وعاد الى لندرة سنة ١٧٩٧ . ثم عاد مسافراً في ٣٠ ك ١ سنة ١٨٠٥ برفقة صهرهِ اندرسون وسكوت المصوّر وجماعة من الفعلة فوصل الى بلاد غورا فهناك ضم الى جماعتهِ فرقة عددها ٣٥ جندياً ورجع يطرق النهر الاسود في ٣٠ آب غير انهُ لم يبقَ في قيد الحياة من الاربعين اوربياً الّا احدى عشر نفراً والباقون قد هلكوا من جراء ما قاسوهُ من المشاق والرزايا وسوء الهواء وقلة الضروريات . وفي ١٦ ت ٢ بلغت آخر رسائل مونغوبرك الى زوجتهِ وبعد سنة اخبر احد التجار من تلك الاطراف انهُ لما وصل الى مدينة بوصا الكائنة على النهر الاسود في ٢٣ ك ١ انقلب فيهِ القارب بمجاريب النهر ثم نجا من الغرق الّا انهُ وقع بين ايدي سكان تلك البلاد فقتلوهُ

قال ديك : الم توقف مثل تلك الميتات التعيسة رؤد الرائدين الراغبين في اكتشافات جديدة

قال العلامة : كلاً بل اصحت لهم مهماراً حضهم ليس على البحث عن النهر فقط بل على طلب اوراق المقتول ايضاً . ومن ثم قد اعدّوا في لندرة سنة ١٨١٦ رسلاً لتلك البلاد وكان من جملتهم الضابط عراي فوصل الرسل الى سنغال ودخلوها في فوتادجالون وزاروا شعوب ولا ومديك ثم اخذوا بالعود الى انكلترة بدون نتيجة أخرى . وسنة ١٨٢٢ تجسس الضابط ليك كامل امصار افريقية الغربية المجاورة املاك الانكليز وهو اوّل من وصل الى ينابيع النهر الاسود فبناء على تقريراته ليس لمنع هذا النهر الكبير الّا عرض قدمين

قال يوسف : وما ايسر قفزهُ

قال العلامة : مهلاً ياصاح ان صدقت التقليدات كل من حاول محاذاة ذلك الينبوع قافزاً ابتلعتهُ المياه في الحال ومن رام ان يستقي منهُ ماء منعتهُ عن الاستقاء يدٌ غير منظورة

قال يوسف : هل يُحرّم علينا عدم الاعتقاد بكلمة من مثل تلك التقليدات

قال العلامة . ليس بحرام قط اما الضابط ليك فقطع سنة ١٨٢٧ فسيح الصحراء ودخل تمبوكتو ومات محروقاً من اولاد سليمان المحيي عليهِ بالاسلام دون نيل اربهم ولما قُتل لم يبعد عن تمبوكتو الّا مسافة بعض اميال

قال الصياد : ويلاهُ هاك ضحية لحرى صحوها

قال العلامة : فحينئذٍ قام واحد من صناديد الشبان وعمد على اتمام ما كان اعجب واهول الاسفار الحديثة مع قلة ما كان لهُ من الوسائط والمال لنفقات السفر وهو الافرنسي رانيه كاليه . فبعد ما حاول مراراً مباشرة هذا السفر سنة ١٨١٩ وسنة ١٨٢٤ اعاده في ١٩ نيسان سنة ١٨٢٧ من ريونيناس وفي ٣ آب وصل الى تيه مصوكاً منهوكاً من التعب والمرض حتى

انه لم يعاود السفر الّا في كانون الاول سنة ١٨٢٨ اي بعد ما شرع به بستة اشهر . فاتصم حينئذٍ الى قفلٍ لابساً ثياباً شرقية تقيهِ عن اخطار الهلكة . فبلغ النهر الاسود في ١٠ اذار ودخل مدينة جنه وركب النهر حتى تمبوكتو فوصل اليها ونزل فيها في ٣٠ نيسان . وربما كان قد شاهد تلك المدينة العجيبة اوسبي اخر يقال لهُ ايمبر سنة ١٦٧٠ وانكليزي يُسمى وورث آدم سنة ١٨١٠ غير ان رابي كاليه يُعدّ اوَّل اوربي اتى باخبـــار يقينية عنها . وفي ٤ ايار بارح تلك المدينة سلطانة البرية وفي ٩ منهُ عرف المحل نفسهُ الذي فيهِ قُتل الضابط لينك وفي ١٩ وصل الى الهرواث وبارح تلك المدينة العامرة بالتجارة وجاز تلك الفيافي الرحيبة الواقعة بين بلاد السودان وامصار اوريقية الشمالية مقتحماً فيها اخطاراً شتى اخيرًا بلغ الى تنجروفي ٢٨ ايلول سافر الى تولون. والحاصل انهُ في مدة تسعة عشر شهرًا جاب اوريقية من غربيها الى شماليهـــا معًا قاساه من المرض مدة مائة وثمانين يومًا . ولعمري لوكان كاليه قد وُلد في انكلترة لكافوه عا يستحق من الاكرام والشرف انبل السواح في هذه الايام كما كافوا الانكليز ابن وطنهم معونرك لكنهُ لم يُعتبر في فرنسا الاعتبار الذي حقّ لهُ

قال ديك نعم الرجل وحبذا لوكان رفيقًا لنا ولكن ترى ماذا حلَّ بهِ

قال العلامة · انهُ توفي وهو في عمر ثمان وثلاثين سنة من جراء ما قاساهُ من الاتعاب فطن الفرنسيس انهم وفوهُ حق الكرامة بمنحهم اياهُ جائزة الشركة الجغرافية سنة ١٨٢٨ فلوكان في انكلترة لقد أتحف بجزيل الاكرام وسامي الاجلال ونال حسن السمعة فبينما كان مباشرًا هذا السفر العجيب عمد احد الانكليز على هذا العمل نفسهِ واقدم عليهِ نظيره ببسالة ولكنهُ لم ينجح نظيره وكان القبطان كلابرتون رفيق دنهام فتوصل سنة ١٨٢٩ الى اوريقية من الجهة الغربية في خليج بانين ·واخذ يســـير على اثار مونغوبرك ولينك ووجد في بوصه

الافادات المتعلقة بوفاة اولهما ووصل في آب الى سكاتو وهناك قُبض عليه وحجز اسيرًا وقضى نحبهُ بين ايدي خادمهِ الامين ريشار لاندر

فسال يوسف ماذا جرى للاندر وكان يهمهُ الاطلاع على امرهِ

قال العلامة: قد تيسر لهُ الاتيان الى الساحل ومن هناك عاد الى لندرة ومعهُ اوراق القبطان وتقرير مدقق عن سفره الخصوصي فاعرض حينئذٍ خدامتهُ للدولة في اتمام اكتشاف النهر الاسود فسافر وحده معهُ اخاهُ جون وهو ثاني ولد لعائلة فقيرة من بلد كورنوايل فسافر كلاهما في النهر فقطعاهُ من بوصا حتى مصبهِ وحررا طولهُ ميلًا فميلًا واطلعا على ارياف قرية فقرية وبقيا في هذا السفر من سنة ١٨٢٩ الى سنة ١٨٣١

قال ديك فالمفهوم اذًا من قولك ان هذين الاخوين نجيا من المهلكة وعادا الى اوطانهما سالمين خلافًا لما اصاب عموم المسافرين الى تلك الجهات

قال العلامة: نعم توفقا في هذا السفر عيران ريشار قد سافر مرة ثالثة الى النهر الاسود سنة ١٨٣٣ ولما بلغ الى قرب مصب النهر هلك بطلقة بندقية لم يُعرف مطلقها. وأنتما اذًا يا خليليَّ ان البلاد التي نجتازها قد شاهدت من تساموا بسالةً ونشاطًا وكانت المنية واحسرتاهُ على العالم جراء هممهم الخطيرة ومروءتهم الكبيرة

# الفصل السابع والثلاثون

في البلاد التي في عرصات النهر الاسود وفي منظر حال اومبري العريب وفي كابرة وتمكتو ورسم المعلم برث وسقوط المدينة عن رونقها القديم والسير على رحمة الهواء

وكان العلامة فرغوسن مدة ذلك النهار المكرب نهار الاثنين يسلي رفيقيه بقصه عليهم قصصاً شتى عن البلاد التي كانوا يجتازون بها وكانت ارضها مستوية على الاكثر لم تأتهم بصعوبة في مسيرهم ولم يكن شيء يكدر صفا بال المعلم الّا تلك الريح المشومة التي كانت تهب عاصفة من الشمال الشرقي وتبعدهم عن عرض تمكتو. اما النهر الاسود فيجري شمالاً حتى يصل تلك المدينة ثم يدور كأنهُ فوارة ماء كبير ويصب في البحر الاطلنتيك متفرقاً حصالاً منفرجة جداً. اما الاراضي التي يكتنفها النهر في عرصاته فهي عامرة بهيسة بالخصب ومنها عامرة قاحلة كل القحول. فتلي السهول البائرة حقولاً رحبة يكسوها ديباج المزروعات او بساط الرتم. وفي أرياف السنبول والبطاح والبحيرات تعيش بكثرة جميع انواع الطيور العاشقة المياه كالبجع والاوز والبط والصيص وما شاكلها

ويرى كل مدة محطة من محطات التوارج المضحين ضمن مطال من اديم فيما تتفرغ نساؤهم للاشغال الخارجة ويحلبنَ نوقهنَّ ويشربنَ دخان التبغ بغلايين كبيرة المواقد

اما المصورة فكانت نحو الساعة الثامنة مساء قد تقدمت مسافة ما يبيف عن مائتي ميل نحو الغرب فشاهد حينئذٍ السواح مشهداً جميلاً اوعب قلوبهم عجباً وانتهاجاً

وهو ان بعض اشعــة من القمر مدت من خلال الغيوم وانسحبت بين اهاليل السحب وسطعت على جبال همبري فجاءت عليهـا بمطر ثياب بيضاء كالثلج لم يرَ كمطره في مفاعيل النور. ثم تألفت في الفضاء القاتم هيئـة اشباح كانها اطلال مدينة كبيرة دارسة من بناء العصر المتوسط كما تظهر في الليالي الداجية اكداس الحمد في البحور المجلدة

قال العلامة : هوذا منظر من مناظر اسرار اودلف لعمري ان المصوّر ردكليف لم يقدر ان يصوّر هذه الجبـــال بمنظر اغرب واهول من المنظر الذي نعاينهُ الآن

اجابهُ يوسف: وحياتي اني لا احب ان اسير وحدي مساء في هذه البلاد الموعرة اطياواً واشباحاً أترى يا معلمي لو لم تكن هذه النقعة ثقيلة لحملتها الى بلدي واقمتها على شاطئ بحيرة لوند فتتقاطر اليها النقاشون والمتفرجون احواقاً اجواقاً

قال العلامة : ان قتنا لاتسعها حتى تشعل بالك بهذا الفكر الشاذ غير اني ارى ان اتجاه مسيرنا قد انقلب فلا عاد عفاريت هذا المكان يعارضونـــا بل انهم يتحفون لنا ريحاً لطيفة تهب من الجنوب الشرقي فتحملنـــا الى طريق حسنة

وبالحقيقة عادت المنصورة تسير في طريق تميـــل الى الشمال. وفي اليوم العشرين صباحاً مرّت فوق حديقة اقنية ونهيراتٍ وغدران تصب جميعهـــا في الانهار الصابة في النهر الاسود وكثير من هذه الاقنية مغشـــاة باعشاب كثيفة كأنها مراع دسمة فهنالك اهتدى العلامة الى الطريق التي سار فيها برث حينما سافر في النهر قاصداً تمبوكتو. وعرض النهر ٤٫٨٠٠ قدم وعلى صفتيه كثيرٌ من شجر الصبار والثمر الهندي فترتع به سرب الايائل وتتلك قرونها المحلقة بين الكلاء

فيرصدها التمساح ليثب عليها ويفترسها

وكنت ترى اقفالًا كثيرة من حمير وجمال تتسرب تحت الاشجار الخميلة محمولة بضائع واردة من جنة وبعد هنيهة ظهر على عوجة من عوجات النهر حوفة بيوت منخفضة مبنية في منحدر وعلى اسطحتها كدسان علف للدواب أوتي به من الاراضي المجاورة

فلما نظرها العلامة أخذتهُ حركة الانتهاج فهتف قائلًا : هذه كبرى وهي مرفأ تمبكتو فلم تعد المدينة بعيدة عنا اكثر من خمسة اميال

قال يوسف : فطبت اذًا نفسًا يا سيدي

قال العلامة: قد انشرح صدري يا ولدي وابتهج فؤادي

قال يوسف : الحمد لله على توفيقهِ

وها تمبكتو سلطانة البرية مدينة الخفايا والعرائب التي حارت كأثينا ورومة بمدارس العلماء والفصحاء والفلاسفة قد أخذت تحلي شيئًا فشيئًا لانظار السواح

وكان فرعوس يتأمل الرسم الذي اتخذهُ برث نفسهُ في سفرهِ وحقق غاية صحته وحقيقتهِ

ورسم المدينة على هيئة مثلث الزوايا فهي منبسطة على سهل رحيب من رمل ابيض ورأسها المتجه نحو الشمال نافذ في جهة من الصحراء . وكاد لا يكون شيء من الاغراس في دوائرها الّا بعض اشجار ذات زهر ونبات الساحة وغيرها من نباتات مهذولة صغيرة

اما منظر تمبكتو فهو مجموع كرات وكمات تظهر نديًا لعين الناظر . فشوارعها ضيقة وعلى حافتيها بيوت ليس لها الّا طبقة سفلية مبنية بآجر ميبس على الشمس وبعض اكواخ من قش وقصب منها بشكل مخروط ومنها مربعة . وعلى الاسطحة ترى بعضًا من سكانها مضجعين اضجاع المرطلين الكسالى

متردين بكساء بهي ثمين وبايديهم القناة او القربينة. اما النساء فلا يُبطرنَ في تلك الساعة من النهار

قال العلامة. قيل ان النساء حميلات المطر. ولم يبقَ آثار من المدينة القديمة سوى ثلاثة مآذن لثلاثة جوامع لان المدينة قد سقطت كثيراً عن رونقها السالف. ومي الرأس المثلث الزوايا ترى جامع سكور وايوانهُ الطويل المسنود على قناطر ليست بخالية من جمال البناء وبطامهِ وعلى مسافة منها بالقرب من حي سانكونعو جامع سيدي يحيى وبعض من الدور على طبقتين. فعثاً تفتش في المدينة على قصور وبنايات كبيرة فتشبيها تاجر بسيط ومنزلة الملوكي ما هو الامكنة التجاري

قال ديك. كأني ارى اسواراً مهدومة من باب الصف

اجابهُ العلامة. نعم قد دكها الفولانيون سنة ١٨٢٦ وكانت المدينة وقتئذٍ اكبر مما هي الآن من باب الثلث لان تمبكتو كانت منذ القرن الحادي عشر هدفاً لسهام مطامع شعوب كثيرة فتحها التوارج والصنراويون والمغاربة والفولانيون وكانت مركزاً كبيراً للتمدن والفلاح وكان فيها للعلاَّمة احمد بابا في القرن السادس عشر مكتبة تحوي الف وستمائة كتاب خط يد. اما الان فليست سوى مخزن تجارة افريقية الداخلية يدل ظاهر حالها على انها أُسلمت لرحمة المتوانين وأُصيبت بداء التهاون الآتي منهُ زوال المدن واضمحلالها وتكدَّس فيها الردم حتى لا ترى على سطح ارضها المستوية محال مرتفعة الّا تلك التي رُكم فيها ذلك الردم الماصح

فلما مرت المنصورة وقتها قد بدا فيها بعض الحركة بل وُضرب بالطبل غير ان من كان من اهلها على شيء من العلم لم تسنح لهُ الفرصة الماسة لمراقبة هذه الحادثة الجديدة اذ دفعت الريح الشديدة السوَّاح نحو المفازة فعادوا

يسيرون فوق مجرى النهر الكثير العرجات مفي الحال توارت عنهم مراكبهم ولم يبقَ لهم منها الّا ذكرها

قال العلامة : اما الان فليذهب بنا المولى الى حيث يشاء

اجاب ديك : اللهمَّ بشرط ان يسير بنا نحو الغرب

قال يوسف . لو عدنا الى زنجبار في الطريق التي اتينا بها او جرنا نحو الاوقيانوس حتى اميركا لما كنت اخشى ضرًّا

قال العلامة ولكن يا يوسف كان يلزمنا اولاً ان نستطيع سبيلًا الى ذلك السفر

قال يوسف . ترى ما الذي يعوزنا لمباشرته

قال العلامة . يا ولدي يعوزنا الغاز لان قوَّة التصاعد في القبة أخذت تنقص شيئًا فشيئًا فيلزمنا اخذ احتياطات كثيرة لكي تحملنا الى الساحل . فاوشكت ان اضطر الى ان اطرح شيئًا من الصورة . لانها تثقلُ ثقلًا زائدًا

قال يوسف هاك يامعلمي ثمرة البطالة والمكث النهار بطوله كي يصبح في ارجوحته . فتسمن وتضخم وتثقل . فان سفرنا هذا من اعمال الكسالى فمتى عدنا الى انكلترة ارغنا من طربنا سمنتنا وضخامتنا

اجاب الصياد لعمري ان مثل هذه الملاحظات لا يأتي بها الا يوسف ولكن مهلًا يا يوسف مهلًا انتظر النهاية أتعلم ماذا يقدّرهُ الله علينا . لم نزل بعد بعيدين من منتهى سفرنا ما رأيك يا صمويل اين نصادف ساحل افريقية

قال العلامة : اني قاصر جدًّا عن محاورتك ياديك لانا مسلمون الى رحمة رياح متقلبة . غير اني احسب نفسي سعيدًا اذا وصلت الى ما بين سيارة ليوني وبورتنديك . فهناك بلدان واسعة لا بد من ان نصادف فيها بعضًا من الاصدقاء

قال ديك . وما اوفر سرورنا عند ما تقابلهم وتهديهم التحيات الودادية .
ولكن ترى هل انا سائرون الى الجهة المطلوبة

قال العلامة . لسنا تماماً على ما يبتغي من المسير . هالك الوصلة فترانا سائرين الى الجنوب وذاهبين الى ينابيع النهر الاسود

قال يوسف . كانت هذه فرصة حميلة لاكتشافها لوكانت لم تزل مجهولة .
ألا سبيل لنا ان نكتشف لها ينابيع اخرى

قال العلامة : كلاّ ولكن كن مرتاح البال يا يوسف اني اؤمل ألّا نتقدَّم الى ذلك الحدّ

فلما اظلم الظلام رمى العلامة بما بقي من أكياس الصبيرة لان القبة لم تحتملها مع اشتعال آلة الغاز الى اعلى درجة . فكانت القبة وقتئذ سارت ستين ميلاً في جنوب تمبوكتو وفي اليوم الثاني اصبحت على شاطئ النهر الاسود بالقرب من بحيرة ديبو

# الفصل الثامن والثلاثون

في قلق العلامة فرغوسن وفي الجراد وفي انقلاب الريح

وكان مجرى النهر وقتئذٍ منقسمًا الى فروع ضيقة سريعة الجري لوجود جزائر شتى في وسطهِ وكانت احداها تحوي بعض اكواخ للرعاة. الا انهُ لم يكن يتيسر للسياح رسم ما كان على طريقهم بوجه الضبط والتدقيق لازدياد سرعة مسير المنصورة ولسوء حظهم قد كانت مائلة لجنوب اكثر من ذي قبل وحازت بحيرة داو بنزهة وجيزة

اما فرغوسن فكان ينقل القبة الى درجات مختلفة من العلو ليحكمها في مجاري الرياح غير التي كانت تحملها. الّا انهُ لم ينجح في عمليتهِ ومن ثم قد ترك حالاً هذه المحاولة الزائد من قبلها تلف الغاز بداعي شدةِ على جوانبها المنهوكة بالارياح. فاستولى عليهِ قلق جسيم لكنهُ وارى اماراتهِ صامتًا. وكانت الريح تلازم دفعها الى جهات جنوبي افريقية وتوقع حللًا في حساباتهِ . اما هو لم يعد يدري عن او ما يعتمد عليهِ فان لم يبلغ الاراضي الانكليزية او الافرنسية وقع في ايدي البرابرة الشائنين الاغارة على سواحل غربي والله اعلم ما يصيبهُ هنالك من البلايا والرزايا. فلا يعود يتيسر لهُ سفينة يعود بها الى انكلترة. وكانت الريح تقذف بهِ نحو مملكة داهوماي في وسط قبائل فاقت جميع الملاء توحشًا وفظاظةً فيترك هناك الى رحمة ملك يذبح في الاعياد الجمهورية الوفًا من البشر ضحايا لالهتهِ فمن وقع في تلك البلاد ذهب لامحالة فريسة الهلاك

وكانت القبة من جهةٍ أخرى تعيي اعياء ظاهرًا في مسيرها ولم يخفَ امرها على العلامة لكنهُ كان يؤمل انهُ متى قشع السحاب وانقطع المطر تنقلب

مجاري الهوا . في الجو الى ما يُحس حريها فساءهُ اذًا ما انبأهُ به يوسف عن حالة الفلك بقوله .

هوذا المطر اوشك ان يتضاعف هطلهُ ويكون هذه المرة طوفانًا عرمرمًا على ما تبشر هده السحب المقبلة

قال ورغوس . لا حولَ ولا قوةَ الّا بالله أسحبٌ هي حقًا وما حاجتنا اليها

فقال ديك . لعمري انها سحبٌ كثيفة

قال يوسف : وحياتي لم ترَ مثلها قط ولها اطرافٌ حادة كأنها محططة على الريح

ثم أخذ العلامة النظارة ونظر اليها واذ رفع النظارة قال قد اطمأن قلبي لانها ليست سحب

قال يوسف : لله العجب . أليس هذا سحاب

قال العلامة . هذ ليس سحاب بل ضباب

قال يوسف . ما فرق الضباب عن السحاب

قال العلامة . لنا ضبابٌ من جراد

قال يوسف وقد أخذتهُ هزة العجب : أهذا جراد

قال العلامة : ان مليونات مليونات من الجراد اوشكت ان تمر بهذه البلاد فالويل لها ان عطفت عليها لقد جعلتها فريسة الدمار

قال يوسف . اني لراغب ان ارى مثل ذلك

قال العلامة : مهلًا يا يوسف فمن الان الى عشر دقائق يدركها هذا الضباب فتراهُ بعينيك . وقد اصاب العلامة ورغوس بقوله هذا لان سحابة هذا الجراد الكثيفة المنتشرة الى مسافة اميال كثيرة وصلت سريعًا الى السواح وهي تدوي دويًا يصم الاذان وتلقي على الارض ظلها الطويل فكانت

حيوشاً لايحصى عددها من جراد ذات اربعة اجنحة . فعلى مسافة مائة قدم من المنصورة انصبت على بلدةٍ محضرة فما مضى ربع ساعةٍ من الزمان الّا وسحابة الجراد عادت تطير فنظر السواح عن امد الاشجار والاحام مجردة من كل خضراء وثمراء والحقول معراة وقد امست المروج لا عشب لها . فكأن فصل الشتاء قد فاجأ تلك البقعة فغرقها في اقصى المحل والجدب

ثم قال : أرأيت يا يوسف ما كان من هذا الجراد

قال يوسف : ان ذا غريب لكنهُ طبيعي فكما ان جرادة واحدة تتلف يسيراً كذلك ربوات من الجراد تتلف كثيراً

قال ديك : وانهُ لمطرٌ وابل بل مهول وأهول من البرَد الشديد دماراً

قال العلامة : وأهول من هذا جميعه محال التوقي منهُ . احياناً رأى الاهلون حرق الغابات حتى والمزروعات لكي يتمكنوا من اهلاك هذه الهوام ولكن لم يمحوا كثيراً بهذه الطريقة لان الزفوف الاولى تنقض على اللهيب فتعشيه وتطفئه . اما الباقية منها فيمر فوقها بغير صعوبة ولا معارضة غير ان الاهالي يستفيدون من هذا المصاب بعض العوض عما ينالهم من الرزايا وهو انهم يلتقطون كثيراً من هذه الهوام ويأكلونها فيستعذبونها مأكلاً

قال يوسف . اني اشبههُ بالقريدس الذي في البحر وأتأسف لعدم تمكني من ذوقهِ لاعلم كيفية هذا الطعام

وكانوا يرون البلاد عند المساء تزداد سناخاً فلم يعودوا ينظرون غابات بل بعض شعب من الشجر . وعلى ضفتي النهر بعض نبات من التنغ ومروجاً ذات عشب كثيف لرعاية المواشي في وسط حريرة كبيرة لحوا مدينة حنة ومأذنتي جامعيها واشتموا الرائحة الكريهة المنبعثة من الوف بالوف من اوكار السنونو المنحشرة في اسوارها وفي حلال بيوتها . ولروا رؤوس اشجار البوناب

والصاحة والنحيل . اما اهلها فانهم ذوو عزم وهمة ونشاط لا يزالون النهار والليل في العمل ومدينتهم جمة وسيعة الدائرة وكبيرة الحركة التجارية فتاتي تسكنو كل ما يلزمها وتنقل اليها على القوارب بالنهر وعلى ظهور الجمال في الطرقات المظللة بالاشجار جميع محصولات صنائعها

قال العلامة : فلولا الحذر من اطالة سفرنا لحاولت الدول في هذه المدينة فلا بد من ان يوجد فيها من العربان من سافروا الى فرنسا وانكلترة فلعلهم لا يستغربون مركبتنا انما هذا لا يخلو من خطر

قال يوسف وهو يتبسم : فلأُحلِّ هذه الزيارة الى سياحتنا القادمة

قال العلامة وزد على الخطر . . . اني اشعر بحلة حقيقة للريح ليهب من الشرق فمن الواجب ان نغتنم هذه الفرصة

فرمى العلامة من المنصورة بعض اشياء امست غير مفيدة كبعض قناني فارغة وصندوقًا يوضع فيه لحم لم تعد حاجة اليه وتوصل الى انه اقام المنصورة في منطقة انسب للمسير الى حيث يشاء في الساعة الرابعة صباحًا كانت اشعة الشمس تضيء سعو وهي عاصمة عمارا المعروفة جيدًا بالاربع المدن التي تتألف منها وبجوامعها المزخرفة وبتوارد القوافل الناقلة بلا انقطاع سكان المدينة من محل الى اخر . اما السوّاح فلم يُبطئوا اكثر مما بطئوا وكانوا يفرون بسرعة وعلى الخط المستقيم الى الجهة الشمالية الغربية . فأخذ العلامة يطمأن قليلًا قليلًا من قلقه وبلباله فقال : ان بقينا نسير الى هذه الجهة وبهذه السرعة وصلنا بعد يومين الى نهر سنغال

فسأله الصياد . هل نكون في بلاد امينة

قال العلامة : ليست امينة بالتمام انما اذا نقصتنا المنصورة نستطيع بالحصر ان نصل الى منازل فرنسوية . وان سارت بعدُ مسافة بعض مئات من الاميال

فانا نصل آمنين من الاتعاب والمخاوف والاخطار الى الساحل الغربي

قال يوسف: أسكون انتهينا من السمر. حاشا لنا فلولا رعتي في ان اقص قصة سفري لما شئت قط ان القي قدميّ على الثرا. هل ترى يا معلمي يصدق الناس قصصنا

اجابهُ العلامة: ما ادراك يا صاحبي ان كانوا يصدقونها. لكنها لا تزال صادقة اكيدة ان صدقوها ام لا فيكون عندنا الف من شهودٍ عيان يشهدون بسفرنا من ساحل افريقية الشرقي والف يروننا واصلين الى الساحل الغربي

قال ديك. والحالة هذه فاني ارى امرًا عسرًا قول قائلٍ باننا لم نجر افريقية من اقصائها الى اقصائها

قال يوسف وهو يتنهد الصعداء: اه اني متأسف شديد الاسف على قطع ذاك الذهب الخالص فلو حفظناها لزادت كلامنا اعتبارًا وقصصنا تصديقًا ولكنت اذا اعطيت كل رجلٍ شيئًا من ذاك الذهب الفت جمهورًا كبيرًا من الناس يسمعون حكاياتي ويتعجبون لخطي ويستعطموني

# الفصل التاسع والثلاثون

في دنو السوّاح من سعال وفي ارتياد المصورة احماصاً وفي الدرويش الحجي
وتسكال ومصور ولمرتوس والجبال الشاهقة وسلاح ديك ولناقة يوسف
والوقعة فوق عاب

في اليوم السابع والعشرين من ايار نحو الساعة التاسعة صباحاً ظهر مطر السلاد جديداً فولى الدرجات المنبسطة تلالاً واوتاداً نشرت تقرب الجبال والاكام وازمع السوّاح ان يقطعوا سلسلة الجبال الفاصلة بين مسيل النهر الاسود ومسيل نهر سنغال الموديين المياه الى خليج عويني او الى جون الرأس الاحمر

فان قسم افريقية هذا حتى سعال مشهور بتوحش اهله واذائهم للسواح وكان العلامة فرغوس يعرف ذلك من اخبار سلفائه الذين قاسوا من العذاب وحاصوا اشد الاخطار ما بين اولئك السودان الدارزة وقد هلك رفقاء مونغو بزك من تأثير سوء الهواء وشدة الحرّ في تلك الاطراف فحرم فرغوس جرماً قطعياً ان لا يدوس تلك الكورة التي لا تاتي صيعها الّا بالاهوال والاخطار

غير انهُ لم يرتح لهُ بال ولم يهدأ لهُ بلبال لكون المصورة لم تزل تحمص انحماصاً ظاهراً فاقتضى ان يخفف حملها طرحه مهما اشياء جمة غير لازمة او غير مفيدة ولاسيما عند ما اوشكت تمرّ فوق قمة من قمم الجبال ولم تبرح على هذه الحال من العناء ومن الصعود والنزول على مسافة اكثر من مائة وعشرين ميلاً وهي مجدلة تتدحرج دواماً كصخر سيزيف (١) ولما كانت القمة الهوائية

---

(١) زعم الوثنيون القدماء انهُ كان محكوم على سيزيف في جهنم بان يُصعد من اسفل جبل الى قمتهِ صخراً يتدحرج حالاً من القمة الى اسفل

قليلة الانتفاع قد ارتخت حواشيهـا فكانت تمتد طولاً وتضيق عرضاً واخذت الريح تحمل في ملمها طيات وسيعة

قال ديك وهو قد لحظ ما جرى لها . لعل في القبة شق من جهة

اجابهُ العلامة : كلا بل ان طليها قد داب لشدة الحرارة واخذ الادروجن ينصرف من خلال قماشها

قال ديك . وما الحيلة في منع انصراف الادروجن

قال العلامة : لا حيلة في ذلك الّا ان نخفف حملها وهذه هي الطريقة الوحيدة فلنلق منها كل ما يمكن طرحهُ

قال ديك وهو ينظر الى قارب القبة . ترى ما الذي نطرحهُ بعدُ ها القارب فارغ من كل ما كان فيهِ

قال العلامة فلننزع عنها المظلة لان ثقلها ليس بيسير

ولما كان يوسف يسوط بهِ هذا الامر صعد فوق الحلقة الجامعة حبال الشبكة وتيسر لهُ هناك ان فصل عنها استار المظلة السميكة ورمى بها خارجاً وهو يقول هاك عتية وسعادة لتشمل قبيلةٍ من السودان فهذه الاقمشة تكفي لكسوة الفٍ من الاهلين لانهم يشحون كثيراً على القماش في ملابسهم

فارتفعت القبة برهةً الّا انها عادت فيما بعد تهبط وتدنو من الارض

قال ديك : فلننزلنَّ ولنرَ ما يمكننا عملهُ لاصلاح هذا التلف

قال العلامة قد قلت لك يا ديك واقول ايضاً ان لا سبيل لاصلاحهِ

قال ديك . فما الحيلة اذاً

قال العلامة : الحيلة ان نضحي كل ما يمكننا ان نستغني عنهُ من الامتعة فاني اريد بلا بدّ ان اتحاشى من الوقفة في هذه الجهات لان الغابات التي نحن الآن فوق رؤوسها هي غير مأمونة وموعبة اخطار الهلكة

قال يوسف· وما احطارها لعلَّ فيها أُسد او صباع فلا يُعبأ بهما

قال العلامة· ان فيها يا ولدي ما كان شرًّا من الأُسد والصباع اعني به اناساً برابرة واسوأ سكان افريقية قساوةً وتوحش

قال يوسف· ومن اين علمنا ذلك

قال العـــلامة· قد اخبرنا عنهم السواح الذين سلفونا في هذا القطر· ثم الافرنسيون سكان مستعمرة سنغال اذ لم يكن لهم بدٌّ من المعاطاة مع القبائل المجاورة على عهد الكولونال فيدرب فوقفوا على اكتشافات قاصية بالبلاد فطافها بعض الضباط منهم اي دسكال ومصور ولمرتوس واتونا بافادات نفيسة عن اسفارهم· فانهم تجسسوا تلك الكور الواقعة في تعريجة نهر سنغال ولم تدعهـــا الحرب والنهب الَّا قاعًا صفصفاً

قال يوسف· وماذا جرى فيها

قال العلامة· هاك ما جرى· ظهر سنة ١٨٥٤ شيخ سنغالي من موطا يقال لهُ الحجي وادعى النبوة والقى الفتنة بين القبائل وحملهم على محاربة الكفار اي الاوربيين وانزل ويلات الدمار والخراب في ما بين نهر سنغال ونهر فليمـــة الصاب فيهِ فاقام ثلاث عصابات من اولئك القوم الرواض وطاف بهم البلاد ينهب ويقتل كل من صادفهُ ولم يعفُ عن قرية ولم يسلم من شرهِ دارٌ ولا كوخٌ حتى ولج في وادي النهر الاسود وبلغ مدينـــة سغو وتهددها زمانا طويلًا بالخراب· وسنة ١٨٥٧ عاد الى جهات الشمال برجالهِ واحاط بقلعـــة مدين التي بناها الافرنسيون على شاطئ النهر فدافع عن هذه القلعة رجل صنديد يقال لهُ بولس هول عدة اشهر وثلث ثاتًا يحميها من شر الحجي ورجالهِ وما كاد عدهُ قليل من القوت حتى وصل اليهِ الكولونال فيدرب ونجدهُ وانقدهُ من الهلكة· فبعدها رجع الحجي وجماعتهُ عنهُ وجاوزوا سنغال وعادوا الى كرتا ينهبون

البلاد ويقتلون العباد والحاصل ان هذه هي البلاد التي لجأ اليها هو وجماعتهُ واحتجوا فيها ومن الثابت انهُ لا يحسن بنا اصلًا الوقوع بين ايديهم

قال يوسف : لا سمح الله ان نقع بين ايديهم ولو اقتضى ان نخلع عنا احديتنا ونرمي بها الى الثرا لنرفع المصورة في الفضاء

قال العلامة: لم نبعد من النهر لكنني أرى ان القبة لا يمكنها حملنا الى ما وراءهُ

اجاب الصياد: فلنوصلنَّ الى شاطئهِ وحسبنا توفيقًا في المسير

قال العلامة. هذا ما نحاول صنيعهُ غير انهُ يقلقني امرٌ واحد

قال الصياد. وما هو

قال العلامة . ان امامنا جبالًا ينبغي ان نقطعها ويشق علينا قطعها لانني لا اقدر ان ازيد قوة التصاعد في القبة ولو اتيتها باعظم ما يمكن من الحرارة

قال الصياد: فصبرًا جميلًا علينا بالانتظار لنرى ما يكون في آنه

قال يوسف وهو يتأسف على حالة المنصورة : مسكينة المصورة اني تعلقت بها تعلق النوتي بسفينتهِ فلا انفصل عنها بدون ضيم وكدر. ولكن ما الحيلة فانها ليست كما كانت عند بداية سفرنا فلا باس علينا ولا ينبغي ان نقول فيها سوءًا لانها اتتنا بخدامات سنية وان هجرتها قد اضطر فؤادي عليها غمًّا

قال العلامة. لكن طيب الخاطر يا يوسف ان تركناها فلا عار علينا لاننا نتركها رغم انفنا فتخدمنا حتى تنزف جميع قواها فاني اطلب منها ان تخدمنا بعدُ اربعة وعشرين ساعة

فأخذ يوسف يتفرس فيها وقال: قد خارت قواها واخلت وكادت روحها تزهق واسماءُ عليها

قال الصياد · يا معلمي صمونيل انظر الى الافق · اني ارى جبالًا · لعلها الجبال التي ذكرتها

فاخذ العلامة نظارته ونظر بها الى الافق ثم قال : هذه هي بعينها واراها شامخة فيشق علينا قطعها

قال الصياد : ألا يمكننا ان نتحاشى من المسير فوقها

قال العلامة · لا اظن لانها تشغل مسافة كبيرة من الارض وهي نحو نصف امتداد الافق

قال يوسف : ويتراأى لي انها تتزاحم حولنا وتحدق يامنةً ويسرةً فلا بدَّ لنا من المرور فوقها

وكانت هذه الجبال تستبين سائرة لملاقاة السواح وتقترب منهم بسرعةٍ لا مزيد عليها او بالحري كانت الريح عاصفةً تقذف بالمصورة نحو القمم الرفيعة فكان لا بد لها من الارتفاع على كل حال والّا صدمت الصخور وتلفت

قال فرغوسن · فلنفرغنَّ صندوق الماء ولا نبقِ منهُ الّا ما يلزمنا للشرب يومًا واحدًا

فافرغهُ يوسف وقال · هاك افرغناهُ

فسأل الصياد : هل ارتفعت القبة

اجابهُ العلامة : قد ارتفعت قليلًا اي مسافة خمسين قدما ولم يكن العلامة يحوّل نظرهُ عن ميزان الهواء غير ان هذا الارتفاع غير كافٍ لمجانبة خطر مصادمة الجبال · وبالحقيقة ان القمم الشامخة كانت تصادر السواح كأنها واثبة عليهم لتطبق على رؤوسهم · وكانوا يبعدون عن علوها مسافة خمسمائة قدم

فرموا من القبة ايضاً عوْنة الماء اللازمة للانوبة ولمْ يبقوا منها الّا قليلًا ولم يكن هذا التخفيف كافيًا

قال العلامة · فلا بد لنا من المرور فوق الحال فما الحيلة

قال ديك · فلنلق عنا الصناديق حيث اوعاها

قال العلامة : القوها

فالقاها يوسف وقال : آهاً على الخسارة ما امرّها

فقال لهُ العلامة · يا يوسف لا تخاطرنَّ في حياتك لاجلنا كما صنعتَ فيما مضى احلف لي انك لا تفارقنا

قال يوسف : طِب نفساً يا معلمي انا لا نفارق بعضنا بعضاً

اما المنصورة فقد زادت صعوداً نحو عشرين قامة لكنها لم تزل منحصصة عن قمة الجبل وكانت هذه القمة شبه مسلة منتصبة قائمة في رأس جبل شامخ كأنهُ مخروط بالبيك وكانت تعلو السواح مسافة مائتي قدم

قال العلامة في نفسهِ · من الآن الى عشر دقائق يصدم القارب هذه الصخور ويتحطم بها اذا لم يتيسر لنا ان نرتفع فوقها

قال يوسف · والآن كيف الحال ياسيدي صموئيل

اجابهُ العلامة · اطرح كل هذا الفحم المثقل على القفة ولا تبقِ الّا مونتنا من مربّى الفحم

فطرحوا الفحم الآخر وخفت القفة من ثقل خمسة وعشرين رطلاً فارتفعت ارتفاعاً ظاهراً ولكن ما الفائدة طالما لا تعلو قمم الجبال وعليهِ كانت المنصورة في حالةٍ تلقي شديد الرعب والهول في قلوب السواح اذ كانت تسرع سرعة الطير فلو لطمت الصخور لسحقت ارباً ارباً

فنظر العلامة الى ما حولهُ في القارب فوجدهُ كأنهُ فارغ ويكاد الّا يكون فيهِ شيء

فقال لديك : ان اقتضى الامر ينبغي ان تكون مستعداً لطرح اسلحتك

فلما سمع ديك هذا الكــلام ارتجفت جميع اعصابه واجاب . هل ترى صحبي اسلحتي

قال لهُ العلامة · يا صاحبي لا يخطرنَّ على بالك اني اطلب منك تضحية اسلحتك بدون ضرورة قصوى

قال ديك : صموئيل صموئيل . وانقطع كلامهُ لشدة حركة الكدر

قال لهُ العلامة : ان نجاتنا من الهلكة موكولة على تخفيف القبة من ثقل اسلحتك ومونة البارود والرصاص

ثم هتف يوسف قائلاً · قد قربنا قد قربنا عشر قامات فقط . هيا يا رجال ان الحبل يعلو المنحورة مسافة عشر قامات ايضاً . قال هذا وأخذ الاعطية ورمى بها الى الثرا ثم رمى بجملة حعب مملوة رصاصاً بدون استشارة كادي

فصعدت القبة وجازت القمة الخطرة وضاء قطبها الاعلى باشعة الشمس اما القارب فلم يزل اوطى من الصخور العظيمة التي ارمع ان يلطمها ويتحطم بها لا محالة

فصدها صاح العلامة · ديك ديك ارم باسلحتك والّا هلكنا

قال يوسف : مهلًا يا سيدي ديك مهلًا

والتفت ديك فرأَى قد توارى خارج القــارب . فصاح به · يا يوسف يا يوسف

ثم صاح العلامة وأسفاه على يوسف

فكانت مساحة قمة الحبل في ذاك المكــان نحو عشرين قدمًا ومن الجهة الاخرى كانت منحدرة قليلًا فوصل القارب على تمام مساواة هذه القمة المنبسطة وزحف على ارض محصبة فسمعت قعقعة الحصى عروره

فصاح واحد من الرفاق قائلاً · الحمد لله والشكــر لله مررنا ونجونا من

الخطر . فسمعهُ وعوس وطفح قلبهُ سروراً اذ كان يوسف الشهم الشديد البأس الذي رمى بنفسهِ الى الثرا ولبث شاث اليدين بطرف القارب الاسفل واخذ يسير بقدميهُ على قمة الجبل محفاً على هذا النحو عن القمة ثقل جسمهِ حتى كان مضطراً الى ان يشد يديهِ عليها لئلا تتعالى وتفلت من امامهِ

فلما وصل الى منحدر الجبل واشرف على الهــاوية قد تسلق متمسـكاً بالحبال تمسكاً شديداً محاذ حذا رفيقيهِ في القمة وهو يقول ما اسهل هذه الحيلة وما احسن ما قالهُ احد الادباء . واذا جار عليك الدهر فليكن عندك حيلة

فعنــدها ناداهُ العلامة وقلبــهُ يخفق بهزة الفرح : عافاك الله يا يوسف حبيبي عافاك الله لا ثكلتك امك

اجابهُ يوسف وهو يتفكه بالكلام . لم اعمل ما عملتهُ بشأنكم يا سيدي بل بشأن قرابينة الموسيو ديك . فاني كنت مديوناً لهُ بهذا العمل منذ واقعة الاعرابي . فأحب وفاء ما عليَّ من الدين فوفيتهُ واصبحنا الان على سوية حال وراحة بال قال هذا وقدم للصياد قرابينتهُ التي كانت عندهُ اعزَّ شيء في الدنيا وقال لهُ . لكان قد شق عليَّ جدًّا لو رأيتك خالياً منها

اما كاديي فشدَّ على يدهِ علامة الوداد ولم يدعهُ الفرح يفوه بكلمة فمن بعد ذلك لم يكن للمصورة الأ ان تهبط منحصة وكان انخفاضها من ايسر الامور . فما مضى برهة من الزمان الأ وُجدت بعيــدة من الثرا مسافة مائتي قدم فقط وجارت تمام موازنتهـا وكانت الارض تستبين كأنها مصابة بالزلزلة وكان عدم مساواة سطحها ياتي بموانع تعسر محاذاتها ليلا بحركة هوائية لم تعد تاتي ادارة مديرها . فلما جيم الليل حرم العلامة على الوقوف حتى الصباح رغماً عن استمرارهِ من المبيت في ارض تلك البلاد

فقال العلامة : هيوا بنا نفتش على محل مناسب لنقف فيهِ

اماانه كادي عجباً يا سيدي اراك حرمت على الوقوف في هده الارض

قال العلامة نعم لاني قد امعنت فكري في كل شيء وتبصرت فيه زماناً طويلاً فاريد الان ان ابرزهُ الى حيز الفعل . فالان الساعة السادسة فقط بقي ادا لنا زمن للعمل . فالقِ المرساة يا يوسف

فامتثل يوسف امرهُ في الحال والقى المرساة وكانت مدلاةً تحت القارب

ثم قال العلامة : اني ارى غابات فسيحة فعلينا ان نسرع الى فوق قممها ونقف متشبثين على رأس شجرةٍ من اشجارها . لاني لا اريد قط ان ابيت الليل على الارض ولو ملكوني هده البلاد برمتها

قال ديك : أنستطيع النزول

قال العلامة . وما الفائدة من نزولنا وقد قلت لكم ان في انفصالنا خطراً على حياتنا . غير اني استعين بكم على عمل عسير

اما المنصورة فكانت تطفو في الهواء فوق قمم الغابات المشار اليها ولم تطفو ان وقفت محاذيةً لان مرساتها قد تعلقت ولما سكنت الريح مساء لبثت كأنها جامدة فوق تلك الرياض الخضراء المتألفة من رؤوس اشجار غابةٍ من الجميز

# الفصل الاربعون

في المبارزة بينهم على الشهامة واحراز رزهم والة التعسيح ولباقة يوسف وما جرى نصف الليل وهمة العلامة وهمة كبادي وتباعسه والحريقة والصجيج والعويل واخطاء طلقات الرصاص

دخل العلامة فرغوسن يبحث عن مركز القبة فوجدها بقياس علو النجوم بعيدة عن سيعال نحو خمسة وعشرين ميلًا فقط

فبعد ان علّم خارطتهُ قال على ما يمكننا عملهُ يا خليليَّ اما هو ان نجوز النهر. وحيث لا جسر للنهر ولا قوارب لنا قد تحتم علينا ان نجوزه بالقبة ولهذا لزمنا ايضًا ان نخفف حملها

اجاب الصياد وكان يخاف على سلاحهِ . لا ادري باية طريقـة نتوصل الى تخفيفها الّا ان يتهجم احدنا على النزول منها ويبقى ورانا .... فانا مقدم ذاتي الى هذه الخدمة لان هذه المرة قد جاءت نوبتي

اجابهُ يوسف · قد اخطأ سهمك . انا المعود على مثل هذا العمل

قال لهُ الصيــاد : ليس المقصود هنا يا صاح الانحدار من القبة الى اسفل بل السير مشيًا حتى الساحل اما انا فصيــاد متين واعد نفسي اشد منك جريًا فهذا عملي

اجابهُ يوسف · وحياتك لا يقدم على هذا العمل غيري

قال فرغوسن لا فائدة يا صاحبيَّ من نزاعكما على المروة . لاني اومل الا نتوصل بنا الحال الى حدّ هذه الشدة . ومع ذلك اذا اقتضى الامر لا نتفرق ابدًا بل نحضر جميعًا ونختار بهذه البلاد معًا

قال يوسف : لا اصوب من هذا الراي فلا بأس من بعض المشي في هذه الاراضي

اجاب العلامة . هلموا نبادر قبلًا الى اجراء اجزم ما بقي لنا من الوسائل لتخفيف ثقل المحصورة

قال كادي وما عسى تكون هذه الطريقة يهمني ان اعرفها

قال العلامة . يلزمنا ان نرفع عن المحصورة ثقل صناديق الادوية والآلة الكهربائية والحية . وكل هذا يزن نحو نصف قنطار يعسر حمله في الفضاء على اجنحة الريح

قال كادي . يا صموئيل كيف يتيسر لك بعد ذلك نشر البخار وتوسيعهُ

قال العلامة : لا يتيسر لي غير اني استغني عنهُ

قال كادي . وكيف ذلك

قال العلامة : يا صاحبيَّ اني قد صرفت حساب ما بقي للمحصورة من قوة التصاعد فوجدتها كافية لتحملنا معًا بما بقي لنا من الامتعة القليلة فيكاد ثقلنا يوازي قنطارين مع المرساتين اللتين ابقيهما

اجاب الصياد . سيدي الحبيب صموئيل انك اعلم منا في هذا الامر وبعيك وحدك الحزم والتدبير في امر المسير قل لنا ما يجب عملهُ فانا لك طايعان ولامرك خاضعان

قال العلامة قد قلت لكما ايها الاحباء لا بد لنا من تضحية آلاتنا مهما كان الاعتماد عليها باهظًا كبيرًا

اجابهُ كادي : ضحها ولا بأس

قال يوسف : هلمَّ بنا للعمل

ولم يكن ذلك عملًا من صغار الاعمال اذ يلزم تفكيك الادوات قطعةً فقطعةً فرفعوا صندوق المزج ثم صندوق الانبوبة اخيرًا صندوق حلّ عنصرَي الماء . وقد تواطىء الثلاثة السواح وحدُّوا بتمام عزمهم حتى تمكنوا من خلع

الاوعية المحكمة بالقارب. وكان كادي ذا عزم شديد ويوسف ذا لباقة وساعة وصموئيل ذا حذق ودراية حتى انتهوا من عملهم بغاية التوفيق والنجاح

فالقوا هذه القطع شيئاً فشيئاً خارج القبة فسقطت على اوراق الحمير خارقة فيها خرقات فسيحة

قال يوسف ان السوداني بأحدهم المحب لدى مصادفتهم هذه الاشياء في الغابات ولا يبعد انهم يصنعون منها اصناماً يعبدونها

ثم بادروا الى الشغل بتفكيك الانابيب المشدة بالقبة والموصولة بالحية اللولبية فتيسر ليوسف ان قطع الصلات الصمغية على علو بعض اقدام فوق القارب. اما الانابيب فكان فصلها متعسراً لانها كانت موصولة بطرف القبة الاعلى وممسكة بشرائط من نحاس اصفر في نفس دائرة مسعد الغاز

فصعدها ثم يوسف عن ذراع لباقته العجيبة وخلع نعليه من رجليه حذراً من ان يحطط نسيج القماش بحذائه وتمسك بالشبكة المتفقة بها القبة وشرع يتسلق الى ان بلغ قمة المصورة الخارجة وهناك تمسك باليد الواحدة في ذلك السطح الزلق وبالاخرى بعد كد كديد وجد جهيد قلع البراغي الراتبة الضابطة الانابيب. حينئذ تفككت الانابيب بسهولة وسحبت من الطرف الاسفل الذي سدت ثغرته سداً محكماً بعقدة شديدة

فما تخلصت المصورة من هذا الحمل الكبير استوت في الهواء واوترت حبل المرساة بشدة

فجرت كل هذه الاشغال نصف الليل بغاية التوفيق لكنها قد كلفت الفعلة اتعاباً ومشقات لا مزيد عليها. ثم تناولوا على وجه السرعة ما تيسر لهم من الطعام التي لان العلامة لم يعد عنده نار يطبخ بها يوسف طعاماً

غير ان يوسف وكادي قد اعياهما الشغل. فقال لهما فرغوس اضطجعا

وناما يا صاحبيَّ . فانا اسهر الهجعة الاولى وفي الهجعة الثانية اوقظ كادي ليسهر هجعتهُ والهجعة الثالثة كادي يوقظ يوسف وساهر الساعة السادسة وسأل ربي العباد ان يرمقنا بعين عنايته في هذا النهار الاخير

فدون ان يكرر عليهما العلامة امرهُ قد اضجعا وناما في قعر القارب واسرع اليهما النعاس فاستغرقا في السبات

وكان ذلك الليل هادئاً والفلك صافياً الّا ان بعض غيوم كانت تحجب على القمر البالغ ربعهُ الاخير فكادت اشعتهُ لا تبعد خلالها وكان فرسوس متكئاً على طرف القارب يجول بنظره الى ما حوله ويسهر متيقظاً على اوراق الشجر العصة المنبسطة تحت قدميهِ خاصة نطاقها منظر الارض . ويجعل من ادنى حركة ويتقصى علة كل حفيف وهرير

وكان في هذه الحال يزداد بالهُ قلقاً وتشوشاً لوجوده في مغارة مرعبة فاحدث الاهوال تدركهُ والقلاقل تشغل دماغهُ لان المخاوف تزداد هيجاناً والرعشات ثوراناً عند ما يكون السائح دنا من نهاية مثل هذه السياحة وقاسى مشقات ومخاطر شتى . فحينما يقارب نهاية السياحة يتخيل له الميعاد فارّاً من امامه

زد على ذلك ان حالتهم كانت تبي الاطمئنان اذ انهم في وسط بلاد بربرية ومتعرضون في كل وقت لخطر فقدان ما كان لهم من الواسطة الوحيدة لخروجهم منها . لان العلامة لم يكن يركن اركاناً قطعياً للقبة الهوائية اذ لم تعد كما كانت فيما مضى حين كان يديرها بكل طمأنينة وهي تأبى ادارتهُ

وفيما كان العلامة فريسةً لهذه الهواجس ترأى لهُ احياناً انهُ يحس بدوي في تلك الغابات الرحيبة حتى خيلت لهُ نار مشوبة بين الاشجار فدقق نظره

حيث تحيلها ثم تناول نظارته الليلية ونظر بها الى تلك الجهة فلم يرَ شيئاً بل ظهر له انهُ قد انقطع الدوي وراد الهدء والسكينة

فتحير وخطر على باله ان قوماً يرصدونهُ خفية ليغدروا به فلبث يتوجس ويتسمع ولم يشعر بادنى حركة فمضى وقت محنته وايقظ كادي وامرهُ بشديد التيقظ والسهر واضطجع هدا يوسف المستغرق في النوم

اما كادي فاخذ يمسح عينيه تعباً وهو على اتم الهدو والرواق ويفرك عينيه اذ كان يشق عليه فتحهما من شدة النعاس ثم سند راسهُ الى كوعه واخذ ينفخ بغليونه مثيراً منهُ الدخان كالمحاح كي يطرد من صدره عفريت النعاس

وكان كل ما حولهُ في هدء وسكينة الّا نسيم لطيف يثني افنان الاشجار ويهز القارب هزّاً خفيفاً ويزيد على الصياد سطوة النعاس المستولي عليه رغماً عن ارادته فعمد لمقاومته بعزم وكثيرا ما كان يفتح مقلتيه ويطرق حيناً بعد حين ببصره الى الظـلام فلا يرى فيه شيئاً اخيراً تغلب عليـه التعب وسلط عليه النعاس. الّا انهُ لم يدر كم من الزمن مكث في راحة النوم عندما ايقظته تكتكة حريق. فهب من رقاده ففرك عينيه ونهض على قدميه فشمَّ حرارة شديدة في وجهه من النار المضطرمة في الغاب

فصاح وهو لا يدري علة هذا السعير النار النار

فهبَّ صاحباه من رقادهما وصاح صموئيل مرتعداً : ما هذا

قال يوسف. هذه حريقة ولكن من تراه قد . . .

وعندها سمع صوصاء وضجيج تحت اوراق الاشجار المضيئة باللهيب

فصاح يوسف. قاتل الله هؤلاء البرابرة فانهم قد اضرموا النار بالغـاب ليحرقونا لامحالة

قال العلامة . لا شك ان هذا عمل جماعة الطلبة اي مشائخ الحجي

وكانت النار تحدق بالمنصورة وتسمع قرقعة الحطب اليابس وعين الاغصان الخضراء . وكل حي من ذلك النبات يتقوس ويلتف في العصر المبيد ولم يكن يعاين الطرف الا بحرًا من لهيب والاشجار الكبيرة تستحيـل الى سواد في وسط الاتون واغصانها معشاة جمر نار مضطرمة وكان هذا اللهيب والحريق ينعكس ضياؤهُ على الغيوم حتى خيل للسواح انهم قائمون في وسط دائرة من نار

فصاح كـادي . الفرار الفرار على الثرا ما من سبيل خلافهُ للنجاة

اما فرغوسن فمسكهُ بيده مسكًا متينًا ووثب على حبل المرساة فقطعهُ بضربة فاس وما زال اللهيب يمتد نحو القبة وكان دنا منهـا حتى صار يلذع جوانبها المحمية . فلما تملصت المنصورة من قيدها صعدت في الهواء وتعلت ما ينيف عن مسافة الف قدم

فعندها علا صراخ وضجيج هائل من قعر الغاب ثم ولاه طلقات بنادق فلم تصب القبة بل اخذ الهواء يقذف بها نحو الغرب حتى اصبح الصباح وبلغت الساعة الرابعة بعد انتصاف الليل

## الفصل الحادي والاربعون

في حماية الطلبة ومطاردتم السواح واعتدال الريح والمحاص المصورة واحر موتهم ودفاعهم طلق السادق وصر سِمال وشلالات عويي والهواء الحار وامحار الهر

قال العلامة · لو لم نخف حمل المصورة الدارح مساء لكنا هلكنا لا محالة

احابه يوسف · ما احكم عمل الامور في اوقاتها . فان عاقبتها النجاة من الهلكة وما في ذلك من عجب

قال ورعوس لم نأمن بعدُ من الخطر

قال ديك . لاتخف يا سيدي ان المصورة لا تنحدر على الثرا بدون اذنك وان اقترضنا انها تنحدر ترى ما تكون عايلتها

قال العلامة · تسألني ما تكون عائلة انحدارها يا ديك . انظر الى ما وراءك

فنظر ديك وكانت السواح قد حاروا حدود الغاب وأوا موكب من وسان لابسين سراويل كبيرة وعلى اكتافهم برانس تعوم في الهواء وجميعهم مسلحون بعضهم برماح وبعضهم بسادق فيجرون الى جهة مسير المصورة السائرة في الهواء سيراً معتدلاً

فلما نظروا السواح عووا عواء الذئاب الكاسرة مشرعين اليهم الرماح وعلى سحنتهم السمرا تلوح امارات الغضب والوعيد ومما يزيد منظرهم توحشا لحى لهم متفرقة الشعر لكنها مقشعرة . فحاروا بدون عناء تلك الاعصاب المحصصة وتلك الدرجات المعرجة المودية الى سِمال

قال العلامة : هؤلاء هم حماعة الطلبة القوم القساة شيوخ الحجي الوحوش

الكاسرة . واني لاوثر القيام بوسط غاب تحدق به الضباع من ان اقع بين ايدي هؤلاء الاشقياء

قال كادي الحق يقال ان هؤلاء القوم ليس على وجوههم امارات الصلح والسلام . بل ان هيئتهم تنبئ عن جسارة فيهم وشدة بأس وشر اقتحام

اجاب يوسف . الّا ان هؤلاء الوحوش ليسوا طائرين وهذا من حسن حظنا ونعم التوفيق

قال فرغوسن . انظرا يا خليليَّ هذه القرى الدارسة والبيوت المحروقة . فهذا عملهم . وقد اذلوا الدمار والبوار في الاراضي العامرة والبقاع الناضرة

اجاب كادي . مهما كان من امرهم لا يقدرون ان يدركونا واذا تيسر لنا ان نجعل النهر فيما بيننا وبينهم امنا من شرهم وعرارهم

اجاب العلامة . قد اصبت يا ديك انما الاهم ما يكون الان التحاشي من الهبوط

قال هذا وهو ينظر الى ميزان الهواء.

اجاب كادي : كيفما كان الحال لا بأس من ان نعدّ اسلحتنا

قال يوسف . ما في ذلك من محذور يا ديك . وقد اصبنا بعدم بدرها على الطريق

فعدها صاحب الصياد : ايم الله ان قرابيني لن تفارقني . وقد حشاها بمزيد الاعتناء . وكان بقي عنده من البارود والرصاص كمية وافرة .

فسأل العلامة : ترى يا فرغوسن ما علو المصورة

قال العلامة . نحو سبعمائة وخمسين قدماً . انما لم يعد في مكنتنا ان نصادف مجاري ارياح توافقنا صعوداً او نزولاً بل انا سائرون على رحمة القدرة

قال كـــادي : لا حول ولا قوة الّا بالله . ان الريح خفيفة فلو صادفتنا عاصفة مثل تلك العواصف التي اصابتنا في الايام الماضية لعاث هؤلاء الاشقياء عن نظرنا منذ الان

قال يوسف . ها ان هؤلاء الاشرار تابعون لنا هيئةً كأنهم يتنزهون في متابعتنا

قال الصياد لو كنا على مسافة رمية رصاص لكنت اتنزه في رميهم واحداً فواحداً

اجاب فرغوسن اي نعم ولكن لكانوا هم ايضاً على رمية رصاص منا ولكانت المنصورة ايسر هدف لطلقات بواريدهم . فاذا ما مزقوها بالرصاص تأمل اي مصير يصير حالنا . حمانا الله من مثل هذه الدواهي

اما جماعة الطلبة فلم يزالوا يتابعون السواح في مدة كل ذلك الصباح . وكانت القبة قد قطعت مسافة خمسين ميلا نحو الغرب قبل الساعة الخامسة وكان العلامة يراقب الفلك ويدقق النظر في ادنى الغيوم المرتفعة في الافق ولا يزال يتوحس تغيراً في الجو . ويقول في ذاته . ما يكون حالنا اذا ما دفعتنا الرياح نحو النهر الاسود

هذا وكان يرى القبة تميل الى الانخفاض ميلا ظاهراً وقد كانت انخفضت منذ سفرها مسافة اكثر من ثلثمائة قدم وسنغال تبعد عنهم نحو اثنى عشر ميلا فيلزمهم من الوقت للوصول اليها ثلاث ساعات على معدّل سيرهم الحاضر

فطرق سمع العلامة حينئذٍ صياح وضجيج جديد فاصغى وتفرّس ورأى خيالة الطلبة يحثون في تعجيل جري خيلهم

فنظر العلامة الى ميزان الهواء فعلم علة هذا الغوغاء والضوضاء

قال كادي · لعلَّ القمة تمحص

احاب ورعوس · نعم

قال يوسف نعود بالله من الشيطان الرجيم

وما مضى ربع ساعة من الزمان ألا قد امسى القارب على مسافة مائة وخمسين قدماً من الارض . اما الريح فازدادت قوةً

فاستكدت جماعة الطلة حيولهم جريا وسمع في الحال طلقة بواريد في الفلاء

فصاح بهم يوسف · حطأت طلقتكم يا همج انا يحسن ما ان نبعد عا هؤلاء الانذال

قال هذا وصوب ناروده الى واحد من الخيالة السابقين واطلقها فجاء الرصاص به فسقط يخبط بدمائه على الثراء وقفت ارفاقه واحدت المنصورة بالمسير ففاتتهم

قال كادي · اراهم دوي تخطط

احاب العلامة · نعم لانهم موقوف قبضهم علينا واذا نزلنا بعد لنالوا مأربهم منا · ومن ثم لا بد لنا من الصعود

قال يوسف · وما نلقيه من القمة لتخفيف حملها

قال العلامة · ينبغي ان نرمي منها كل ما بقي من مونة مرلى اللحم فان وزنهُ يساوي ثلاثين اقة ينبغي ان نتخلص منهُ

فاسرع يوسف بامتثال امر العلامة فرمى به قائلاً هاك يامعلمي رميت ولا اسف عليهِ

وكان القارب يكاد يمس الثرا ومن بعد هذا ارتفعت القبة واحدت جماعة الطلة بالصخيج والصراخ · اما المنصورة فعادت بعد نصف ساعة تمحص

بسرعة والغاز ينصرف لخلال الغطاء

فانحص القارب الى الثرا حتى كاد يمسها بروره فاسرعت جماعة الطلبة نحو القبة وارشكوا ان يصلوا اليها ولكن قد حدث حينئـذٍ ما من عادته ان يحدث في مثل هذه الظروف وهو ان القبـة بعد ما انحصت وكادت تقف على الثرا قفزت مرتفعة في الفلاء ولم تهبط من جديد الّا بعد ما سارت مسافة ميل واحد

قال كـادي بعيظٍ : هل ترى لا بد لنا من الهبوط بين ايدي هؤلاء القوم

فصاح العلامة بيوسف ارمِ ما بقي عندنا من مونة الماء والآلات وكل ما له ادنى ثقل حتى المرساة نفسها فسك يوسف موازين الهواء وموازين الحرارة ورمى بها الّا انّ لم يأتِ هذا الّا بما قلّ من التخفيف والقبة التي كانت ارتفعت هنيهة قد عادت سريعًا فهبطت الى الثرا وجماعة الطلبة تسرع سرعة الطير في اثرها ولم يكن بينها وبينهم اكثر من مسافة مائتي قدم

فعندها صاح العلامة ارمِ بالبارودتين الى الارض

اجابه الصياد لا ارمي بهما قبل ان اطلقهما

قال هذا واطلق بهما اربع طلقات ورمى اربع حبـالة بالرصاص فعزَّت حينئذٍ ارفاقهم عزير الوحوش الكاسرة وعوّت عواء الذئاب

اما المصورة فعادت ترتفع وهي تقفز قفزات الكرة المرنة الواقعة على الارض

والحاصل ما كان اغرب من مشهد هؤلاء المساكين المحاولين الفرار من الهلكة عركة تقفز بهم قفزات الجبابرة كأنها تستعيد قواها عند ما تمس الحضيض الّا انّ لم يكن بدٌّ من نهاية هذه الحال وكان نحو الظهر والقبـة قد

مهكت وتعرعت وتروست وامسى عطاها مرتحيًا -اثمًا في الهواء وتتراكم الطيات في القماش متلاطمةً بعضها بعضًا

اما يوسف فلم يحب نشيء بل لبث يتعرس بعطمه ويرقب امارات محياه

قال كادي لا طريقة للنجاة ولا بدّ من الهبوط

ثم قال العلامة · لا امل بقي علينا ان نخفف حمل المنصوره باكثر من مئة اقة

فتعجب كادي من كلام العلامة هذا وظن انهُ اعتراهُ جنون

فقال وما عندنا نلقيه من القبة

قال العلامة : القارب هلموا نتشبث بالشبكة فيمكننا ان نتمسك بعراها ونقطع النهر · فالبدار البدار الى هذه الوسيلة

فلم تتوقف هؤلاء الرجال المحصورون عن البدار الى هذه الواسطة الاخيرة للنجاة من الهلكة فتعلقوا بعرى الشبكة كما ارشدهم العلامة وكان يوسف متمسكًا بيد في الشبكة وبالاخرى قطع حبال القارب فسقط عند ما كانت القبة تهوي بارلة الى الحضيض لا محالة فلما تخففت القبة من ثقل القارب تعالت في الفضاء مسافة ثلثمائة قدم فهتف يوسف هتاف الفرح وقال · سيري باسم الله مجراكِ

فدقت الطلبة الركاب واحدث الخيل بالإهماج اما المنصورة فقد صادفت ريحًا شديدة فسفتهم واسرعت نحو اكمة تحجب افق العرب · فكانت للسواح اكثر توفيق للمسير لانهم قد تمكنوا من الاختيار فوق راسها اما الطلبة فقد اضطروا ان يأخذوا طريق الشمال ويدوروا على اسفل الهضبة فطالت بهم الطريق وتأخر مسيرهم

وكانت الثلاثة الرواق متمسكين بالشبكة وقد تيسر لهم ان يسدوا ثغر القبة

محاوا بها كأنها حيث يعوم في الهواء.

فما عتموا ان حاروا الهضبة وادا بالعلامة يصيح . النهر النهر يا ايها الاحباء
نهر سعال لانهم نظروا امامهم علي مسافة ميلين نهر سعال يجري في مسيل
معوج جدًا فالشـاطئ، الاخر موقعهُ محصص وتربتهُ محصبة كال مجا ماموناً
من اصحاب التعدي والاداء ويصلح للسواح محلًا للنزول

قال فرعوس . بقي علينا مسير ربع ساعة فنجو من اسواء عائلة
انا لم يتيسرلهم ما كانوا يتعونه لان القبة كانت تنحدر شيئاً فشيئاً وهي
فارغة حتى استوت على ارض كادت تخلو من كل نبات وهي حدورات
طويلة وسباسب مصحرة ليس فيها الّا بعض العليق وعشاب كثيفة يبستها
حرارة الشمس

والمنصورة انقضت على الثرا وقفزت مرارًا عديدة وكانت قفزاتهـا تقل
قوَّة حتى علقت بعد قفزتها الاخيرة باطراف الشبكة في رؤوس اغصان شجرة
البوناب وهي الشجرة الوحيدة في تلك البلاد العامرة

قال الصياد قد انتهى الامر

قال يوسف ولسنا بعيدين عن النهر الّا مسافة مئة قدم

فخلَّ هؤلاء السواح الثلاثة المكودوا الحط على الارض ودهب العلامة ورفيقه
الى جهة سعال وكان النهر يدوي دويًا مديدًا . فلمـا بلغ فرعوس الى
شاطئهِ عرف شلالات عويا فلم يجد قاربًا على صفتهِ ولا ما فيهِ نسمة حياة

وكانت مياه النهر تنحدر من علو مئة قدم الى مسيل عرضهُ الفـا قدم
ويُسمع لها دويّ طنان فتجري من الشرق الى الغرب ويعترض مجراها رصيف
صخور ممتدة من الشمال للجنوب وفي وسط الشلالات صخور منتصبة باشكال
غريبة كأنها اسماك حسية مجحرة

وكان عدم امكانهم مجاز هذه الوهدة من الامور الواضحــة ومن ثم لم يتمالك كادي من ابداء امارة اليأس والقنوط

اما العلامة فرغوسن فلم ييأس بل سمع على الفور يهتف هتاف النشاط والجرأة قائلاً: ثقا لم يزل لنا باب للنجاة

قال يوسف: هذا كان املي بلباقتك ودرايتك وكان يوسف يثق بعلمــهِ ثقة غير متزعزعة اما العلامة فكان قد شاهد العشب اليابس المكسي صفة النهر وخطر لهُ على بال فكر اعدَّهُ لحيلة الوحيدة لنجاتهم من الهلكة. في الحال رجع برفيقيهِ الى القبة وقال لهم: ان بيننا وبين اولئك الاشقياء مسافة ساعة فاسرعوا بجمع كمية وافرة من هذا العشب اليابس فيلزمني منــهُ على الاقل مئة لبرة

مسالة كادي: ما فائدته لنا

اجابهُ العلامة: ليس عندي غاز فابني احمــل المصورة على جناح الريح بالهواء والحالة هذه فاني اجور النهر بقوة هواء سخن

فعندها صاح كادي ـ عافاك الله يا خليلي صمويل حقًا انك من كرام الرجال

فانكب يوسف وكادي على العمل وما مضت برهة الّا وجمعا كديسًا كبيرًا من العشب فحملوهُ تحت شجرة البوباب. وكان العلامــة وقتئذٍ قد وسع ثغر القبة نشقهِ اياه في اسفلهِ واخرج من اللولب كل ما كان باقيًا من اثار الايدروجين ثم كوَّم كمية من العشب تحت الغطاء وجعل النار فيهِ

فاخذت القبة في برهة وجيزة تنتفخ بالهواء الحارّ فيكفي من الحرارة مئة وثمانون درجة لتنقيص نصف ثقل الهواء الكائن في القبة ومن ثم شرعت المصورة تتخذ شكلها الكروي وكان العشب اليــابس كثيرًا هناك والعلامة

يجدّ في اصرام النار والقمة تنتفخ وتتدّور على مرأى العين

وكان مضى من الزمان ثلاثة ارباع الساعة. فظهرت حينئذٍ على مسافة ميلين للشمال الطلبة وعلا صجيجهم وصراخهم وسمعت دقة حوافر خيولهم المهجة

قال كادي: من الان الى عشرين دقيقة يصلون الى هنا

قال العلامة: العشب العشب يا يوسف فبعد عشر دقائق نصبح راكبين الريح في الفضاء.

قال يوسف: هاك يا سيدي

قال العلامة: فلتتمسكَّ بالشبكة كما عملنا سابقا

قال يوسف: لا تخف يا معلم لا تخف

فما مضت عشر دقائق الّا واخذت القمة تميد مشيرة بميلها للصعود وكان الطلبة قد دنوا منهم حتى لم يعودوا بعيدين عنهم اكثر من خمس مئة خطوة

فصاح وعوس تمسكا جيدًا

اجاباهُ تمسكنا لا تخف

فدفع وعوس برجلهِ كمية من العشب الى الموقد. وكانت القمة قد اخذت تمام انتفاخها بازدياد الحرارة فارتفعت الى الفضاء ماسَّة اغصان البوباب

فصدها صاح يوسف: فلنرحل. فاجابهُ الطلبة بطلقة بنادقهم فجاءت رصاصة في كتفــهِ فثلمتهُ ثلمًا خفيفًا. اما كادي فانحنى واطلق قرابينتهُ بيدٍ واحدة فاصاب واحدًا منهم فصرع على الثرا يخبط بدمائهِ. وكانت المنصورة تسرع بالصعود والطلبة يضجون ويولولون كيدًا وغيظًا بما يفوق وصف الواصفين الى ان بلغت القمة في الفلاء مسافة ثمانمائة قدم عن الارض وريح عاصفة تقذف بها فوق مجرى النهر فلما بلغت الى ما فوق تلك اللجج وبينما كان العــلامة ورفيقاهُ يتفرسون بلجة الميازيب المفتوحة تحت اقدامهم شعروا بالقمة كأنها

تمايل وتميد بهم تمايلًا وميدًا اوعبا قلوبهم وجعًا وقلقًا لكن عنـاية الرحمن قد وقفت مسيرها الى خير للنهاية . فبعد عشر دقائق اخذت القبة بالهبوط شيئًا فشيئًا الى الشاطئ الاخر

وكان هناك نحو عشرة رجال عليهم ملابس افرنسية استولى عليهم ما لا يوصف من الحيرة والدهشة والرعب عند مشاهدتهم تلك القبـة ترتفع في الفضا من جانب شاطئ النهر الايمن فلا يبعد انهم حالوها في اوّل وهلةٍ حادثًا سماويًا اما رئيسهم وقائمقام البحرية وبيرقدار السفينـة كانوا عارفين من جرائد اوربا مشروع سياحة العلامة ورغوس الهمام المحسور فما طال الحال حتى هدأ روعهم ووقفوا على حقيقة الواقع

وكانت القبة تمشّ شيئًا فشيئًا وتهبط باولئك السواح الابطال وهم متمسكون بعرى الشبكة . اما لم يكن مؤكدًا انهم يسقطون على الحضيض فمن ثم نزل الرجال الفرنسيس في النهر وتلقوا بين ايديهم الثلثـة الرجال الانكليز عند ما كانت القبة نازلة في النهر على مسافة بعض باعات من شاطئ سنغال الايسر

فصاح القائمقام : ألست العلامة ورغوس

اجابهُ العلامة ورفيقاهُ بتمام الرواق والسكينة . بلى

فتناول الفرنسيس السوّاح واتوا بهم الى شاطئ النهر اما القبة فقد كان انتفاخها من باب النصف فوقعت في النهر وحرتها المياه كفقاعة كبيرة فذهبت غريقة في شلالات غوينا

قال يوسف وهو يأسف عليها . مسكينة المصورة مسكينة

اما العلامة فلم يتمالك عن البكاء ففتح ذراعيهِ وعانق رفيقيهِ وقد خاضت قلوبهم بحر السلوان والحبور

# الفصل الثاني والاربعون

في الختام والتقرير والعائر العرنسية ومعسكر مدين ومدينة القديس لويس والبارجة الانكليزية وعودة السوّاح الى لندرة

ان الرجال الافرنسيين الذين وُجدوا على شاطئ النهر كان قد بعث بهم والي سنغال الى تلك الاطراف وكانوا اثنين من الضباط وهما القائمقام دي واس والبيرقدار روداميل ورئيس عشرة وسبعة انفار من الجنود وكانوا منـذ يومين متشاغلين في التفتيش على اوفق محل لاقامة معسكر في عوينا وواهم على غير انتظارهم العلامة فرغوس ومن معهُ

فلا حاجة الى وصف ما جرى من رسوم التهاني والمصافحة للثلاثة السواح محقق الفرنسيس انقسهم انحار ذاك السفر المهول وقد اصبحوا شهود عيـان لصمونيل وفرغوسن

ومن ثمَّ قد رغب اليهم العلامة اولًا ان يحققوا تحقيقًا رسميًا وصولهُ الى شلّالات عوينا

فسال القائمقام دي واس: ألا تستحسن جنابك وضع امضـائك على صك الشهادة بواقعة سفرنا بل بلوغنا الى هنا

اجابهُ القائمقام: الامضاء وكرامةً

فاتوا بالانكليز الى منزل وقتي اقاموهُ على شاطئ النهر فصادفوا هناك السوّاح حسن الالتفـات والاهتمام ومؤنة عزيزة وهناك سطر بالعبـارات الاتية الشهادة المدروجة اليوم في سجلات شركة لندرة الجغرافية

(نحن المدونة اسماؤنا ذيله نشهد انا بتاريخه شاهدنا في العلاء العلامة فرغوس ورفيقيهِ ريشار كادي ويوسف ولصون واصلين اليـا وهم متمسكون

مجرى شكة قبة هوائية وان القبة المذكورة قد سقطت بالقرب ما على مسافة بعض خطوات في مجرى النهر ونحوها العدير الى شلالات عوبا فهناك ابتلعتها الوهدة ولم يعد يرَ لها اثر ولا عين. فشهادةً بالواقع حررنا هذه الوثيقة وامضيناها مع المذكورين للمصادقة تحريرًا عند شلالات عوبنا في ٢٤ ايار سنة ١٨٦٢)

| كاتبهُ | كاتبهُ |
|---|---|
| وعوسن صموئيل | دي وراس قائمقام |
| ريشاركادي | مشاة البحرية |
| يوسف ولصون | رودامل بيرقدار السعية |

من الانفار

| | |
|---|---|
| فيلمو | مايور |
| بليسيه | لوروا |
| رسكايه | عويليون |
| | لنال |

فهنا قد انتهت سياحة العلامة فرعوس ورفيقيهِ الصديدين العجيبة الثالثة بشهادة من لا ترد شهادتهم وكانوا هناك برفقة حلالٍ في جهرة قائل اوو انسًا من تلك التي اجتازوا بها ولها علاقات كثيرة مع المحلات الافرنسية وكان وصولهم لسنغال يوم السبت الواقع في ٢٤ ايار . وفي ٢٧ منهُ وصلوا الى محط العسكر في مدين الواقع على شاطئي النهر نحو الشمال

وهناك استقبلهم الضباط الافرنسون بمزيد الترحاب والاعزاز وابدوا نحوهم واجبات الضيافة على ما كان في مكنتهم . فتمكن العلامة ورفيقاه من السفر توًا عب بزهة وجيزة في بارجة يقال لها الباريليك وكانت تسير في نهر

سعال قاصدة مصة . وعب خمسة عشر يوماً اي في ١٠ حزيران بلغوا الى سان لويس حيث استقبلهم الوالي استقبالاً فاخرًا . وقد كانوا استراحوا غاية الاستراحة من اتعابهم واهوالهم . اما يوسف فكان يجاوب من يسألهُ عن سياحتهِ . ان سياحتنا ادلّ السياحات فمن رعب بالامور المحجة لا اشير عليهِ ان يباشر مثلها . لانها تمسي في آخر الامر مملة ولولا ما صادفناهُ من الخطوب في بحيرة شاد ونهر سعال لتنا صحوًا

وكانت بارجة انكليزية على اهبة السفر فركبوها وفي ٢٣ غرة حزيران بلغوا الى بورتسموت وفي اليوم التالي اقبلوا الى لندرة

فلا حاجة الى وصف الترحاب والاعزاز الذين استقبلتهم بهما الشركة الجغرافية الملوكية فان ذلك يفوق وصف الواصفين فسافر كادي في الحال الى ادنبورج ومعهُ قرابينتهُ الشهيرة فاسرع الى خادمتهِ القديمة يخبرها عن وصولهِ بالسلامة

امَّا العلامة فرغوسن ويوسف امينهُ فلم يزالا على احوالهما المعروفة الَّا انهُ قد حدث فيهما تغير لم يدريا بهِ وهو انهما قد ارتبطا منذ ذلك بحبل الصداقة المتين

ولم تكفّ جرائد اوربا عن نشر عبير الثناء الجميل على اولئك السوّاح الحربيين الشجعان امَّا جريدة الدالي تلغراف فقد انفقت نحو ٣٧٧ الف نسخة يوم نشرت خلاصة سياحتهم

وقد خطب العلامة فرغوسن خطبةً انيقة في جلسة عمومية عقدتها الشركة الجغرافية الملوكية روى فيها قصة سياحتهِ في القبة الهوائية ونال لهُ ولرفيقيهِ نيشان الذهب المعد جائزةً لاشهر السياحات التي نشرت سنة ١٨٦٢ فاوّل ما حصل العلامة فرغوسن من نتائج سياحتهِ هو انهُ قد حقق

تحقيقاً راهناً الحوادث والاكتشافات الجغرافية التي اتى بها برث وورتون وسبيك وغيرهم

وكذلك قد قرب اليوم الذي تتمكن فيه من تحقيق اكتشافات العلامة فرعوس في الاصقاع الوسيعة الواقعة ما بين الدرجة الرابعة عشر من الطول والثالثة والثلاثين منهُ وذلك سداً على اكتشافات الساعين الان بها اي سبيك وغرنت ودي هوكلين وموريحو نصعودهم الى ينابيع النيل وولوجهم اواسط افريقية وعليهِ لا يعود ذلك القسم الكبير من الكرة مجهولاً لدى ذوي المعارف كما كان في الايام السالفة لسوء حظ سكانهِ المنفصلين عن باقي بني آدم كأنهم ليسوا من جنسهم ولا اخوةً لهم

# فهرسة الكتاب

وجه



